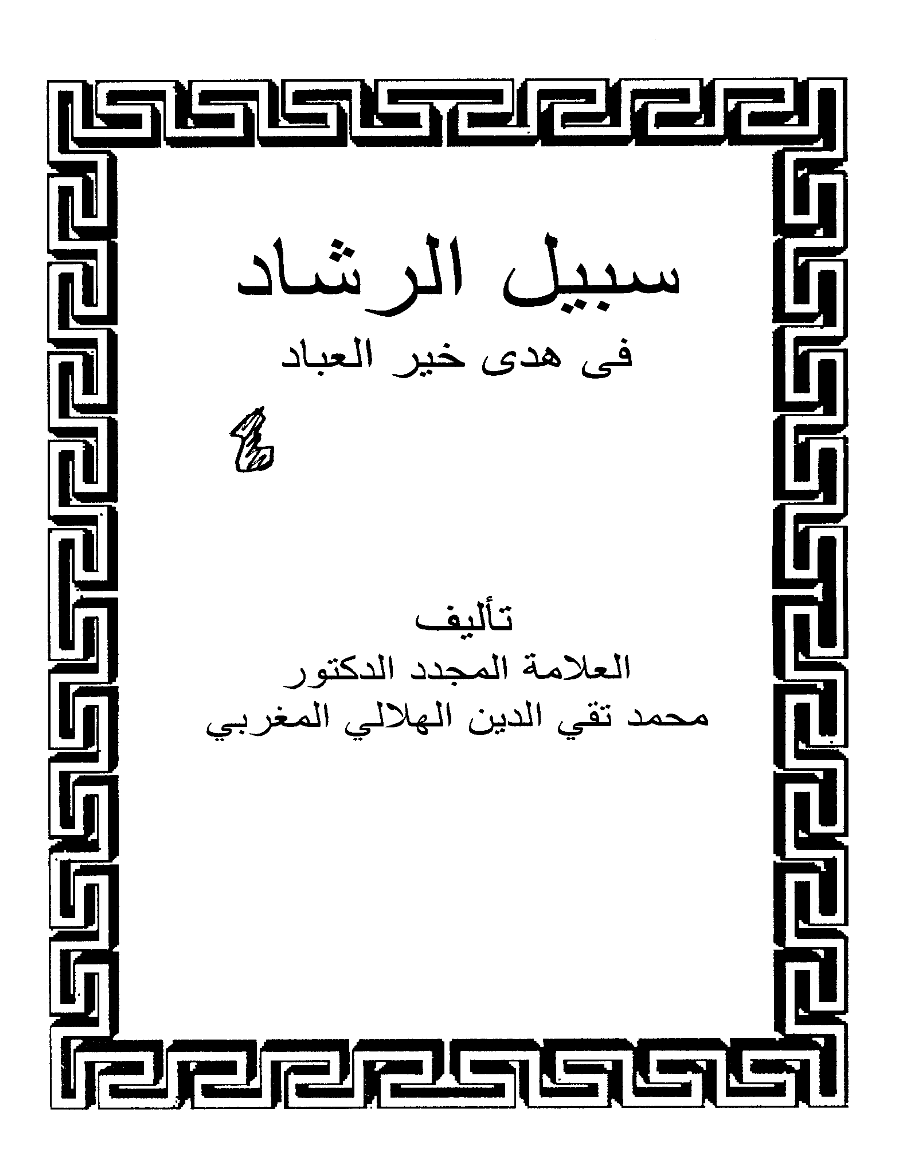


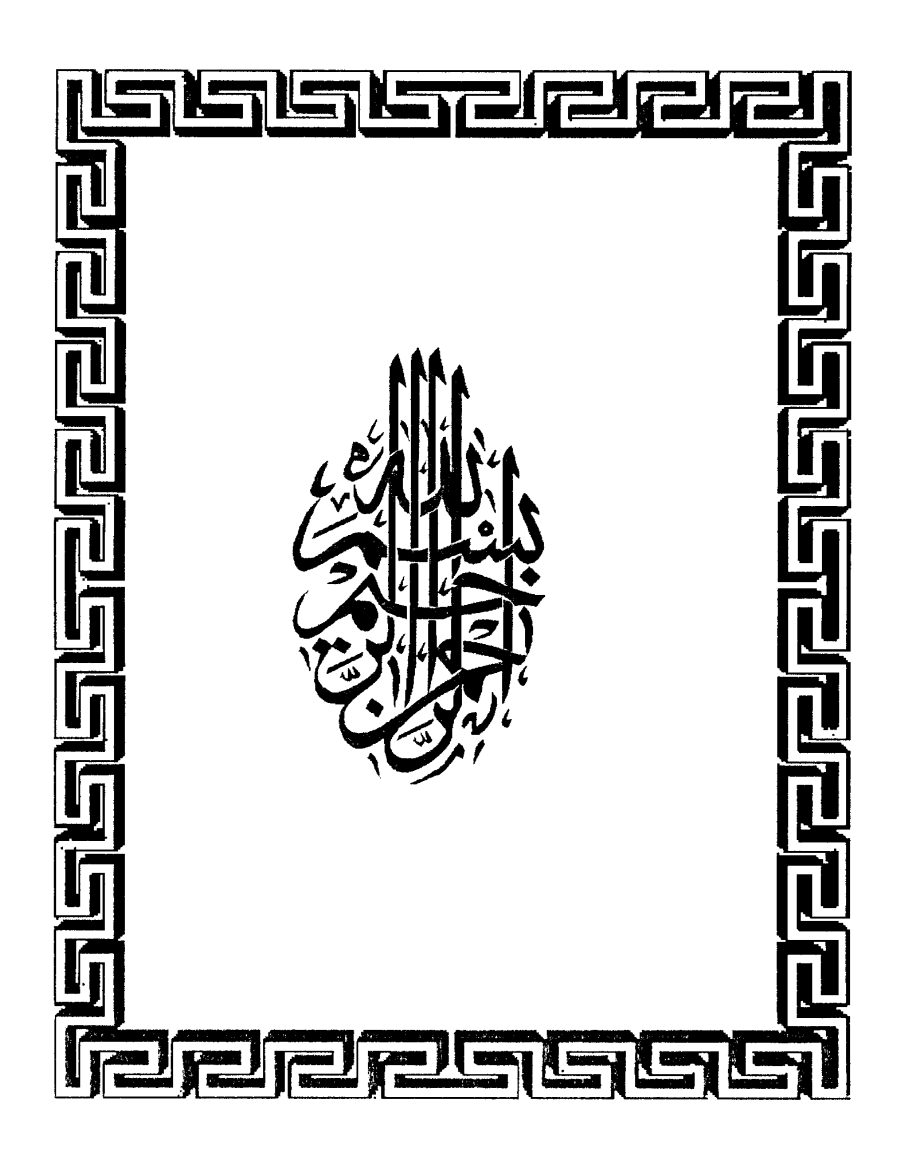
سبيل الرشاد

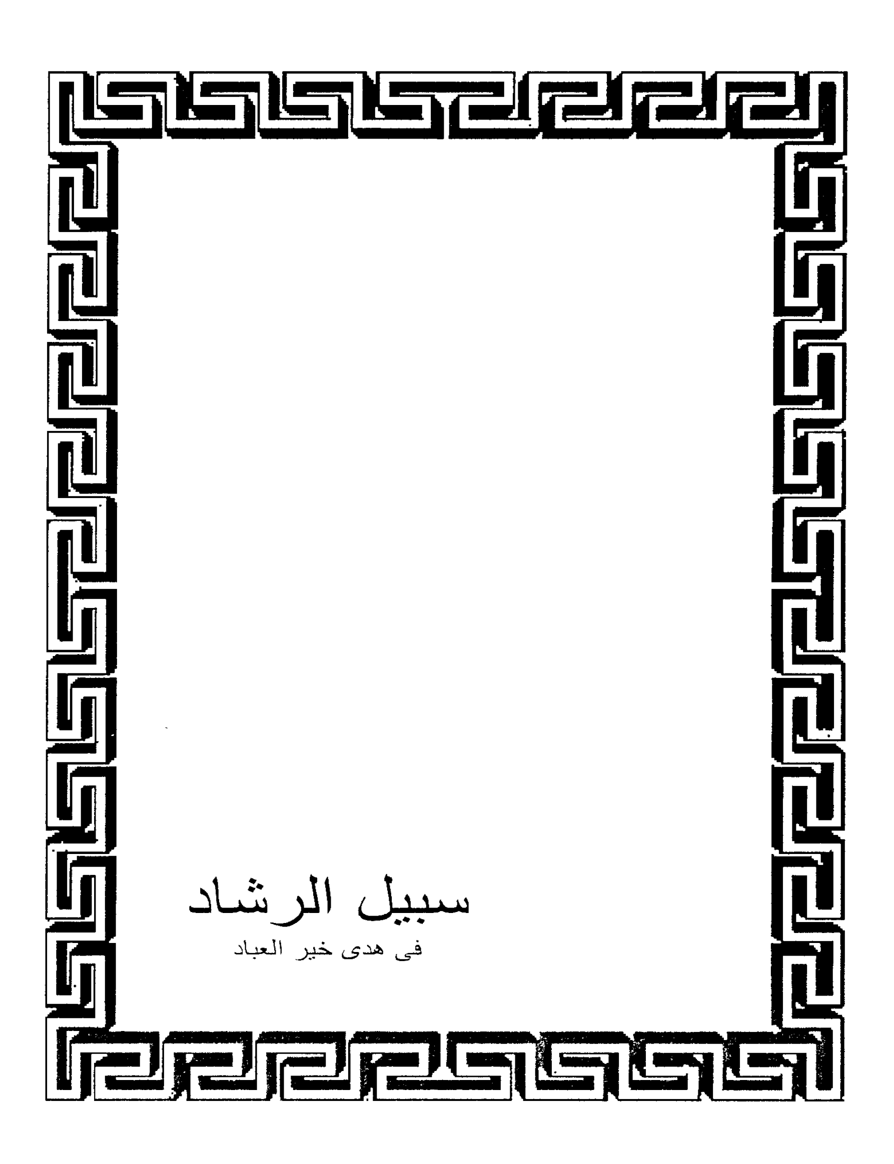
فى هدى خير العباد

تأليف

العلامة المجدد الدكتور

محمد تقي الدين الهلالي المغربي


بسم الله الرحمن الرحيم



سبيل الرشاد

في هدى خير العباد

الباب الرابع

قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾ [الأحزاب:٤٥-٤٨].

وقال البخاري في كتاب البيوع تحت ترجمة « باب كراهة الصخب في السوق » ثم روي بسنده إلى عطاء بن يسار قال: لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص م قلت أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ في التوراة قال أجل: والله إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ وحرزًا للأميين أنت عبدي ورسولي سميتك المتوكل ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب في الأسواق ولا يدفع بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويغفر ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا لا إله إلا الله ويفتح بها أعينًا عميًا وآذانًا صمًا وقلوبًا غلفًا.

وقاله: سعيد عن هلال عن عطاء عن عبد الله بن سلام.

قال محمد تقي الدين: ورواية هذا الحديث عن عبد الله بن سلام أولى من روايته عن عبد الله بن عمرو لأن عبد الله بن سلام حبر عالم بالتوراة وقد كان قبل إسلامه أكبر علماء اليهود في المدينة، وإسلامه حجة على اليهود لأنه لم يسلم إلا بعد أن سأل النبي ﷺ عن أصعب المسائل الواردة في الكتب السابقة فأجابه عن كل ذلك بما بهره وقد ذكرنا قصة إسلامه فيما مضى وهذه القصة التي ذكرها عبد الله بن سلام للنبي ﷺ في التوراة بذلت كل ما استطعت من الجهد أن أجدها في مجموعة العهد القديم فلم أجدها وقرأت البشارات التي ذكرها مؤلف كتاب إظهار الحق رحمه الله عليه بن خليل الرحمن الهندي: مما وجده في التوراة والإنجيل وهي ثماني عشرة بشارة ولم يذكر فيها حديث عبد الله بن سلام المتقدم الذكر فلعل اليهود حذفوه فإن من أمعن في قراءة التوراة يعلم يقينًا أن اليهود حذفوا كثيرًا منها وقد بقي فيها كثير مما هو حجة عليهم انظر كتاب إظهار الحق والمراد هنا أن النبي ﷺ مبشر لكل من اتبعه من الناس بإدراك سعادة الدنيا والآخرة ونذير لمن خالفه. سواء أكان يدعي

الإسلام أم لا يدعيه بالشقاء في الدنيا والآخرة هذا في حق من بلغته سنته أو قدر على البحث عنها فلم يبحث وسماه الله سراجًا منيرًا لأنه أضاء للبشر سبيل معاشهم ومعادهم فمن اتبعه جعل الله له نورًا يمشي به في حياته فلا يضل أبدًا ومن خالفه لم يجعل الله له نورًا وبقي يخبط خبط عشواء في ليلة ظلماء كالمقلدين قال الحافظ أبو محمد على بن حزم رحمه الله في المجلد الأول: صفحة (٦٦) ما نصه:

مسألة: ولا يحل لأحد أن يقلد أحدًا لا حيًا ولا ميتًا وعلى كل أحد من الاجتهاد حسب طاقته. فمن سأل عن دينه فإنما يريد معرفة ما ألزمه الله عز وجل في هذا الدين، ففرض عليه وإن كان أجهل البرية أن يسأل عن أعلم أهل موضعه بالدين الذي جاء به رسول الله ﷺ، فإذا دل عليه سأله. فإذا أفتاه قال له: هكذا قال الله عز وجل ورسوله ؟ فإن قال له نعم، أخذ بذلك وعمل به أبدًا، وإن قال له هذا رأيي أو قياس أو هذا قول فلان وذكر له صاحبًا أو تابعًا أو فقيهًا قديمًا أو حديثًا أو سكت أو انتهره أو قال له لا أدري، فلا يحل له أن يأخذ بقوله ولكنه يسأل غيره.

برهان ذلك قول الله عز وجل: ﴿ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ ﴾ فلم يأمرنا عز وجل قط بطاعة بعض أولي الأمر، فمن قلد عالمًا أو جماعة علماء فلم يطع الله تعالى ولا رسوله ﷺ ولا أولي الأمر، وإذا لم يرد إلى من ذكرنا فقد خالف أمر الله عز وجل ولم يأمر الله عز وجل قط بطاعة بعض أولي الأمر دون بعض فإن قيل: فإن الله عز وجل قال: ﴿ فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ ﴾. وقال تعالى: ﴿ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ ﴾. قلنا نعم ولم يأمر الله عز وجل أن يقبل من النافر للتفقه في الدين رأيه ولا أن يطاع أهل الذكر في رأيهم ولا في دين يشرعونه لم يأذن به الله عز وجل وإنما أمر تعالى بأن يسأل أهل الذكر عما يعلمونه في الذكر الوارد من عند الله تعالى فقط لا عمن قاله من لا سمع له ولا طاعة وإنما أمر الله تعالى بقبول، نذارة النافر للتفقه في الدين فيما تفقه فيه من دين الله تعالى الذي أتى به رسول الله ﷺ لا في دين لم يشرعه الله عز وجل، ومن ادعى وجوب تقليد العامي للمفتي فقد ادعى الباطل وقال قولاً لم يأت به قط نص قرآن ولا سنة ولا إجماع ولا قياس، وما كان هكذا فهو باطل لأنه قول بلا دليل، بل البرهان قد جاء

بإبطاله قال تعالى ذامًا لقوم قالوا: ﴿ إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلا ﴾. والاجتهاد إنما معناه بلوغ الجهد في طلب دين الله عز وجل الذي أوجبه على عباده، وبالضرورة يدري كل ذي عقل سليم أن المسلم لا يكون مسلمًا إلا حتى يقر بأن الله تعالى إلهه لا إله غيره وأن محمدًا رسول الله ﷺ جاء بهذا الدين إليه وإلى غيره، فإذ لاشك في هذا فكل سائل في الأرض عن نازلة في دينه فإنما يسأل عما حكم الله تعالى به في هذه النازلة، فإذ لا شك في هذا ففرض عليه أن يسأل إذا سمع فتيا، أهذا حكم الله وحكم رسوله ﷺ ؟ وهذا لا يعجز عنه من يدري ما الإسلام ولو أنه كما جلب من كوكو[1] وبالله التوفيق.

الباب الخامس

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَـٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴾ [الأحزاب:٦٤-٦٨].

قال (ك): أي أبعدهم من رحمته ﴿ **وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا** ﴾ أي في الدار الآخرة ﴿ **خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا** ﴾أي ماكثين مستمرين فلا خروج لهم منها ولا زوال لهم عنها ﴿ **لاَّ يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا** ﴾ أي وليس لهم مغيث ولا معين ينقذهم مما هم فيه ثم قال: ﴿ **يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ** ﴾ وهم كذلك ﴿ **يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولا** ﴾ أي يسحبون في النار على وجوههم وتلوي وجوههم على جهنم يقولون وهم كذلك يتمنون أن لو كانوا في الدار الدنيا ممن أطاع الله وأطاع الرسول وهكذا أخبر عنهم في حالتهم هذه أنهم يودون أن لو كانوا أطاعوا الله وأطاعوا الرسول في الدنيا ﴿ **وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلا** ﴾.

---

(١) كوكو: بلد في السودان كان يجلب منه الناس ويباعون في الأسواق ظلمًا وعدوانًا.

وقال طاووس: سادتنا يعني الأشراف، وكبراءنا يعني العلماء ورواه ابن أبي حاتم أي اتبعنا السادة وهم الأمراء والكبراء من المشيخة وخالفنا الرسل واعتقدنا أن عندهم شيئًا وأنهم على شيء فإذا هم ليسوا على شيء ﴿ رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ ﴾ أي بكفرهم وإغوائهم إيانا ﴿ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴾.

قال المحقق القنوجي عند قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا ﴾ وفي هذا زجر عن التقليد شديد وكم في الكتاب العزيز من التنبيه على هذا والتحذير منه والتنفير عنه ولكن لمن يفهم معنى كلام الله ويقتدي به وينصف من نفسه لا لمن هو من جنس الأنعام في سوء الفهم ومزيد البلادة وشدة التعصب ﴿ فَأَضَلُّونَا السَّبِيلا ﴾ أي عن السبيل بما زينوا لنا من الكفر بالله وبرسوله والسبيل هو التوحيد.

فصل

قال محمد تقي الدين: صدق رحمه الله فإن هذا الوصف ينطبق على المقلدين الذين يتعصبون لمذهبهم أو قول إمامهم وهم يرونه مخالفًا لما صح عن النبي ﷺ كالمالكية في ترك وضع اليمنى على اليسرى في الصلاة وترك التعوذ والبسملة ودعاء الاستفتاح ورفع اليدين عند الركوع والرفع منه وترك الرحمة والبركة في السلام إلى غير ذلك وكالحنفية في ترك رفع اليدين عند الركوع والرفع منه والقيام من اثنتين والجهر بالتأمين والاعتدال بعد الركوع إلى غير ذلك نسأل الله العافية ونحمده أن شرح صدورنا لإتباع الرسول وحبب لنا سنته وزينها في قلوبنا وكره إلينا التقليد والتعصب وقد تبرأ الأئمة الأربعة وغيرهم من المقلدين المتعصبين الذين ينسبون إليهم ما هم منه براء قال المحدث الشيخ صالح الفلاني في منظومة له في تأييد الاعتماد على العمل بالكتاب والسنة وإن خالفهما رأي الفقهاء:

قال أبو حنيفة الإمام ... لا ينبغي لمن له إسلام
الأخذ بالأقوال حتى تعرضا ... على الكتاب والحديث المرتضى
ومالك إمام دار الهجرة ... قال وقد أشار نحو الحجرة
كل كلام منه ذو قبول ... ومنه مردود سوى الرسول

والشـــافعي قـــال إن رأيـــتم قـــولي مخالفًـــا لمـــا رويـــتم
مـــن الحـــديث فاضـــربوا الجـــدارا بقـــولي المخـــالف الأخبـــارا
وأحمـــد قـــال لهـــم لا تكتبـــوا مـــا قلتـــه بـــل أصـــل ذلـــك أطلبـــوا
فـــاسمع مقـــالات الهـــداة الأربعـــة واعمـــل بهـــا فـــإن فيهـــا منفعـــة
لقمعهـــا لكـــل ذي تعصـــب والمنصـــفون يكتفـــون بـــالنبي

سورة سبأ

الباب الأول

قوله تعالى: ﴿ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾ [سبأ:٦].

قال المحقق القنوجي في تفسير هذه الآية ما نصه:

ويرى أي يعلم ﴿ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ﴾ وهم الصحابة قاله قتادة وقال مقاتل هم مؤمنوا أهل الكتاب وقيل جميع المسلمين والأولى أنه كلام مستأنف لدفع ما يقوله الذين سعوا في تأويل الآيات أي أن ذلك السعي منهم يدل على جهلهم لأنهم مخالفون لما يعلمه أهل العلم في شأن الكتاب ﴿ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ ﴾ أي الصدق يعني أنه من عند الله ﴿ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ ﴾ معطوف على الحق عطف فعل على الحق عطف فعل على اسم لأنه في تأويله كما في قوله صافات ويقبضن أي وقابضات كأنه قيل وهاديًا وقيل أنه مستأنف وفاعله ضمير يرجع إلى فاعل أنزل وهو القرآن والصراط الطريق أي يهدي إلى طريق ﴿ الْعَزِيزِ ﴾ في ملكه ﴿ الْحَمِيدِ ﴾ عند خلقه والمراد يهدي إلى دين الله الإسلام وهو التوحيد.

فصل

قال محمد تقي الدين: الصواب في تفسير الذين أوتوا العلم هو العموم لأن لفظ الذين من ألفاظ العموم ولا داعي إلى تخصيصه بأهل الكتاب أو الصحابة بل هو عام في كل من

عرف الحق واعترف به يدلنا على ذلك أن كثيرًا من أهل الكتاب يعترفون بأن هذا القرآن حق ويهدي إلى صراط مستقيم مع أن هذا الزمان من شر أزمنة الإسلام أو هو شرها على الإطلاق فإنه لم يبلغ من الضعف فيما مضى مثل ما بلغ في هذا الزمان ومن أراد أن يرى البرهان على ذلك فليقرأ كتاب رجال ونساء أسلموا وكتاب لماذا أسلمنا وكلاهما طبع وانتشر بالإنكليزية والعربية.

ومن عرف أن ما أنزل إلى رسول الله ﷺ هو الحق ويهدي إلى صراط العزيز الحميد لابد أن يتبعه مع بيان النبي ﷺ ويقنع به ويرى ما سواه باطلاً وهو الرأي والتقليد والتمذهب والتفرق والاستغناء بآراء الرجال عن هذا الحق المبين.

قال العلامة المحقق فخر بلاد شنقيط بل فخر بلاد المغرب في هذا الزمان محمد بن أبي مدين في كتابه الصوارم والأسنة في الذب عن السنة ما نصه، قال العلماء التقليد لغة جعل القلادة في العنق ومنه تقليد الولاة الأعمال والبدن ما تعرف به، وشرعًا أخذ مذهب من ليس قوله إحدى الحجج الأربع الشرعية بدون واحدة منها فالرجوع إلى الكتاب والسنة أو إجماع الأمة أو القياس الجلي ليس تقليدًا بل هو إتباعه، وإن شئت قلت هو قبول مذهب الغير من دون مطالبة بحجة اهـ.

وله حدود أخرى لكن لا يسلم أكثرها من إشكال واعتراضات اهـ.

قال الحافظ السيوطي في كتابه الرد على من أخلد إلى الأرض وجهل أن الاجتهاد في كل عصر فرض ما نصه.

اعلم أنه ما زال السلف والخلف يأمرون بالاجتهاد ويحضون عليه وينهون عن التقليد ويذمونه ويكرهونه وقد صنف جماعة لا يحصون في ذمه فممن صنف في ذلك المزني صاحب الإمام الشافعي ألف كتاب فساد التقليد نقل عنه ابن عبد البر في كتاب العلم والزركشي في البحر ولم أقف عليه وألف بن حزم ثلاثة كتب في إبطاله وقفت عليها وألف بن عبد البر كتاب العلم في ذلك وقفت عليه وألف أبو شامة في ذلك كتابه المسمى خطبة الكتاب المؤمل في الرد إلى الأمر الأول وقفت عليه وألف ابن دقيق العيد كتاب التسديد في ذم التقليد لم أقف عليه وألف ابن القيم كتاب أعلام الموقعين عن رب العالمين في أربعة من المجلدات

في ذم التقليد وقفت على كراستين منه وألف صاحب القاموس كتاب الأصعاد إلى رتبة الاجتهاد لم أقف عليه اهـ. كلام السيوطي بلفظه قلت وممن صنف في ذلك بعد السيوطي الشوكاني ألف كتابه القول المفيد في أدلة الاجتهاد وذم التقليد، وقد وقفت عليه وألف السنوسي كتابه إيقاظ الوسنان في العمل بالحديث والقرآن وقد وقفت عليه وألف الصنعاني صاحب سبل السلام كتابه إرشاد النقاد إلى تيسير الاجتهاد ولم أقف عليه اهـ، ثم ذكر ما نقلته من كتاب جامع بيان العلم وفضله عن ابن خويز منداد البصري المالكي.

سورة فاطر

الباب الأول

قوله تعالى: ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ [فاطر:٨].

قال (ك): يعني كالكفار والفجار يعملون أعمالاً سيئة وهم في ذلك يعتقدون ويحسبون أنهم يحسنون صنعًا، أي أفمن كان هكذا قد أضله الله فمالك فيه حيلة ؟ لا حيلة لك فيه **﴿ فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاء وَيَهْدِي مَن يَشَاء ﴾** أي بقدره كان ذلك **﴿ فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ ﴾** أي لا تأسف على ذلك فإن الله حكيم في قدره إنما يضل من يضل ويهدي من يهدي لما له في ذلك من الحجة البالغة والعلم التام ولهذا قال تعالى **﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾**

فصل

قال محمد تقي الدين: وكل من رد آيات القرآن وسنة النبي الكريم عليه الصلاة والسلام لتقليد مذهب أو شيخ طريقة أو حزب أو قومية أو هوى نفسه الأمارة وادعى أن الخير فيما ذهب إليه وأنه هو الصواب فهو ممن زين له سوء عمله فرآه حسنًا فينبغي لنا أن ندعوه بالتي هي أحسن ونفهمه خطأه ونقيم له الأدلة على ذلك فإن أبى نتأسف عليه ولا نبالغ في التأسف حتى نقتل أنفسنا حزنًا امتثالاً لأمر الله تعالى الذي أمر به إمامنا ورسولنا محمدًا ﷺ ثم قال العلامة محمد بن أبي مدين في الصوارم ما نصه:

قال الإمام الغزالي في الجزء الثاني من كتابه المستصفى ما نصه: التقليد هو قبول قول بلا حجة وليس ذلك طريقًا إلى العلم لا في الأصول ولا في الفروع اهـ كلامه بلفظه، وقال الحافظ بن الجوزي في كتابه التلبيس ما نصه: اعلم أن المقلد على غير ثقة فيما قلد فيه وفي التقليد إبطال منفعة العقل لأنه إنما خلق للتأمل والتدبر وقبيح بمن أعطى شمعة يستضيء بها أن يطفئها ويمشي في الظلمة واعلم أن عموم أصحاب المذاهب يعظم في قلوبهم الشخص فيتبعون قوله من غير تدبر لما قال وهذا عين الضلال لأن النظر ينبغي أن يكون إلى القول لا إلى القائل اهـ كلامه بلفظه. وفي تفسير البيضاوي عند قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ ﴾ ما نصه: والتقييد بالمعروف مع أن الرسول لا يأمر إلا به للتنبيه على أنه لا تجوز طاعة مخلوق في معصية الخالق اهـ منه بلفظه، وفي الجزء الأول من الاعتصام لأبي إسحاق الشاطبي ما نصه: وذكر الطبري في كتاب تهذيب الآثام له بإسناد إلى مالك قال. قال مالك: قبض رسول الله ﷺ وقد تم هذا الأمر واستكمل فإنما ينبغي أن نتبع آثاره ﷺ ولا نتبع الرأي ومضى إلى أن قال وفي القول المفيد للشوكاني ما نصه: ويكفي في دفع الرأي وأنه ليس من الدين قول الله عز وجل: ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلَامَ دِينًا ﴾ فإذا كان الله قد أكمل دينه قبل أن يقبض نبيه ﷺ فما هذا الرأي الذي قد أحدث بعد أن أكمل الله دينه إن كان من الدين في اعتقادهم فهو لم يكمل عندهم إلا برأيهم وهذا فيه رد القرآن وإن لم يكن من الدين فأي فائدة فيما ليس من الدين وهذه حجة قاهرة ودليل عظيم لا يمكن صاحب الرأي أن يدفعه بدافع أبدًا فاجعل هذه الآية الشريفة أول ما تصك به وجوه أهل الرأي وترغم به آنافهم وتدحض به حججهم فقد أخبر الله في محكم كتابه أنه أكمل دينه ولم يمت رسول الله ﷺ حتى أخبرنا بهذا الخبر عن الله عز وجل فمن جاءنا بالشيء من عند نفسه وزعم أنه من ديننا قلنا له رسول الله ﷺ أصدق منك فاذهب فلا حاجة لنا في رأيك اهـ منه بلفظه.

الباب الثاني

قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّـٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴾ [فاطر:٣٢-٣٥].

قال (ك) يقول تعالى: ثم جعلنا القائمين بالكتاب العظيم المصدق لما بين يديه من الكتب الذين اصطفينا من عبادنا وهم هذه الأمة ثم قسمهم إلى ثلاثة أنواع فقال تعالى: ﴿ **فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ** ﴾ وهو المفرط في فعل بعض الواجبات المرتكب لبعض المحرمات ﴿ **وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ** ﴾ وهو المؤدي للواجبات التارك للمحرمات وقد يترك بعض المستحبات ويفعل بعض المكروهات ﴿ **وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ الله** ﴾ وهو الفاعل للواجبات والمستحبات التارك للمحرمات والمكروهات وبعض المباحات.

قال على بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿ **ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا** ﴾ قال هم أمة محمد ﷺ ورثهم الله تعالى كل كتاب أنزله فظالمهم يغفر له ومقتصدهم يحاسب حسابًا يسيرًا، وسابقهم يدخل الجنة بغير حساب.

ثم حكي (ك) خلاف هذا القول ثم قال: والصحيح أن الظالم لنفسه من هذه الأمة. وهذا اختيار بن جرير كما هو ظاهر الآية وكما جاءت به الأحاديث عن رسول الله ﷺ من طرق يشد بعضها بعضا.

وقوله تعالى: ﴿ **جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ** ﴾. إلى قوله ﴿ **لُغُوبٌ** ﴾.

قال (ك) يخبر تعالى أن هؤلاء المصطفين من عباده الذين أورثوا الكتاب المنزل من رب العالمين يوم القيامة مأواهم جنات عدن أي جنات الإقامة يدخلونها يوم معادهم وقدومهم على الله عز وجل ﴿ **يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا** ﴾. وثبت في الصحيح

أن رسول الله ﷺ قال: « من لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة » وقال هي لهم في الدنيا ولكم في الآخرة.

وقال الطبراني بسنده عن ابن عمر م قال: قال رسول الله ﷺ ليس على أهل لا إله إلا الله وحشة في الموت ولا في القبور ولا في النشور وكأني أنظر إليهم عند الصيحة ينفضون رؤوسهم من التراب يقولون ﴿ الْحَمْدُ لله الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴾.

قال ابن عباس وغيره: غفر لهم الكثير من السيئات وشكر لهم اليسير من الحسنات ﴿ الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ ﴾. يقولون الذي أعطانا هذه المنزلة وهذا المقام من فضله ومنه ورحمته لم تكن أعمالنا تساوي ذلك كما ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: « لن يدخل أحدًا منكم عمله الجنة » قالوا ولا أنت يا رسول الله؟ قال: « ولا أنا إلا أن يتغمدني الله تعالى برحمة منه وفضل » ﴿ لا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴾. لا يمسنا فيها عناء ولا إعياء، والنصب واللغوب كل منهما يستعمل في التعب وكان المراد بنفي هذا وهذا عنهم أنهم لا تعب على أبدانهم ولا أرواحهم والله أعلم، فمن ذلك أنهم كانوا يدئبون أنفسهم في العبادة في الدنيا فسقط عنهم التكليف بدخولها وصاروا في راحة دائمة مستمرة قال الله تبارك وتعالى: ﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴾.

فصل

قال محمد تقي الدين: ذكر الحافظ (ك) في معنى الظالم أحاديث كثيرة تدل على أن أهل هذا القسم لا يدخلون جهنم ولكن يطول وقوفهم في المحشر ويصيبهم الحزن والخوف وذلك هو عذابهم وهذه الأحاديث كلها ضعيفة لكنه استأنس بها لكثرة طرقها وهذا القول لا يتفق أبدًا مع ما نطقت به آيات الكتاب والأحاديث الصحيحة واجمع عليه أهل السنة من أن طائفة من الموحدين يدخلون النار ويخرجون منها بشفاعة النبي ﷺ ومن الأدلة على ذلك ما جاء في جامع الصغير للسيوطي في حرف اللام: « ليردن على ناس من أصحابي الحوض حتى إذا رأيتهم وعرفتهم اختلجوا دوني فأقول يا رب أصيحابي أصيحابي فيقال لي إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك » رواه أحمد والبخاري ومسلم عن أنس بن مالك وعن حذيفة بن اليمان وقد حكي ابن الجوزي في تفسيره زاد المسير في معنى ﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ ﴾. أربعة

أقوال: الأول: أنهم أهل الصغائر فلا يدخل أحد منهم النار. والثاني: أنهم من مات على الكبائر. والثالث: أنهم الكفار. والرابع: أنهم المنافقون. ولما كان الكفار والمنافقون في الحقيقة قسمًا واحدًا لأنهم من رحمة الله آيسون وفي عذاب جهنم خالدون صارت الأقوال ثلاثة الراجح منها هو الثاني للعلة المتقدم ذكرها والذين أورثوا الكتاب لا يمكنهم الاعتقاد والعمل به إلا بمعرفة بيان الرسول ﷺ وهو السنة فالمقلدون المتعصبون لأئمتهم شر من القسم الثاني وهم الذين يموتون على الكبائر لأن البدعة شر من الكبيرة ولأن مرتكب الكبيرة يعصي الله تعالى وهو معترف بذنبه راج أن يتوب الله عليه أما المقلد والمبتدع فإنهما يعصيان الله تعالى ويردان كتابه وسنة رسوله مع اعتقادهما أن ذلك قربة إلى الله وصواب وخير ولا تخطر في بالهم التوبة من ذلك وفي الصوارم قال ابن مسعود: ألا لا يقلدن أحدكم دينه رجلاً إن آمن آمن، وإن كفر كفر، فإنه لا إسوة في الشر وقال ليس تعرف خطأ معلمك حتى تجالس غيره، ولم يوجب الله ولا رسوله على أحد من الناس إن يتمذهب بمذهب رجل من الأمة فيقلده دينه دون غيره. وقد انطوت القرون الفاضلة ببراءة من هذه النسبة، بل لا يصح للعامي مذهب ولو تمذهب به. لأن المذهب إنما يكون لمن له نوع نظر واستدلال فمن ليس كذلك لا يكون بقوله أنا مالكي مثلاً مالكيًا بل هي مجرد دعوى كاذبة، وهذه بدعة قبيحة حدثت في الأمة فلم يقل بها أحد من أئمة والإسلام، وأبعد منه القول بلزوم واحد من الأربعة، فيالله للعجب ماتت مذاهب الصحابة والتابعين وتابعيهم وسائر أئمة الإسلام وبطلت جملة إلا مذاهب أربع أنفس فقط، من بين الأئمة والفقهاء، وهل قال بذلك أحد من الأئمة أو دعا إليه أو دلت لفظة واحدة من كلامه عليه، والذي أوجبه الله ورسوله على الصحابة والتابعين هو الذي أوجبه على من بعدهم إلى يوم القيامة، وإذا تأملت هذا يظهر لك أن التقليد لمذهب إمام معين من غير نظر إلى دليل من الكتاب والسنة جهل عظيم، لأنه مجرد هوى وعصبية والأئمة المجتهدون قاطبة على خلافه، لأنه صح عن كل واحد منهم ذم التقليد بغير دليل وإبطاله، ويظهر لك أنه يجوز لمن يقتدي بمذهب إمام معين أن يجتهد وينظر إلى الدليل حسب طاقته فمتى وجد دليلاً يدل على خلاف رأي إمامه تركه وتمسك بالدليل، ويكون بذلك متبعًا لإمامه وسائر الأئمة، ومتبعًا لكتاب الله وسنة رسوله.

وإنما يكون خارجًا عن مذهب إمامه وعن سائر مذاهب المجتهدين إذا صمم على تقليد إمامه بعد ظهور الدليل من كتاب أو سنة أو إجماع على خلاف راي إمامه الذي تمسك به، لأن إمامه لو بلغه السالم من المعارض لترك رأيه واتبع الحديث، فالمصمم على التقليد في هذه الحالة عاص لله ورسوله متبع لهواه، وقد برئ منه الأئمة الأربعة وغيرهم، وصار من حزب الشيطان والهوى أفرأيت، من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم الآية، أجارنا الله من العمى بعد الهدى اهـ. المراد منه بلفظه، قلت قوله أن العامي لا يصح له مذهب ولو تمذهب به أصله لإمام الحرمين في البرهان ومثله في التحرير لابن الهمام الحنفي وشرحه لابن الحجاج.

سورة يس

الباب الأول

قوله تعالى: ﴿ يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٣ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٤ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ۝٥ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ۝٦ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٧ إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ۝٨ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ۝٩ وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝١٠ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ ۖ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴾ [يس:١-١١].

في تفسير الجلالين قوله تعالى ﴿ **يس** ﴾. الله أعلم بمراده ﴿ **وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ** ﴾ المحكم بعجيب النظم وبديع المعاني ﴿ **إِنَّكَ** ﴾ يا محمد ﴿ **لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ عَلَى** ﴾ متعلق بما قبله ﴿ **صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ** ﴾ أي طريق الأنبياء قبلك التوحيد والهدى والتأكيد بالقسم وغيره رد لقول الكفار له لست مرسلاً ﴿ **تَنزِيلَ الْعَزِيزِ** ﴾ في ملكه ﴿ **الرَّحِيمِ** ﴾ بخلقه ﴿ **لِتُنذِرَ** ﴾ به ﴿ **قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُم** ﴾ أي لم ينذروا في زمن الفترة ﴿ **فَهُمْ** ﴾ أي القوم ﴿ **غَافِلُونَ** ﴾ عن الإيمان أو الرشد ﴿ **لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ** ﴾ وجب ﴿ **عَلَى أَكْثَرِهِمْ** ﴾ بالعذاب ﴿ **فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ** ﴾

أي الأكثر ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلاَلاً ﴾ بأن تضم إليها الأيدي لأن الغل يجمع اليد إلى العنق ﴿ فَهِيَ ﴾ أي الأيدي مجموعة ﴿ إِلَى الأَذْقَانِ ﴾ جمع ذقن وهو مجتمع اللحيين ﴿ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴾ رافعون رؤوسهم لا يستطيعون خفضها وهذا تمثيل والمراد أنهم لا يذعنون للإيمان ولا يخفضون رؤوسهم له ﴿ وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا ﴾ أي حاجزًا عن الهادية ﴿ فَأَغْشَيْنَاهُمْ ﴾ أي غطينا قلوبهم وأبصارهم ﴿ فَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ ﴾ تمثيل أيضًا لسد طرق الإيمان عليهم ﴿ وَسَوَاء عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ إِنَّمَا تُنذِرُ ﴾ ينفع إنذارك ﴿ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ ﴾ القرآن ﴿ وَخَشِيَ الرَّحْمَن بِالْغَيْبِ ﴾ خافه ولم يره ﴿ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴾ هو الجنة.

فصل

قال محمد تقي الدين: أخبر الله سبحانه وتعالى مؤكدًا بالقسم وغيره من المؤكدات أن محمدًا ﷺ من المرسلين وأنه على صراط مستقيم كل من اتبعه سعد وكل من خرج عنه شقي وأخبر سبحانه أنه أنزل هذا القرآن على رسوله لينذر به أهل الأرض كلهم عامة والعرب خاصة إذ لم يرسل إليهم نذير من قبله ولا كان عندهم كتاب يرجعون إليه ولا سنة نبي يتمسكون بها فهم لذلك في غاية الغفلة والجهالة والظلمة ولما كذبوا الرسول وكفروا بما أنزل إليهم من ربهم وجحدوه ظلمًا وعلوًا حقت عليهم كلمة الله وسدت عليهم أبواب الهداية وتحتم عذابهم وشقاؤهم وحيل بينهم وبين الإيمان بسبب إعراضهم وطغيانهم ثم أخبر سبحانه وتعالى أن الذين ينتفعون بالإنذار هم الذين يستمعون القرآن ويتبعونه ويمنعهم خوف الله تعالى عن مخالفة القرآن والرسول ﷺ فأولئك بشرهم الله بمغفرة ذنوبهم وبالأجر العظيم والثواب الجزيل في الدنيا والآخرة وصدق الله وعده فانتصروا على أعدائهم واستولوا على مشارق الأرض ومغاربها وأذعنت لهم أمم الأرض وشعوبها ومضوا على ذلك قرونًا طوالاً حتى نبذوا القرآن والسنة فسلبهم الله ما وهبهم وجعلهم عبرة لأولي الأبصار ولا يزال باب التوبة مفتوحًا أمامهم لو رجعوا إلى رشدهم وأنابوا إلى ربهم ولما كان التقليد والتعصب والتفرق والتمذهب وإتباع الطرائق القدد والأحزاب البدد والقوميات

والوطنيات والأهواء والعادات من أعظم أسباب شقائهم التي سدت عنهم أبواب الخير وفتحت لهم أبواب الشقاء عزمت في هذا القسم من سبيل الرشاد أن أبذل كل جهد في التحذير من هذه الطرق المعوجة وأنقل كلام الأئمة مصحوبًا بالحجة.

قال العلامة محمد بن أبي مدين في الصوارم:

وقال الإمام سند بن عنان بن إبراهيم أبو على الأزدي المتوفى بالإسكندرية سنة إحدى وأربعين وخمسمائة رحمه الله تعالى في شرحه على المدونة المسمى بطراز المجالس وفاكهة المجالس في نحو ثلاثين سفرًا وتوفي قبل إكماله ما نصه: نفس المقلد ليست على بصيرة ولا يتصف من العلم بحقيقة إذ ليس التقليد بطريق إلى العلم بوفاق أهل الآفاق فإن نوزعنا في ذلك أبدينا برهانًا فنقول: قال الله تعالى: ﴿ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ ﴾ وقال بما أراك الله وقال لا تقف ما ليس لك به علم. وقال: وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون ومعلوم أن العلم معرفة المعلوم على ما هو عليه فنقول للمقلد: إذا اختلفت الأقوال وتشعبت المعاني من أين تعلم صحة قول من قلدته دون غيره ؟ أو صحة قوله على قولة أخرى؟ ولا يبدي كلامًا في قوله إلا انعكس عليه في نقيضه لاسيما إذا عرض له ذلك في قولة لإمام مذهبه الذي قلده وقولة تخالفها لبعض الأئمة من أصحابه ولا يبقى له محصول. أما التقليد فهو قبول قول الغير من غر حجة فمن أين يحصل به علم وليس له مستند إلى قطع وهو أيضًا في نفسه بدعة محدثة لأنا نعلم بالقطع أن الصحابة رضوان الله عليهم لم يكن في زمانهم وعصرهم مذهب لرجل معين يدرس ويقلد وإنما كانوا يرجعون في النوازل إلى الكتاب والسنة أو إلى ما يتمحض بينهم من النظر عند فقد الدليل وكذلك تابعوهم أيضًا يرجعون إلى الكتاب والسنة فإن لم يجدوا نظروا إلى ما أجمع عليه الصحابة فإن لم يجدوا اجتهدوا واختار بعضهم قول صحابي فرآه الأقوى في دين الله تعالى ثم كان القرن الثالث وفيه كان الأئمة الأربعة فإن مالكًا توفي سنة تسع وسبعين ومائة وتوفي أبو حنيفة سنة خمس ومائة وفي هذه السنة ولد الشافعي وولد ابن حنبل سنة أربع وستين ومائة فكانوا على منهاج من مضى لم يكن في عصرهم مذهب معين يتدارسونه وعلى قريب منهم كان اتباعهم فكم من قولة لمالك ونظائره خالفه فيها أصحابه ولو نقلنا ذلك لخرجنا عن مقصود هذا الكتاب

وما ذلك إلا لجمعهم آلات الاجتهاد وقدرتهم على ضروب الاستنباطات ولقد صدق الله نبيه في قوله خير القرون قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ثم القرن عند المحققين أربعون سنة ذكر بعد قرنه قرنين أو ثلاثة والحديث في صحيح البخاري.

فالعجب لأهل التقليد كيف يقولون هذا هو الأمر القديم وعليه أدركنا الشيوخ وهو إنما حدث بعد مائتي سنة بعد الهجرة وبعد فناء القرون الذين أثنى عليهم الرسول ﷺ ولو قلت لأحدهم مالك رحمه الله مذهبه مذهب من ؟ لم يجب بجواب وحكي أهل التاريخ أن الذي أشاع مذهب مالك بالأندلس إنما هو عيسى بن دينار وإنما كان يعمل فيه بمذهب الأوزاعي ومكحول فكيف يدعون أنه هو الأمر القديم عندهم ولما أرغم بعض أهل التقليد على الحجة واستبانت له المحجة قال: نحن لا ننكر أن أصول الفتوى الكتاب والسنة والإجماع والقياس ولكن من يفتي بشرطية النظر ويستقل بأعبائه ؟ فنقول لهم: نحن نقطع أنه ما من باب من أبواب العلم كان يسلك في عصر مالك إلا وهو مفتوح إلى الآن لمن شاء أن يسلكه ولا يحتاج الناظر أن يكون في كل فن لا رتبة فوقه فإنا نعلم قطعًا أن الصحابة كانوا مختلفي الرتبة وكان الإمام منهم يستفتي من هو دونه ويرى أن نظره نافذ وحكمه ماض وقد قال الله تعالى: وفوق كل ذي علم عليم وقد مات أبو بكر وعمر م وهما لم يستتما حفظ القرآن والرواية عن على في ذلك مختلفة وكان عمر في مجالس عديدة يستدعي الحديث عن رسول الله ﷺ في بعض النوازل ممن حضره من الصحابة رضي الله عنهم أجمعين وكذلك أبو بكر ط فإنه قال للجدة: ما علمت لك في كتاب الله نصيبًا ولا في السنة حتى روي له الحديث فيها ولقد كان مالك وأبو حنيفة ونظراؤهما غير متبحرين في علم اللغة والنحو حتى نقل عن بعضهم في ذلك ما لا يخفى مثله. اهـ. قلت نقل كلام سند هذا برمته السنوسي في الإيقاظ ونقل بعضه الشوكاني في القول المفيد اهـ.

الباب الثاني

قوله تعالى: ﴿ وَمَا عَلَّمْنَـٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾ [يس:٦٩، ٧٠].

في تفسير الجلالين ﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ ﴾ أي النبي ﴿ الشِّعْرَ ﴾ رد لقولهم أن ما أتى به من القرآن شعر ﴿ وَمَا يَنبَغِي ﴾ يليق ﴿ لَهُ ﴾ الشعر ﴿ إِنْ هُوَ ﴾ ليس الذي أتى بـه ﴿ إِلاَّ ذِكْـرٌ ﴾ عظـة ﴿ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ ﴾ مظهر للأحكام وغيرها ﴿ لِيُنذِرَ ﴾ بالياء والتاء به ﴿ مَن كَانَ حَيًّا ﴾ يعقل ما يخاطب به وهم المؤمنـون ﴿ وَيَحِقَّ الْقَوْلُ ﴾ بالعـذاب ﴿ عَلَـى الْكَـافِرِينَ ﴾ وهـم كـالميتين ولا يعقلون ما يخاطبون به اهـ.

فصل

قال محمد تقي الدين: كل من يعرف اللغة العربية سواء أكان من أهلها أم ممن تعلمها من الأجانب يعلم يقينًا. أن القرآن ليس بشعر ومن زعم من كفـار العـرب أنـه شـعر فهـو إمـا جاهل أو متجاهل وما جري على لسان النبي ﷺ من الكلام المتزن كقوله أنا النبي لا كـذب أنا ابن عبد المطلب.

فإنه لم يقصده ومثل هذا يجري علـى ألسـنة جميـع النـاس في محـاوراتهم ومحادثـاتهم ولا إشكال في كون القرآن ليس شعرًا ولا في كون محمد رسول الله غـير شـاعر والمهـم هنـا هـو قوله تعالى: ﴿ لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ فجعـل النـاس فـريقين فريقـا أحياء القلوب يتلقون القرآن وبيانه بالقبول ويؤمنون به ويتبعونه كما قال تعـالى: ﴿ أَوَ مَـن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ ﴾ وفريقا أموات القلوب وهم الكافرون والمنافقون ولا ثالث لهذين القسـمين فمـن رد القـرآن وبيانـه لتقليـد أو وليجـة أخـرى مـن الولائج فهو من أموات القلوب.

قال العلامة محمد بن أبي مدين في الصوارم: وفي الجزء الأول من شرح الحطاب لمختصر خليل عازيًا إياه لتقي الدين السـبكي يخاطـب أصـحاب المـذاهب الأربعـة مـا نصـه: وأمـا تعصبكم في فروع الدين وحملكم الناس على مذهب واحد فهو الذي لا يقبله الله مـنكم ولا يحملكم عليه إلا محض التعصب والتحاسد ولو أن الشافعي ومالكًا وأبا حنيفة وأحمد أحيـاء يرزقون لشددوا النكير عليكم وتبرؤوا منكم فيما تفعلون اهـ. منه بلفظه، وفي الرد على من أخلد إلى الأرض للسيوطي ما نصه: قال ابن حزم في كتابه النبذ الكافيـة في علـم الأصـول: التقليد حرام ولا يحل لأحد أن يأخذ قول أحد غير رسول الله ﷺ بلا برهـان لقولـه تعـالى:

﴿ اتَّبِعُواْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلاَ تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء ﴾. وقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ﴾ وقال في حق من لم يقلد: ﴿ فَبَشِّرْ عِبَادِ (١٧) الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُوْلَئِكَ هُمْ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴾ وقال تعالى: ﴿ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ﴾ فلم يبح الله تعالى الرد عند التنازع إلى أحد دون القرآن والسنة وقد صح إجماع الصحابة كلهم وإجماع جميع التابعين وإجماع تابعي التابعين على الامتناع والمنع من أن يقصد منهم أحد إلى قول إنسان منهم أم ممن قبلهم فيأخذه كله فليعلم من أخذ بجميع أقوال أبي حنيفة أو جميع أقوال مالك أو جميع أقوال الشافعي أو جميع أقوال أحمد أنه قد خالف إجماع الأمة كلها بيقين لا إشكال فيه وأنه لا يجد لنفسه سلفًا في جميع الأعصار المحمودة الثلاثة فقد اتبع غير سبيل المؤمنين نعوذ بالله من هذه المنزلة اهـ. المراد منه بلفظه.

سورة ص

الباب الأول

قوله تعالى: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ [ص:٢٩].

قال القنوجي: «كتاب» أي القرآن كتاب «أنزلناه إليك» يا محمد «مبارك» أي كثير الخير والبركة «ليدبروا آياته» متعلق بأنزلناه وفي الآية دليل على أن الله سبحانه إنما أنزل القرآن للتدبر والتفكر في معانيه لا بمجرد التلاوة بدون تدبر اهـ.

وفي تفسير القاسمي ما نصه، قال الزمخشري: تدبر الآيات التفكر فيها والتأمل الذي يؤدي إلى معرفة ما يقتضي ظاهرها من التأويلات الصحيحة والمعاني الحسنة، لأن من اقتنع بظاهر المتلو لم يحظ منه بكثير طائل أو كان مثله كمثل من له لقحة لا يحلبها، ومهرة[1] نثور لا يستولدها، وعن الحسن: قد قرأ هذا القرآن عبيد وصبيان لا علم لهم بتأويله، حفظوا حروفه وضيعوا حدوده، حتى أن أحدهم ليقول: والله: لقد قرأت القرآن فما أسقطت منه

(١) قال في القاموس: النثور الكثيرة الولد.

حرفًا، وقد والله أسقطه كله، ما يرى للقرآن عليه أثر في خلق ولا عمل، والله ما بحفظ حروفه مع إضاعة حدوده، والله ما هؤلاء بالحكماء ولا الورعة لا كثر الله في الناس مثل هؤلاء، اللهم اجعلنا من العلماء المتدبرين وأعذنا من القراء المتكبرين اهـ.

قال الحافظ المنذري في الترغيب والترهيب ج١ ص١٠٧ ما نصه:

وعن عمر بن الخطاب ط قال: قال رسول الله ﷺ يظهر الإسلام حتى تختلف التجار في البحر، وحتى تخوض الخيل في سبيل الله، ثم يظهر قوم يقرؤون القرآن يقولون من أقرأ منا ؟ من أعلم منا ؟ من أفقه منا ؟ ثم قال لأصحابه: هل في أولئك من خير ؟ قالوا الله ورسوله أعلم: قال: أولئك منكم من هذه الأمة، وأولئك هم وقد النار. رواه البزار بإسناد لا بأس به.

فصل

قال محمد تقي الدين: ذكر الله الغرض الذي من أجله أنزل القرآن في مواضع من كتابه منها قوله تعالى في أول سورة إبراهيم ﴿ **كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ** ﴾. وقال تعالى: في أول سورة طه: ﴿ **مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى (٢) إِلاَّ تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَى** ﴾ وقال تعالى في سورة الأنعام رقم ٩٢: ﴿ **وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلاَتِهِمْ يُحَافِظُونَ** ﴾.

وقال تعالى فيها أيضًا رقم ١٥٥: ﴿ **وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ** ﴾.

والآيات في هذا المعنى كثيرة ولكها تدل على أن من قرأ القرآن لغرض غير الغرض الذي أنزله الله لأجله كابتغاء حسن الذكر والافتخار والتأكل به والمراء والجدال هو كما قال النبي ﷺ من وقود النار انظر صحيح البخاري وشروحه عند قوله باب من تأكل بالقرآن أو فخر به. وقد رأينا المقلدين لا يقرؤون القرآن لتدبر آياته أو العمل بها أو الخروج بها من الظلمات إلى النور ولذلك حرموا من بركات القرآن وبقوا في ظلمات الجهالات: وفي الصوارم لابن أبي مدين ما نصه: وفي الجزء الثالث من الإعلام لابن القيم ما نصه: ومن

المحال أن يكون هؤلاء المتأخرون على مذهب الأئمة دون أصحابهم الذين لم يكونوا يقلدونهم فأتبع الناس لمالك ابن وهب وطبقته ممن يحكم الحجة وينقاد للدليل أين كان وكذلك أبو يوسف أتبع لأبي حنيفة من المقلدين له مع كثرة مخالفته له وكذلك الأثرم وطبقته من أصحاب أحمد أتبع له من المقلدين المنتسبين إليه وعلى هذا فالوقف على أتباع الأئمة أهل الحجة والعلم أحق به من المقلدين في نفس الأمر وقد أنكر بعض المقلدين على شيخ الإسلام بن تيمية في تدريسه في مدرسة ابن الحنبلي وهي وقف على الحنابلة والمجتهد ليس منهم فقال: إنما أتناول ما أتناوله منها على معرفتي بمذهب أحمد لا على تقليدي مله اهـ. المراد منه بلفظه قلت نقل كلام ابن تيمية هذا السيوطي في كتابه الرد على من أخلد إلى الأرض وجهل أن الاجتهاد في كل عصر فرض. وقال عقبة ما نصه: وقد كنت أجبت بمثل هذا الجواب قبل أن أقف عليه لما قيل لي مثل ذلك في العام الماضي واستندت إلى أن ابن الصباغ ولي تدريس الشافعية بالنظامية وهو موصوف بالاجتهاد المطلق وابن عبد السلام ولي تدريس الشافعية بالصالحية وبالظاهرية وابن دقيق العيد ولي تدريس المدرسة المجاورة لضريح الإمام الشافعي وغيرها من المدارس الموقوفة على الشافعية وكذلك السبكي والبلقيني كل قد ولى مدارس الشافعية مع القطع بأنهم مجتهدون بقولهم وشهادة الناس لهم. اهـ كلام السيوطي بلفظه.

الباب الثاني

قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ ۖ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٦٦﴾ قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴾ [ص:٦٥-٦٨].

قال (ك): يقول تعالى آمرًا رسوله ﷺ أن يقول للكفار بالله المشركين به المكذبين لرسوله ﴿ **إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ** ﴾ لست كما تزعمون ﴿ **وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلاَّ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ** ﴾ أي هو وحده قد قهر كل شيء وغلبه ﴿ **رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا** ﴾ أي هو مالك جميع ذلك ومتصرف فيه ﴿ **الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ** ﴾ أي غفار مع عظمته وعزته: ﴿ **قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ** ﴾ أي خبر

عظيم وشأن بليغ وهو إرسال الله تعالى إياي إليكم ﴿ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴾ أي غافلون.

فصل

قال محمد تقي الدين: وهذا النبأ العظيم الذي أحدث انقلابًا على وجه الأرض لا يعرف له نظير في التاريخ فسعدت به أمم وشعوب وارتفعت به من الحضيض الأسفل إلى أعلى درجات الرقي. هذه الأمم نفسها قد أعرضت عنه أيما إعراض فكان لها هذا الإعراض أحد أسباب الانقراض ومن الأمور التي صدتها عنه التقليد والتمذهب والقوميات والوطنيات وطرائق المتصوفة واتباع الأهواء نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون.

قال العلامة محمد بن أبي مدين في الصوارم:

وفي الجزء الثالث من سبل السلام شرح بلوغ المرام للصنعاني ما نصه والتكلف لرد الظواهر من الأدلة محاماة عن المذهب ليس من شأن المتبع لما جاء عن الله ورسوله ﷺ اهـ وفي القوانين الفقهية لابن جزي ما نصه: والتعصب لمذهب دون آخر من حمية الجاهلية اهـ. وفي تعليق الأستاذ حسين على موافقات الشاطبي ما نصه: التعصب للمذهب ينشأ عن قصر النظر وعدم التفقه في الأصول العالية ولهذا تجد المتبحر في علم الكتاب والسنة المطلع على مذاهب الفقهاء ومداركها لا يزيد احترامها للمذهب الذي يتبعه على احترامه للمذاهب الأخرى وذلك لما يبدوا له من رجحانها وتفوقها على مذهبه في كثير من المسائل اهـ. وفي الجزء الأول من زاد المعاد لابن القيم ما نصه ويالله ما يصنع التقليد ونصرة الآراء بأصحابه اهـ. وفي القواعد الكبرى لعز الدين ابن عبد السلام ما نصه ولم يزل الناس يسألون من اتفق من العلماء من غير تقيد بمذهب ولا إنكار على أحد من السائلين إلى أن ظهرت هذه المذاهب ومتعصبوها من المقلدين فإن أحدهم يتبع إمامه مع بعد مذهبه عن الأدلة مقلدًا له فيما قال كأنه نبي أرسل إليه وهذا نأي عن الحق وبعد عن الصواب لا يرضي به أحد من أولي الألباب اهـ. وفي الجزء الثاني من فتاوي شيخ الإسلام تقي الدين ابن تيمية ما نصه وإذا كان الرجل متبعًا بعض الأئمة الأربعة ورأى في بعض المسائل أن مذهب غيره أقوى فاتبعه كان قد أحسن في ذلك بل هذا أولى بالحق وأحب إلى الله ورسوله ممن يتعصب لواحد معين ويرى أن قوله هو الصواب دون قول الذي خالفه وما زال المسلمون يستفتون

علماءهم فيقلدون هذا تارة وهذا تارة فإذا كان المقلد يقلد في مسألة يراها أصلح لدينه أو القول بها أرجح جاز هذا باتفاق جماهير علماء المسلمين اهـ. وفي سنن المهتدين في مقامات الدين للمواق ما نصه لا يتعين على العامي إذا قلد إمامًا في مسألة أن يقلد غيره في سائر مسائل الخلاف لأن الناس من لدن الصحابة إلى أن ظهرت المذاهب يسألون عما يسنح لهم العلماء المختلفين من غير نكير من أحد وسواء إتباع الرخص وفي ذلك أو العزائم لأن من جعل المصيب واحدًا لم يعينه ومن قال كل مجتهد مصيب فلا إنكار على من قلد في الصواب اهـ. قلت تصويب كل مجتهد عند من قاله من الصواب الذي لا ينافي الخطأ بمعنى أن المجتهد لا يأثم بالخطأ بل يؤجر عليه بعد توفية الاجتهاد حقه لا من الإصابة التي هي مقابلة للخطأ فإن ذلك لا يقوله عالم لأن النبي ﷺ قسم ما يصدر من المجتهد إلى صواب وخطأ فقال: «إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران وإن أخطأ فله أجر»، أخرجه الشيخان والأربعة. قال السندي في حاشيته على البخاري في الكلام على الحديث المذكور ما نصه: وفيه دلالة على أن الحق عند الله واحد وأن المجتهد يخطئ ويصيب اهـ.

الباب الثالث

قوله تعالى: ﴿ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴾ [ص:٨٦-٨٨].

قال (ك): يقول تعالى ﴿ **قُلْ** ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين ﴿ **مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ** ﴾ أي على إبلاغ الرسالة، والنصح ﴿ **مِنْ أَجْرٍ** ﴾ من عرض الدنيا تعطونيه ﴿ **وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ** ﴾ وما أمرت بتبليغه فقد بلغته وأديته لا أزيد عليه ولا أنقص منه، وإنما أبتغي بذلك وجه الله عز وجل والدار الآخرة، قال سفيان الثوري عن عبد الله بن مسعود قال: يا أيها الناس من علم شيئًا فليقل به، ومن لم يعلم فليقل: الله أعلم. فإن من العلم أن يقول الرجل لما لا يعلم، الله أعلم فإن الله عز وجل قال لنبيه ﷺ: ﴿ **قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ** ﴾ أخرجاه من حديث الأعمش به وقوله تعالى: ﴿ **إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ** ﴾ يعني القرآن ذكر لجميع المكلفين من الإنس والجن، كقوله تعالى: ﴿ **لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ** ﴾

وقوله تعالى: ﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴾ أي يوم القيامة.

قال الحسن: يا ابن آدم عند الموت يأتيك الخبر اليقين.

وفي الصوارم، وقال مالك رحمه الله تعالى ليس في اختلاف الصحابة سعة وإنما الحق في واحد قيل له فمن يقول: إن كل مجتهد مصيب فقال: لا يكون قولان مختلفان صوابين وهذا قول الليث والأوزاعي والشافعي وأبي ثور وجماعة أهل النظر فمن زعم أن تصويب كل مجتهد من الإصابة للحق فقد غلط غلطًا بينًا ومن لم يفهم الفرق فعليه أن يتهم نفسه انظر القول المفيد للشوكاني والجزء الرابع من مقامات [1] الشاطبي والجامع لابن عبد البر والجزء الأول من المحلى لابن حزم والجزء الثالث من تهذيب السنن لابن القيم وغيرها من كتب الأصول اهـ.

وفي جمع الجوامع لابن السبكي ما نصه ممزوجًا بكلام شارحه المحلي: وأما الجزئية التي فيها قاطع من نص أو إجماع واختلف فيها لعدم الوقوف عليه فالمصيب فيها واحد وفاقا وهو من وافق ذلك القاطع اهـ. وقال أبو عمر بن عبد البر في كتابه جامع بيان العلم وفضله ما نصه: واعلم أن من عني بحفظ السنن والأحكام المنصوصة في القرآن ونظر في أقاويل الفقهاء فجعلها عونًا له على اجتهاده ومفتاحًا لطرائق النظر وتفسيرًا على كل حال دون نظر ولم يرح نفسه مما أخذ العلماء به أنفسهم من حفظ السنن وتدبرها واقتدى بهم في البحث والتفهم والنظر وشكر لهم سعيهم فيما أفادوه ونبهوا عليه وحمدهم على صوابهم الذي هو أكثر أقوالهم ولم يبرئهم من الزلل كما لم يبرؤوا أنفسهم منه، فهذا هو الطالب المتمسك بما عليه السلف الصالح وهو المصيب لحظه والمعاين لرشده والمتبع لسنة نبيه ﷺ وهدي صحابته ﷺ ومن أعفى نفسه من النظر واضرب عما ذكرنا وعارض السنن برأيه ورام أن يردها إلى مبلغ نظره فهو ضال مضل، ومن جهل ذلك كله وتقحم في الفتوى بلا علم فهو أشد عمي وأضل سبيلاً اهـ.

---

(١) لعل الصواب من موافقات.

سورة الزمر

الباب الأول

قوله تعالى: ﴿ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴾ [الزمر:٢٢، ٢٣]

قال (ك): أي هل يستوي هذا ومن هو قاسي القلب بعيد من الحق كقوله عز وجل: **﴿ أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا ﴾** ولهذا قال تعالى: **﴿ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ ﴾** أي فلا تلين عند ذكره ولا تخشع ولا تعي ولا تفهم **﴿ أُوْلَئِكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ ﴾**.

وقوله تعالى: **﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ ﴾**. الآية.

قال (ك): هذا مدح من الله عز وجل لكتابه العظيم فقال جل وعلا: **﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ ﴾** قال بعض العلماء ومنهم سفيان بن عيينة: إن سياقات القرآن تارة تكون في معنى واحد فهذا من المتشابه، وتارة تكون بذكر الشيء وضده كذكر المؤمنين ثم الكافرين أو كصفة الجنة ثم صفة النار وما أشبه هذا.. فهذا من المثاني كقوله تعالى: **﴿ إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (١٣) وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴾** وأما إذا كان السياق كله في معنى واحد يشبه بعضه بعضًا فهو المتشابه.

وقوله تعالى: **﴿ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ﴾** أى هذه صفة الأبرار عند سماع كلامه جل جلاله بما يفهمونه منه من الوعد والوعيد والتخويف والتهديد تقشعر منه جلودهم من الخشية والخوف، **﴿ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ﴾** لما يرجون ويؤملون من رحمته ولطفه. فهم مخالفون لغيرهم من الفجار من وجوه.. أحدها: أن سماع هؤلاء هو تلاوة الآيات وسماع أولئك نغمات الأبيات

من أصوات القينات. الثاني: أنهم إذا تليت عليهم آيات الرحمن خروا سجدًا وبكيا بأدب وخشية ورجاء ومحبة وفهم وعلم كما قال تعالى: ﴿ **وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا** ﴾ أي إنما يعملون بها ويسجدون عندها عن بصيرة لا عن جهل وتقليد أعمى ومتابعة لغيرهم. الثالث: أنه يلزمون الأدب عند سماعها كما كان الصحابة يسمعونها وتقشعر جلودهم وتلين قلوبهم إلى ذكر الله، ولم يكونوا يتصارخون ولا يتكلفون ما ليس فيهم بل عندهم من الأدب والسكون والخشية ما لا يلحقهم أحد في ذلك ولهذا فازوا بالرضا والمدح من الله في الدارين بخلاف بعض الجماعات الذين تذهب عقولهم ويغشى عليهم إنما هذا في أهل البدع، وهذا من الشيطان، وقوله تعالى: ﴿ **ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ** ﴾ أي هذه صفات من هداه الله ومن كان على خلاف ذلك، فهو ممن أضله الله ﴿ **وَمَن يُضْلِلْ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ** ﴾.

فصل

قال محمد تقي الدين: كل من شرح الله صدره للإسلام الذي جاء به محمد رسول الله ﷺ بلا تبديل ولا تغيير ولا زيادة ولا نقصان يكون على نور من ربه يخرجه الله من الظلمات إلى النور ويكون قلبه لينًا إذا سمع كتاب الله اقشعر قلبه ولان جلده وانتفع بكتاب الله وكان من المهتدين ولا يمكن مع ذلك أن يرد شيئًا من كتاب الله أو من سنة رسوله ﷺ لتقليد أو تمذهب أو تعصب لحزب أو وطن أو جنس قال العلامة محمد بن أبي مدين في الصوارم ما نصه:

وقال محيي السنة الشيخ سيدي بن الشيخ سيدي محمد بن الشيخ سيدي رحمهم الله تعالى في ترجمة كتابه إرشاد المقلدين عند اختلاف المجتهدين ما لفظه: أما بعد فهذه نقول قصد بها بيان أن الأولى للمقلد لأحد الأئمة الأربعة إذا وجد خلاف إمامه عن أحد الأئمة الثلاثة في مسألة وتبين له رجحانه على مذهب إمامه في تلك المسألة بموافقته للقرآن أو السنة الصحيحة المخرجة في الصحيحين أو في أحدهما أو نص الترمذي مثلاً على صحتها ولم يجد مثل ذلك لإمامه أو وجد ثلاثة من الأئمة الأربعة متوافقين على خلاف إمامه في مسألة ولم يجد فيها دليلاً من القرآن أو السنة الصحيحة موافقًا لإمامه ولاسيما أن اجتمعت هذه

المرجحات كلها ومعها رواية عن إمامه أن يعمل بما تبين له رجحانه إن كان متحريًا للحق ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم اهـ. وقد قرض كتابه المذكور بقوله:

هاذي نقول صحيحات صريحات ... في قفوها لا لـه الناس مرضاة
تهديك نحو كتاب الله أو سنن ... قد أثبتتها عن المختار أثبات
وأعملتها وعاة العلم كلهم ... أو جلهم أن تكن ثم اختلافات
قد جمعت من بطون الكتب فالتأمت ... وكن يلقين فيها وهي أشتات
يرضى بها من أولي الألباب من صقات ... من قلبه لقبول الحق مرآة
لا يمتري عاقل فيها إذا سمعت ... إن كان منه لقول الحق أنصات
لكنها حين عاد الدين مغتربًا ... وهي وعرواته الوثقى غريبات
فهذه السنة الغراء دارسة ... وأهلها في تخوم الأرض أموات
وعد كذلك موقوت بلا كذب ... قد حان من عصره الموعود ميقات
وفي اتباع كتاب الله أو سنن ... صحت عن المصطفى للدين منجاة
والرأي في وقته من أهله حسن ... ولا تراه على المنصوص يفتات
إن البدايات من يحكم تحققها ... تحققت عنده منها النهايات

الباب الثاني

قوله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴾ [الزمر: ٤١].

قال (ك): يخاطب تعالى رسوله محمدًا ﷺ: ﴿ **إِنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ** ﴾ أي لجميع الخلق من الإنس والجن لتنذرهم به ﴿ **فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ** ﴾ أي فإنما يعود نفع ذلك إلى نفسه ﴿ **وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا** ﴾ أي يعود وبال ذلك على نفسه ﴿ **وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ** ﴾ أي بموكل أن يهتدوا ﴿ **إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ** ﴾ إنما عليك البلاغ وعلينا الحساب.

فصل

قال محمد تقي الدين: قوله تعالى للناس. أي لتبشر وتنذر جميع الناس وكل من بلغه هذا التبشير وهذا الإنذار على وجهه بدون تبديل ولا تغيير على يد دعاة مخلصين يشفعون أقوالهم بأفعالهم فهو حجة عليه لقوله تعالى: لأنذركم به ومن بلغ ومن أعرض عنه بتكذيب ظاهر غير مستتر أو بتكذيب يستره بتقليد أو أخذ العهد والورد من شيخ أو الانضمام إلى حزب أو بسبب وطنية أو وثنية أو تعصبًا لقومية جاهلية فقد قامت عليه حجة الله وسيعذبهم الله عذابًا أليمًا في الدنيا والآخرة وما لهم في الأرض من ولي ولا نصير.

وفي الصوارم ما نصه:

وقال شمس الدين ابن القيم في الأعلام ما نصه: كل طائفة منكم معشر المقلدين قد نزلت جميع الصحابة والتابعين وجميع علماء الأمة إلا من قلدوه في مكان لا يعتد بقوله ولا ينظر في فتواه إلا لأعمال الفكر في الرد عليهم إذا خالف قولهم قول متبوعهم فإذا خالف قول متبوعهم نصًا عن الله ورسوله فالواجب « عندهم » التكلف في إخراج ذلك النص عن دلالته والتحيل لدفعه بكل طريق حتى يصح قول متبوعهم فيالله لدينه وكتابه وسنة رسوله ولبدعة كادت تثل عرش الإيمان وتهد ركنه لولا أن الله ضمن لهذا الدين أن لا يزال فيه من يتكلم بإعلائه ويذب عنه ومن أعجب أمركم أنكم أقررتم على أنفسكم بالعجز عن معرفة الحق بدليله من كلام الله وكلام رسوله مع سهولته وقرب مأخذه واستيلائه على أقصى غايات البيان واستحالة التناقض والاختلاف عليه فهو نقل محض عن قائل معصوم وقد نصب الله سبحانه الأدلة الظاهرة على الحق وبين لعباده ما يتقون فادعيتم العجز عن معرفة ما نصب عليه الأدلة وتولى سبحانه بيانه ثم زعمتم أنكم عرفتم بالدليل أن صاحبكم أولى بالتقليد من غيره فعجبا كل العجب لمن خفي عليه الترجيح فيما نصب الله عليه الأدلة من الحق ولم يهتد إليها واهتدى إلى أن متبوعه أولى بالصواب ممن عداه ولم ينصب الله على ذلك دليلاً واحدًا، وطريقة أهل العلم سلفًا وخلفًا طلب النظر في أقوال العلماء وضبطها وعرضها على القرآن والسنن وأقوال الخلفاء الراشدين فما وافق ذلك قبلوه ودانوا الله به وأفتوا به وما خالف ذلك منها ردوه ولم يلتفتوا إليه وما لم يتبين لهم

جعلوه من مسائل الاجتهاد التي غايتها أن تكون سائغة الاتباع لا واجبته من غير أن يلزموا بها أحدًا ولا يقولون أنها الحق دون ما خالفها، وأما هؤلاء الخلف فعكسوا الطريق وقلبوا أوضاع الدين فزيفوا كتاب الله وسنة رسوله، وأقوال خلفائه وأصحابه فعرضوها على أقوال من قلدوه فما وافقه منها انقادوا له مذعنين وما خالف أقواله منها لم يقبلوه واحتال فضلاؤهم في ردها بكل ممكن وتطلبوا لها وجوه الحيل التي تردها فإذا كانت موافقة لمذاهبهم وكانت تلك الوجوه بعينها قائمة فيها شنعوا على منازعهم وأنكروا عليه ردها بتلك الوجوه بعينها وقالوا لا ترد النصوص بمثل هذا، ومن له همة تسمو إلى الله ومرضاته ونصر الحق الذي بعث به رسوله أين كان ومع من كان لا يرضى لنفسه بهذا المسلك الوخيم والخلق الذميم اهـ.

قلت قد صدر هذا الكلام من ابن القيم رحمه الله تعالى منذ ستمائة سنة ونيف وعشرين سنة والعلماء إذ ذاك متوافرون والروضة أنف والحوض ملآن وأما الآن فقد بلغ السيل الزبى، وريعت الأرباء بكل أربى[1] فإنا لله وإنا إليه راجعون والله المستعان حسبنا الله ونعم الوكيل ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم اهـ.

وفي الجزء الأول من المدخل لابن الحاج المالكي ما نصه: ولو قلت لأحدهم مثلا: السنة كذا وكذا قابلك بما لا يليق فيقول كان شيخي يفعل كذا وكذا وما هذا طريق شيخي ويصادم بذلك السنة الواضحة، وليتهم وقفوا عند هذا الحد لو كان سائغًا بل زادوا على ذلك الأمر المخوف وهو ما بلغني ممن أثق به أن بعض من ينسب إلى العلم تكلم في مسألة ونقل فيها عن بعض شيوخه نقلاً تأباه الشريعة فقال له بعض من حضره حديث النبي ﷺ يرد هذا فقال له حديث النبي ﷺ إنما يراد للتبرك والشيوخ هم الذين يقتدى بهم، وهذا إن كان معتقدًا لما قاله كان كافرًا حلال الدم، وإن لم يعتقده فهو مرتكب لكبيرة عظمى يجب عليه أن يتوب منها مع الأدب الموجع اهـ.

(١) أي روع العقلاء بكل داهية.

الباب الثالث

قوله تعالى: ﴿ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ۝ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ بَغۡتَةٗ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ۝ أَن تَقُولَ نَفۡسٞ يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ۝ أَوۡ تَقُولَ لَوۡ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي لَكُنتُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ ۝ أَوۡ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلۡعَذَابَ لَوۡ أَنَّ لِي كَرَّةٗ فَأَكُونَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝ بَلَىٰ قَدۡ جَآءَتۡكَ ءَايَٰتِي فَكَذَّبۡتَ بِهَا وَٱسۡتَكۡبَرۡتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسۡوَدَّةٌۚ أَلَيۡسَ فِي جَهَنَّمَ مَثۡوٗى لِّلۡمُتَكَبِّرِينَ ۝ وَيُنَجِّي ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ بِمَفَازَتِهِمۡ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴾ [الزمر:٥٤-٦١].

قال (ك): أي ارجعوا إلى الله واستسلموا له **﴿ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لا تُنصَرُونَ ﴾** أي بادروا بالتوبة والعمل الصالح قبل حلول النقمة **﴿ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم ﴾** وهو القرآن العظيم **﴿ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ ﴾** أي من حيث لا تعلمون ولا تشعرون ثم قال عز وجل: **﴿ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَى عَلَى مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ ﴾** أي يوم القيامة يتحسر المجرم المفرط في التوبة والإنابة ويود لو كان من المحسنين المخلصين المطيعين لله عز وجل، وقوله تبارك وتعالى: **﴿ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ ﴾** أي إنما كان عملي في الدنيا عمل ساخر مستهزئ غير موقن مصدق **﴿ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٥٧) أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾** أي تود لو أعيدت إلى الدنيا لتحسن العمل: قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ط أخبر الله سبحانه وتعالى ما العباد قائلون قبل أن يقولوه وبعملهم قبل أن يعملوه، وقال تعالى **﴿ وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾**. **﴿ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَى عَلَى مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ (٥٦) أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٥٧)**

﴿ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ فأخبر الله عز وجل أن لو ردوا لما قدروا على الهدى فقال: ﴿ وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ وقد قال الإمام أحمد بسنده عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: « كل أهل النار يرى مقعده من الجنة فيقول لو أن الله هداني فتكون عليه حسرة، قال وكل أهل الجنة يرى مقعده من النار فيقول: لولا أن الله هداني قال فيكون له الشكر».

ولما تمنى أهل الجرائم العود إلى الدنيا وتحسروا على عدم تصديق آيات الله وإتباع رسله قال سبحانه وتعالى: ﴿ بَلَى قَدْ جَاءتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ أي قد جاءتك أيها العبد النادم على ما كان منه آياتي في الدار الدنيا وقامت حججي عليك فكذبت بها واستكبرت عن إتباعها وكنت من الكافرين بها الجاحدين لها.

وقوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى اللَّهِ ﴾. إلى قوله: ﴿ يَحْزَنُونَ ﴾ قال (ك): يخبر تعالى عن يوم القيامة أنه تسود فيه وجوه وتبيض فيه وجوه، تسود وجوه أهل الفرقة والاختلاف وتبيض وجوه أهل السنة والجماعة قال تعالى ههنا: ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى اللَّهِ ﴾ أي في دعواهم له شريكًا وولدا ﴿ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ﴾ أي بكذبهم وافترائهم وقوله تعالى: ﴿ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾؟ أي أليست جهنم كافية لهم سجنًا وموئلاً لهم فيها الخزي والهوان بسبب تكبرهم وتجبرهم وإبائهم عن الانقياد للحق، قال ابن أبي حاتم بسنده عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: « إن المتكبرين يحشرون يوم القيامة أشباه الذر في صور الناس يعلوهم كل شيء من الصغار حتى يدخلوا سجنًا من النار في واد يقال له بولس من نار الأنيار ويسقون من عصارة أهل النار ومن طين الخبال، وقوله تبارك وتعالى: ﴿ وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوا بِمَفَازَتِهِمْ ﴾. أي بما سبق لهم من السعادة والفوز عند الله ﴿ لا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ ﴾ أي يوم القيامة ﴿ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ أي ولا يحزنهم الفزع الأكبر بل هم آمنون من كل فزع مزحزحون عن كل شر نائلون كل خير.

فصل

قال محمد تقي الدين: قوله تعالى: ﴿ وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ ﴾ خطاب لمن خوطبوا بقوله تعالى: ﴿ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ﴾ وهو شرط في مغفرة الذنوب خلافًا للمحدث القنوجي لأنهم إذا لم ينيبوا ولم يسلموا ولم يتبعوا أحسن ما أنزل إليهم من ربهم لا يستحقون المغفرة لأنهم لم يتوبوا من إسرافهم على أنفسهم فهذا كقوله تعالى: ﴿ وَسَارِعُواْ إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ إلى أن قال ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُواْ أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُواْ اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَى مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾. وكل نفس لم تنب إلى الله تعالى ولم تسلم ولم تتبع القرآن واستمرت على ذلك إلى الموت فلابد أن يأتيها العذاب ولابد أن تندم وتقول يا حسرتي على ما فرطت في جنب الله والمعرض عن القرآن والسنة لتقليد أو إتباع طريقة أو تعصب لحزب أو مذهب أو وطنية وثنية أو قومية طاغية داخل في هذا الوعيد فإن كان يشهد لله تعالى بالتوحيد قولاً وعملاً واعتقادًا ويشهد لرسول الله ﷺ بالبلاغ وقد قصر في طلب علم السنة أو علمها وخالفها تعصبًا لما تقدم من النحل يخشى عليه العذاب الأليم والشقاء في الدنيا والآخرة.

وفي الصوارم والأسنة نقلاً عن أعلام الموقعين ما نصه:

قال شمس الدين ابن القيم في كتابه أعلام الموقعين عن رب العالمين مجيبًا لهم عن هذه الحجج ما نصه:

أما احتجاجكم على وجوب التقليد بقوله تعالى: ﴿ فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ ﴾ الآية. فإن الله سبحانه إنما أوجب عليهم قبول ما أنذرهم به من الوحي الذي ينزل في غيبتهم عن النبي ﷺ في الجهاد وليس في الآية ما يقتضي صحة القول بالتقليد المذموم بل هي حجة على فساده لأن الإنذار إنما يقوم بالحجة فمن لم يأت بها فليس بنذير ومن لم تقم عليه الحجة لم يكن قد أنذر فإن سميتم ذلك تقليدًا فليس الشأن في الأسماء ونحن لا ننكر التقليد بهذا المعنى فسموه ما شئتم وإنما ننكر نصب رجل معين يجعل قوله عيارًا على القرآن فما وافق قوله منها قبل وما خالفه لم يقبل ويقبل قوله بغير حجة ويرد قول نظيره أو أعلم منه والحجة معه فهذا الذي أنكرناه وكل عالم على وجه الأرض يعلن بإنكاره وذم أهله،

واحتجاجكم بقوله تعالى: ﴿ أَطِيعُواْ اللَّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ ﴾ فقد خفي عليكم أنهم إنما يطاعون إذا أمروا بأمر الله ورسوله فطاعتهم إنما هي تبع لا استقلال ولهذا قرنها بطاعة الرسول ولم يعد العامل وأفرد طاعة الرسول وأعاد العامل لئلا يتوهم أنه إنما يطاع تبعًا وليس كذلك بل طاعته واجبة استقلالاً سواء كان ما أمر به في القرآن أو لم يكن فأين في الآية تقديم آراء الرجال على السنة وإيثار التقليد عليها وولوا الأمر قد نهوا عن تقليدهم كما صح ذلك عن معاذ وابن مسعود وابن عمر وابن عباس وغيرهم من الصحابة وذكرناه نصًا عن الأئمة الأربعة وغيرهم وحينئذ فطاعتهم في ذلك إن كانت واجبة بطل التقليد وإن لم تكن واجبة بطل الاستدلال فهذه الآية من أكبر الحجج عليكم وأعظمها إبطالاً للتقليد، وأما احتجاجكم بقوله تعالى: ﴿ فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ فما ذكرتم بعينه حجة عليكم لأن الله سبحانه أمر بسؤال أهل الذكر وهو القرآن والحديث فهما الذكر الذي أمر الله من لا علم عنده أن يسأل أهله وهذا هو الواجب على كل أحد أن يسأل أهل العلم بالذكر فإذا أخبروه به لم يسعه غير إتباعه هذا كان شأن أئمة أهل العلم لم يكن لهم مقلد معين يتبعونه في كل ما قال فكان ابن عباس يسأل الصحابة عن ما قاله رسول الله ﷺ أو فعله لا يسألهم عن غير ذلك وكان الصحابة يسألون أمهات المؤمنين خصوصًا عائشة عن فعله ﷺ في بيته وكان التابعون يسألون الصحابة عن فعل نبيهم فقط وكذلك أئمة الفقه كما قال الشافعي لأحمد أنت أعلم بالحديث مني فإذا صح الحديث فأعلمني حتى أذهب إليه شاميًا كان أو كوفيًا أو بصريًا ولم يكن أحد من أهل العلم قط يسأل عن رأي رجل بعينه أو مذهبه فيأخذ به وحده ويخالف له ما سواه، وأما قولكم قد صح عنه ﷺ أنه قال عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي وقال اقتدوا بالذين من بعدي أبي بكر وعمر، فهو من أكبر حجتنا عليكم إذ من المعلوم أن أحدًا منهم لم يكن يدع السنة إذا ظهرت لقول غيره كائنًا من كان ولم يكن له معها قول البتة فالأخذ بسنتهم ليس تقليدًا لهم بل إتباع له ﷺ مع أنكم أول مخالف لهذين الحديثين فإنكم لا ترون الأخذ بسنتهم واجبًا وليس قولهم عندكم حجة وقد صرح بعض غلاتكم أنه لا يجوز تقليدهم ويجب تقليد إمامه فمن العجائب احتجاجكم بشيء أنتم أشد الناس له خلافًا

فالحديث بجملته حجة عليكم من كل وجه فإنه أمر عند الاختلاف بسنته وسنة خلفائه وأمرتم أنتم برأي فلان ومذهب فلان وحذر من محدثات الأمور وأخبر أن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة ومعلوم أن ما أنتم عليه من التقليد الذي ترك له كتاب الله وسنة رسوله ويعرضان عليه ويجعل معيارًا عليهما من أعظم المحدثات والبدع التي برأ الله سبحانه القرون التي فضلها على غيرها منها وقد قال في نفس الحديث فإنه من يعش منكم فسيرى اختلافًا كثيرًا وهذا ذم للمختلفين وتحذير من سلوك سبيلهم وإنما كثر الاختلاف بسبب التقليد كل فرقة من أهله تنصر متبوعها وتذم من خالفها ولا يرون العمل بقولهم حتى كأنهم ملة أخرى يدأبون في الرد عليهم ويقولون كتبهم وكتبنا وأئمتهم وأئمتنا ومذهبهم ومذهبنا والنبي واحد والقرآن واحد والدين واحد والرب واحد فالواجب على الجميع أن ينقادوا إلى كلمة سواء بينهم وأن لا يطيعوا إلا الرسول ولا يجعلوا أقوال غيره كنصوصه ولا يتخذ بعضهم بعضًا أربابًا من دون الله فلو اتفقت كلمتهم على ذلك وتحاكموا إلى السنة وآثار الصحابة لقل الاختلاف ولذا تجد أقل الناس اختلافًا أهل السنة والحديث لما بنوا على هذا الأصل وكلما كانت الفرقة عن الحديث أبعد كان اختلافهم أشد وأكثر فإن من رد الحق مرج عليه أمره والتبس عليه الصواب كما قال تعالى: ﴿ **بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيجٍ** ﴾.

وأما احتجاجكم بأنه ﷺ حصر شفاء العي في سؤال العلماء والتقليد لهم فيما قالوه، فجوابه أنه إنما أرشد المستفتين كصاحب الشجة للسؤال عن حكمه وسنته فقال قتلوه قتلهم الله فدعا عليهم حين أفتوا بغير علم وفي هذا تحريم الإفتاء بالتقليد فكل ما دعا ﷺ على فاعله فهو حرام، وكذلك سؤال ابن العسيف الذي زنا بامرأة مستأجره أهل العلم فإنهم لما أخبروه بسنته ﷺ في البكر الزاني أقره على ذلك ولم ينكره فلم يكن سؤالهم عن رأيهم ومذاهبهم فما احتججتم به من أكبر الحجج عليكم، وأما قولكم يكفي في صحة التقليد الحديث المشهور أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم، فجوابه أن البزار قال هذا الكلام لا يصح عن النبي ﷺ مع أنكم استجزتم ترك تقليد النجوم التي يهتدي بها وقلدتم من هو دونهم بمراتب كثيرة.

فكان تقليد الأئمة الأربعة آثر عندكم من تقليد الخلفاء الأربعة فما دل عليه الحديث خالفتموه صريحًا واستدللتم به على تقليد من لم يتعرض له بوجه ؟ والإقتداء بالصحابة هو اتباع القرآن والسنة والقبول من كل من دعا إليهما فالإقتداء بهم يحرم عليكم التقليد ويوجب الاستدلال وتحكيم الدليل كما كان عليه القوم ن فالحديث من أقوى الحجج عليكم، وأما قولكم كان الصحابة يفتون ورسول الله ﷺ حي بين أظهرهم وهذا تقليد من المستفتين لهم فجوابه أن فتوى الصحابة في حياته نوعان أحدهما ما كان يبلغه ويقر عليه فهو حجة بإقراره لا بمجرد إفتائهم (الثاني) ما كانوا يفتون به مبلغين له عن نبيهم فهم فيه رواة لا مقلدون ولا مقلدون.

سورة غافر

الباب الأول

قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾ [غافر:٣٥].

قال (ك): أي الذين يدفعون الحق بالباطل ويردون الحجج بغير دليل وحجة معهم من الله تعالى فإن الله عز وجل يمقت على ذلك أشد المقت ولهذا قال تعالى: ﴿ **كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا** ﴾ أي والمؤمنون أيضًا يبغضون من تكون هذه صفاته فإن من كانت هذه صفته يطبع الله على قلبه فلا يعرف بعد ذلك معروفًا ولا ينكر منكرًا ولهذا قال تبارك وتعالى: ﴿ **كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ** ﴾ أي على إتباع الحق ﴿ **جَبَّارٍ** ﴾ روي ابن أبي حاتم عن عكرمة وحكي عن الشعبي أنهما قالا لا يكون الإنسان جبارًا حتى يقتل نفسين وقال أبو عمران الجوني وقتادة آية الجبابرة القتل بغير حق والله تعالى أعلم.

فصل

قال محمد تقي الدين: ومن الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان المقلدون والمبتدعون كما تقدم في كلام ابن القيم فقد رد شبهاتهم من ثمانين وجهًا تقدم ذكر بعضها في هذا الكتاب. قال صاحب الصوارم في حديث قتلوه قتلهم الله ما نصه:

قلت حديث صاحب الشجة أخرجه ابن ماجة موصولاً وأبو داوود منقطعًا وفيه من العلم أنه عابهم بالفتوى بغير علم وألحق بهم الوعيد على ذلك بأن دعا عليهم وجعلهم في الإثم قتلة وفيه من الفقه الجمع بين التيمم وغسل سائر البدن وكون أحد الأمرين ليس كافيًا دون الآخر قال عطاء بن أبي رباح بلغنا أنه ﷺ قال لو غسل جسده وترك رأسه حيث أصابه الجرح وتيمم لأجزأه، وقال الصنعاني في الجزء الثاني من كتابه سبل السلام شرح بلوغ المرام ما نصه: وأما حديث عليكم بسنتي الحديث وحديث اقتدوا باللذين من بعدي الحديث فإنه ليس المراد إلا طريقتهم الموافقة لطريقته ﷺ من جهاد الأعداء وتقوية شعائر الدين: فإن الحديث عام لكل خليفة راشد ومعلوم أنه ليس لخليفة راشد أن يشرع طريقة غير ما كان عليها النبي ﷺ فتأمل، على أن الصحابة خالفوا الشيخين في مواضع فدل على أنهم لم يحملوا الحديث على أن ما قالاه وفعلاه حجة اهـ.

وفي الإرشاد للشوكاني ما نصه: وأما ما تمسك به بعض القائلين بحجة قول الصحابي مما روي عنه ﷺ أنه قال أصحابي: كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم فهذا مما لم يثبت قط والكلام فيه معروف عند أهل هذا الشأن بحيث لا يصح العمل بمثله في أدنى حكم من أحكام الشرع فكيف بمثل هذا الأمر العظيم والخطب الجليل اهـ.

وفي تفسير البيضاوي عند قوله تعالى: ﴿ أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ ﴾ ما نصه: وفي الآية دليل على المنع من التقليد لمن قدر على النظر والاجتهاد اهـ. وفي التقرير. والتحبير لابن أمير الحاج الحنفي ما نصه: قال ابن حزم أجمعوا أنه لا يحل لحاكم ولا مفت تقليد رجل فلا يحكم ولا يفتي إلا بقوله اهـ.

وقال ابن حزم أيضًا في كتابه الدرة ما نصه: ولا يحل لأحد أن يقلد أحدًا لا حيًا ولا ميتًا ولا أن يتبع أحدًا من دون رسول الله ﷺ لا قديمًا ولا حديثًا ومن التزم بطاعة إنسان بعينه بعد رسول الله ﷺ كان قائلاً بالباطل ومخالفًا لما عليه جماعة الصحابة والتابعين وتابعي التابعين بلا خلاف من أحد منهم وما كان في الأعصار الثلاثة واحد فما فوقه أخذ قول إنسان فوقه فنصره كله واعتقده بأسره وانتسب إليه فهذه بدعة خالف الإجماع التام صاحبها اهـ.

وفي أوائل الجزء الثاني عشر من جامع المعيار أن الشيوخ يقولون أصح الإجماعات إجماعات بن حزم اهـ. وفي الجزء الثاني من المهذب في الفروع للشيخ الإمام أبي إسحاق إبراهيم بن محمد الشيرازي الشافعي المتوفى سنة ست وسبعين وأربعمائة من كتاب الأقضية ما نصه:

فصل ولا يجوز أن يعتقد تقلد القاضي على أن يحكم بمذهب بعينه لقوله عز وجل ﴿ **فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ** ﴾ والحق ما دل عليه الدليل وذلك لا يتعين في مذهب بعينه فإن قلد على هذا الشرط بطلت التولية لأنه علقها على شرط وقد بطل الشرط فبطلت التولية.

الباب الثاني

قوله تعالى: ﴿ وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ ۚ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [غافر:٥٨، ٥٩].

قال (ك) أي كما لا يستوي الأعمى الذي لا يبصر شيئًا والبصير الذي يرى ما انتهى إليه بصره، بل بينهما فرق عظيم كذلك لا يستوي المؤمنون الأبرار والكفرة الفجار ﴿ **قَلِيلاً مَّا تَتَذَكَّرُونَ** ﴾ أي ما أقل ما يتذكر كثير من الناس ثم قال تعالى: ﴿ **إِنَّ السَّاعَةَ لآتِيَةٌ** ﴾ أي لكائنة وواقعة ﴿ **لاَّ رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ** ﴾ أي لا يصدقون بها بل يكذبون بوجودها.

فصل

قال محمد تقي الدين: قد علمت مما تقدم أن كل مقلد لإمام أو شيخ أو رئيس غير المعصوم عليه الصلاة والسلام أنه جاهل لا فرق بينه وبين البهيمة كما تقدم في أبيات الحافظ أبي عمر ابن عبد البر:

لا فرق بين مقلد وبهيمة ... تنقاد بين جنادل ودعاثر

تبا لقاض أو لمفت لا يرى ... عللا ومعنى للمقال السائر

فـــإذا اقتـــديت فبالكتـــاب وســـنة المبعـــوث بالـــدين الحنيـــف الطـــاهر
وإذا الخـــلاف أتـــى فـــدونك فاجتهـــد ومـــع الـــدليل فمـــل بفهـــم حاضـــر

قال صاحب الصوارم:

وفي المعيار للونشريسي في الفصل الذي ذكر فيه المستحسن من البدع وغيره ما نصه:

ومنها ما حكاه الباجي قال كان الولاة عندنا بقرطبة إذا ولوا القضاء رجلاً شرطوا عليه في سجله أن لا يخرج عن قول ابن القاسم ما وجده قال الأستاذ أبو بكر الطرطوشي، وهذا جهل عظيم والتولية صحيحة والشرط باطل كان موافقًا المذهب المشترط أو مخالفًا له اهـ. قال صاحب الإيقاظ ونقل هذا الكلام ابن الحاجب والقرافي وأقراه قال القرافي يريد أن الحق ليس محصورًا في رأي شخص معين اهـ. قلت ونقله عنه خليل في التوضيح ونقل ابن فرحون في التبصرة عنه بطلانهما وفي تحرير الكلام في مسائل الالتزام للحطاب ما نصه:

قال في الجواهر فإن شرط على القاضي أن يحكم بمذهب إمام معين من أئمة المسلمين ولا يحكم بغيره فالعقد صحيح والشرط باطل كان موافقًا لمذهب المشترط أو مخالفًا له اهـ. قلت قد وقع الاتفاق كما رأيت على بطلان الشرط وإنما الخلاف في التولية فأبطلها الشافعية وصححها المالكية.

وقال شيخ الإسلام تقي الدين ابن تيمية في الجزء الثاني من فتاويه ما نصه:

من أوجب تقيد إمام بعينه استتيب فإن تاب وإلا قتل وإن قال ينبغي كان جاهلاً ضالاً اهـ. وفي الإرشاد للشوكاني ما نصه: اختلفوا في المسائل الشرعية الفرعية هل يجوز التقليد فيها أم لا فذهب جماعة من أهل العلم إلى أنه لا يجوز مطلقًا قال ابن حزم: فمالك ينهي عن التقليد وكذلك الشافعي وأبو حنيفة. وبهذا تعلم أن المنع مع التقليد إن لم يكن إجماعًا فهو مذهب الجمهور ويؤيد هذا ما سيأتي من حكاية الإجماع على عدم جواز تقليد الأموات وما سيأتي من أن عمل المجتهد برأيه إنما هو رخصة له عند عدم الدليل ولا يجوز لغيره أن يعمل به بالإجماع فهذان الإجماعان يجتثان التقليد من أصله فالعجب من كثير من أهل الأصول حيث لم يحكوا هذا القول إلا عن بعض المعتزلة، والحاصل أنه لم يأت من جوز التقليد فضلاً عمن أوجبه بحجة ينبغي الاشتغال بجوابها قط ولم نؤمر برد شرائع الله سبحانه إلى آراء

الرجال بل أمرنا بما قال سبحانه ﴿ **فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ** ﴾ أي كتاب الله وسنة رسوله اهـ. ونحوه في تفسيره المسمى فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير في الكلام على قوله تعالى: ﴿ **وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ** ﴾ اهـ.

قال محمد تقي الدين: جاء فيما نقله صاحب الصوارم عن الونشريسي لفظ فيما يستحسن من البدع وهو كلام باطل كفي غاية الضلالة والجهالة فإن البدع كلها قبيحة وضلالة لقول النبي ﷺ كل بدعة ضلالة وقال مالك رحمه الله من ابتدع في الإسلام بدعة يراها حسنة فقد زعم أن محمدًا ﷺ خان الرسالة لأني سمعت الله يقول: ﴿ **الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ** ﴾ وما لم يكن يومئذ دينًا لا يكون اليوم دينا، ذكره عنه الشاطبي في الاعتصام اهـ.

الباب الثالث

قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِٱلْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا۟ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ [غافر: ٦٩-٧٦].

قال (ك): يقول تعالى: ألا تعجب يا محمد من هؤلاء المكذبين بآيات الله ويجادلون في الحق بالباطل كيف تصرف عقولهم عن الهدى إلى الضلال ﴿ **الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا** ﴾ أي من الهدى والبيان ﴿ **فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ** ﴾ هذا تهديد شديد، ووعيد أكيد، من الرب جل جلاله لهؤلاء كما قال تعالى: ﴿ **وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ** ﴾ وقوله عز وجل ﴿ **إِذِ الأَغْلالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلاسِلُ** ﴾ أي متصلة بالأغلال بأيدي الزبانية يسحبونهم على

وجوههم تارة إلى الحميم وتارة إلى الجحيم ولهذا قال تعالى: ﴿ يُسْحَبُونَ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ﴾ وقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ أي قيل لهم أين الأصنام التي كنتم تعبدونها من دون الله هل ينصرونكم اليوم ﴿ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا ﴾ أي ذهبوا فلم ينفعونا ﴿ بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُو مِن قَبْلُ شَيْئًا ﴾ أي جحدوا عبادته ولهذا قال عز وجل ﴿ كَذَلِكَ يُضِلُّ اللهُ الْكَافِرِينَ ﴾ وقوله ﴿ ذَلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴾ أي تقول لهم الملائكة هذا الذي أنتم فيه جزاء على فرحكم في الدنيا بغير الحق ومرحكم وأشركم وبطركم ﴿ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ أي فبئس المنزل والمقيل الذي فيه الهوان والعذاب الشديد لمن استكبر عن آيات الله وإتباع دلائله والله أعلم اهـ.

فصل

قال محمد تقي الدين: كل من رد حديث النبي ﷺ في مسألة واحدة تعصبًا لمذهبه أو نحلته كائنة ما كانت ودافع عن رأيه وأعتقد أنه هو الصواب فهو من الذين يجادلون في آيات الله وهو من المكذبين بالكتاب قال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي ﴾ وقال تعالى: ﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾. وقال تعالى: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى (٣) إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى ﴾. وقال تعالى: ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾. وقد تقدم حديث: «إني أخاف على أمتي من ثلاث: من زلة عالم، ومن هوى متبع، ومن حكم جائر» اهـ.

وفي الصوارم ما نصه: وروي عن ابن المبارك أنه قال: كنا في الكوفة فناظروني في النبيذ المختلف فيه فقلت لهم تعالوا فليحتج المحتج منكم عن من شاء من أصحاب النبي ﷺ فإن لم نبين الرد عليه عن ذلك الرجل بشدة صحت عنه فاحتجوا فما جاؤوا عند واحد برخصة إلا جئناهم بشدة فلما لم يبق في يد أحد منهم إلا ابن مسعود وليس احتجاجهم عنه في رخصة النبيذ بشيء يصح عنه قال ابن المبارك: فقلت للمحتج عنه في الرخصة: يا أحمق عد أن ابن مسعود لو كان هاهنا جالسًا فقال هو لك حلال وما وصفنا عن النبي ﷺ وأصحابه

في الشدة كان ينبغي لك أن تحذر أو تخشى فقال قائلهم يا أبا عبد الرحمن ! فالنخعي والشعبي وسمي عدة منهما كانوا يشربون الحرام فقلت لهم، دعوا عند الاحتجاج تسمية الرجال: فرب رجل في الإسلام مناقبه كذا وكذا وعسى أن يكون منه زلة أفلأحد أن يحتج بها فإن أبيتم فما قولكم في عطاء وطاووس وجابر بن زيد وسعيد بن جبير وعكرمة ؟ قالوا كانوا خيارًا فقلت فما قولكم في الدرهم بالدرهمين يدًا بيد فقالوا حرام، فقلت: إن هؤلاء رأوه حلالاً فماتوا وهم يأكلون الحرام وانقطعت حجتهم.

سورة فصلت

الباب الأول

قوله تعالى: ﴿ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ﴾ [فصلت:٢-٥].

قال (ك): يقول تعالى ﴿ تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ يعني القرآن منزل من الرحمن الرحيم كقوله ﴿ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ ﴾ وقوله تبارك وتعالى ﴿ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ﴾ أي بينت معانيه وأحكمت أحكامه ﴿ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ﴾ أي في حال كونه قرآنًا عربيًا بيّنًا واضحًا فمعانيه مفصلة وألفاظه واضحة غير مشكلة، وقوله تعالى: ﴿ لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ أي إنما يعرف هذا البيان والوضوح العلماء الراسخون ﴿ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ أي تارة يبشر المؤمنين وتارة ينذر الكافرين ﴿ فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ ﴾ أي أكثر قريش فهم لا يفهمون منه شيئًا مع بيانه ووضوحه ﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ ﴾ أي في غلف مغطاة ﴿ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ ﴾ أي صمم عما جئتنا به ﴿ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ ﴾ فلا يصل إلينا شيء مما تقول ﴿ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ ﴾ أي اعمل أنت على طريقتك ونحن على طريقتنا لا نتابعك، قال الإمام العالم عبد بن حميد في مسنده بسنده إلى جابر بن عبد الله قال: اجتمعت قريش

يومًا فقالوا، انظروا أعلمكم بالسحر والكهانة والشعر فليأت هذا الرجل الذي قد فرق جماعتنا وشتت أمرنا وعاب ديننا فليكلمه ولننظر ماذا يرد عليه فقالوا ما نعلم أحدًا غير عتبة بن ربيعة فقالوا أنت يا أبا الوليد فأتاه عتبة فقال: يا محمد أنت خير أم عبد الله ؟ فسكت رسول الله ﷺ فقال: أنت خير أم عبد المطلب ؟ فسكت رسول الله ﷺ فقال: إن كنت تزعم أن هؤلاء خير منك فقد عبدوا الآلهة التي عبت، وإن كنت تزعم أنك خير منهم فتكلم حتى نسمع قولك وإنا والله ما رأينا سخلة قط أشأم على قومك منك، فرقت جماعتنا وشتت أمرنا، وعبت ديننا وفضحتنا في العرب، حتى لقد طار فيهم أن في قريش كاهنًا والله ما ننتظر إلا صيحة الحبلى أن يقوم بعضنا إلى بعض بالسيوف حتى نتفانى أيها الرجل إن كان إنما بك الحاجة جمعنا لك حتى تكون أغنى قريش وإن كان إنما بك الباءة فاختر أي نساء قريش شئت فلنزوجك عشرًا، فقال رسول الله ﷺ « فرغت؟ » قال نعم. فقال رسول الله ﷺ: ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم.. حم (١) تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾. حتى بلغ ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾ فأمسك عتبة على فيه وناشده بالرحم ورجع إلى أهله ولم يخرج إلى قريش واحتبس عنهم، فقال أبو جهل يا معشر قريش والله ما نرى عتبة إلا قد صبأ إلى محمد وأعجبه طعامه وما ذاك إلا من حاجة أصابته فانطلقوا بنا إليه فقال أبو جهل يا عتبة ما حبسك عنا إلا أنك صبأت إلى محمد وأعجبك طعامه، فإن كانت بك حاجة جمعنا لك من أموالنا ما يغنيك عن طعام محمد، فغضب عتبة وأقسم أن لا يكلم محمدًا أبدًا وقال والله لقد علمتم أني من أكثر قريش مالاً ولكني أتيته وقصصت عليه القصة فأجابني بشيء والله ما هو بشعر ولا كهانة ولا سحر وقرأ السورة إلى قوله تعالى: ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾ فأمسكت بفيه وناشدته بالرحم أن يكف وقد علمتم أن محمدًا إذا قال شيئًا لم يكذب فخشيت أن ينزل بكم العذاب.

فصل

قال محمد تقي الدين: وقد عامل أهل هذا الزمان الذين يدعون الإسلام من العرب وغيرهم هذا الكتاب العظيم بمثل ما عاملته قريش في أول الأمر فوقعوا فيما أنذرهم به ولا نجاة لهم منه إلا بالرجوع إلى الإيمان به واتخاذه إمامًا والاستضاءة بنوره ومن المعرضين

عنه وعن السنة التي هي بيانه المقلدون الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعًا كل حزب بما لديهم فرحون فذرهم في غمرتهم حتى حين.

ثم قال صاحب الصوارم، والحق ما قاله ابن المبارك فإن الله تعالى يقول فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول. وعن أبي الدرداء، أن مما أخشى عليكم زلة العالم أو جدال المنافق بالقرآن وكان معاذ بن جبل يقول في خطبته. إياكم وزيغة الحكيم قالوا وكيف هي قال هي كلمة تروعكم وتنكرونها فاحذروا زيغته ولا تصدنكم عنه فإنه يوشك أن يفيء ويراجع الحق وعن المعتمر بن سليمان قال رآني أبي وأنا أنشد الشعر فقال يا بني لا تنشد الشعر فقلت له يا أبت كان الحسن وابن سيرين ينشدانه فقال لي أي بني إن أخذت بشر ما في الحسن وابن سيرين اجتمع فيك الشر كله، قال الغزالي: إن زلة العالم قد تصير كبيرة وهي في نفسها صغيرة فيموت العالم ويبقى شره مستطيرًا في العالم فطوبى لمن إذا مات ماتت معه ذنوبه وهذا الحكم مستمر في زلته في الفتيا من باب أولى فإنه ربما خفي على العالم بعض السنة فيفضي ذلك إلى أن يصير قوله شرعًا يتقلد وقولاً يعتبر في مسائل الخلاف فربما رجع عنه وتبين له الحق فيفوته تدارك ما سار في البلاد عنه ومن هنا قالوا زلة العالم مضروب بها الطبل.

الباب الثاني

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَـٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَـٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ جَعَلْنَـٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُواْ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَـٰتُهُۥٓ ۖ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴾ [فصلت:٤١-٤٤].

قال (ك): هو القرآن: ﴿ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ﴾ أي منيع الجناب لا يرام أن يأتي أحد بمثله

﴿ لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ ﴾ أي ليس للبطلان إليه سبيل لأنه منزل من رب العالمين ولهذا قال ﴿ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ أي حكيم في أقواله وأفعاله حميد بمعنى محمود أي في جميع ما يأمر به وينهي عنه الجميع محمودة عواقبه وغاياته، ثم قال عز وجل: ﴿ مَا يُقَالُ لَكَ إِلاَّ مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ﴾ قال قتادة وغيره ما يقال لك من التكذيب إلا كما قد قيل للرسل من قبلك فكما كذبت كذبوا وكما صبروا على أذى قومهم لهم فاصبر أنت على أذى قومك لك.

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ ﴾ أي لمن تاب إليه ﴿ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴾ أي لمن استمر على كفره وطغيانه وعناده وشقائه ومخالفته وقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا ﴾. إلى قوله: ﴿ بَعِيدٍ ﴾.

قال (ك) لما ذكر تعالى القرآن وفصاحته وبلاغته وأحكامه في لفظه ومعناه ومع هذا لم يؤمن به المشركون نبه على أن كفرهم به كفر عناد وتعنت كما قال عز وجل: ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الأَعْجَمِينَ (١٩٨) فَقَرَأَهُ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ ﴾ وكذلك لو أنزل القرآن كله بلغة العجم لقالوا على وجه التعنت والعناد ﴿ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ءَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ ﴾ أي لقالوا هلا أنزل مفصلاً بلغة العرب لأنكروا ذلك فقالوا ﴿ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ ﴾ أي كيف ينزل كلام أعجمي على مخاطب عربي لا يفهمه ثم قال عز وجل ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاء ﴾. أي قل يا محمد. هذا القرآن لمن آمن به هدى لقلبه وشفاء لما في الصدور من الشكوك والريب ﴿ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ ﴾ أي لا يفهمون ما فيه ﴿ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ﴾ كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاء وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلاَ يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إَلاَّ خَسَارًا ﴾. ﴿ أُوْلَئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ قال ابن جرير معناه كأن من يخاطبهم يناديهم من مكان بعيد لا يفهمون ما يقول.

فصل

قال محمد تقي الدين: لاشك أن القرآن كان لأصحاب رسول الله والتابعين وسائر أهل القرون المفضلة هدى وشفاء هداهم الله به من الضلال وشفي به صدورهم مما كان فيها من

الأمراض المعنوية وفيه هدى وشفاء لكل من اتبعه من الجماعات والأفراد وكل من عرف تاريخ الإسلام والشعوب التي سعدت به يعلم هذا يقينًا ويعلم أن سبب شقائها هو الإعراض عنه ومن جملة المحرومين مما فيه من الهدى والشفاء المقلدون وأصحاب الطرائق.

وفي الصوارم ما نصه:

وفي الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان لتقي الدين بن تيمية ما نصه: وقد اتفق سلف الأمة وأئمتها على أن كل أحد يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله ﷺ وهذا من الفروق بين الأنبياء وغيرهم فإن الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم يجب الإيمان بجميع ما يخبرون به عن الله عز وجل وتجب طاعتهم فيما يأمرون به بخلاف[1] الأولياء فإنهم يعرض أمرهم وخبرهم على الكتاب والسنة فما وافقهما وجب قبوله وما خالفهما كان مردودًا وكان صاحبه من أولياء الله وكان مجتهدًا أجر على اجتهاده وكثير من الناس يغلط في هذا فيظن في شخص أنه ولي ويظن أن ولي الله يقبل منه كل ما يقوله ويسلم له كلما يفعله وإن خالف الكتاب والسنة فيوافق ذلك الشخص ويخالف ما بعث الله به رسوله فتجره مخالفة الرسول وموافقته ذلك الشخص أولا إلى البدعة والضلال وآخرا إلى الكفر والنفاق اهـ.

سورة الشورى

الباب الأول

قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ۝٧ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ [الشورى: ٧، ٨].

قال القاسمي في تفسيره: ﴿ لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى ﴾ أي أهلها، هي مكة ﴿ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ أي من العرب وسائر الناس ﴿ وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ ﴾ أي يوم القيامة الذي تكون فيه الفضيحة

(١) يعني أولياء الأمور وهم الحكام.

أعظم، لأنه يجمع فيه الخلائق ﴿ **لا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ** ﴾ أي منهم فريق في الجنة وهم الذين آمنوا بالله واتبعوا ما جاءهم به رسول الله ﷺ وفريق في السعير، أي النار الموقدة المسعورة على أهلها، وهم الذين كفروا بالله وخالفوا ما جاءهم به رسوله ﴿ **وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً** ﴾ أي أهل دين واحد وملة واحدة ﴿ **وَلَكِن يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ** ﴾ أي ولكن لم يفعل ذلك فيجعلهم أمة واحدة، لمنافاة ذلك ما تقتضيه حكمة خلق الإنسان من تنوع أفراده المستلزم اختلاف أميالهم ومشاربهم، ولذا شاء ما اقتضاه خلقهم واستعدادهم، فكلفهم وبني أمرهم على ما يختارون، فادخل من شاء في رحمته وهم المؤمنون،وفي عذابه الكافرين، قال أبو السعود ولا ريب في أن مشيئته تعالى لكل من الأدخالين، تابعة لاستحقاق كل من الفريقين لدخول مدخله ﴿ **وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ** ﴾ أي والكافرون بالله ما لهم من ولي يتولاهم يوم القيامة، ولا نصير ينصرهم من عقاب الله فينقذهم من عذابه، لأنه يدخلهم في قهره، ووصفهم بالظالمين، إشارة إلى عدل المؤمنين في باب الاعتقادات والأخلاق والأعمال والأفعال، وإنه تعالى يواليهم وينصرهم.

فصل

قال محمد تقي الدين: هذا القرآن العربي الذي أنزله الله تعالى على عبده ورسوله خاتم النبيين محمد ﷺ حجة على جميع أهل الأرض على كل من بلغه على وجه صحيح ومن أعرض عنه بعد بلوغه خسر الدنيا والآخرة وكان الشقاء حليفه والبرهان على ذلك أوضح من الشمس فهذه سبعمائة مليون يتخبطون في ظلمات الشقاء بسبب الإعراض عنه ولم يجدوا وليًا ولا نصيرًا وعلى قدر تحقق البلوغ يكون العقاب.

وفي الصوارم ما نصه:

في الجزء الأول من سبل السلام للصنعاني ما نصه: وليس أحد من أفراد العلماء إلا وله نادرة ينبغي أن تغمر في جنب فضله وتجتنب اهـ. وفي الجامع لابن عبد البر ما نصه: وتشبه زلة العالم بانكسار السفينة لأنها إذا غرقت غرق معها خلق كثير وإذا صح وثبت أن العالم يزل ويخطئ لم يجز لأحد أن يفتي ويدين بقول لا يعرف وجهه اهـ.

قلت: وقال ﷺ: اتقوا زلة العالم الحديث رواه الديلمي في مسند الفردوس، وقال ابن عبد البر في جامعه وروي عن رسول الله ﷺ أنه قال احذروا زلة العالم وعن عمر ومعاذ وسلمان مثل ذلك اهـ. وفي الأعلام لابن القيم ما نصه: والمصنفون في السنة جمعوا بين فساد التقليد وإبطاله وبين زلة العالم ليبينوا بذلك فساد التقليد وإن العالم قد يزل ولابد إذ ليس بمعصوم فلا يجوز قبول كل ما يقوله وينزل قوله منزلة قول المعصوم فهذا الذي ذمه كل عالم على وجه الأرض وحرموه وذموا أهله وهو أصل بلاء المقلدين وفتنتهم فإنهم يقلدون العالم فيما زل فيه وفيما لم يزل فيه وليس لهم تمييز بين ذلك فيأخذون الدين بالخطأ ولابد فيحلون ما حرم الله ويحرمون ما أحل الله ويشرعون ما لم يشرع ولابد لهم من ذلك إذ كانت العصمة منتفية عمن قلدوه فالخطأ واقع منه ولابد ومن المعلوم أن المخوف في زلة العالم تقليده فيها إذ لولا التقليد لم يخف على زلة العالم على غيره اهـ.

قلت ولأجل الحذر من هذا المعنى وقع التصريح من كل إمام كما تقدم بأن إتباعه إنما يجوز على شرط أنه حاكم بالسنة فإذا ظهر أنه حاكم بغيرها فقد خرج أتباعه بالتصميم على تقليده عن شرطه اهـ.

وقال علي كرم الله وجهه:

إذا المشكلات تصدين لي ... كشفت حقائقها بالنظر
ولست بامعة في الرجال ... يسائل هذا وذا ما الخبر

الباب الثاني

قوله تعالى: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾ فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ

كَمَآ أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ۖ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ ۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ۖ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ ۖ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾ وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ [الشورى:١٣-١٦].

قال (ك): يقول تعالى لهذه الأمة ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾ فذكر أول الرسل بعد آدم عليه السلام وهو نوح عليه السلام وآخرهم محمد ﷺ، ثم ذكر من بين ذلك من أولي العزم وهم إبراهيم وموسى وعيسى بن مريم وهذه الآية انتظمت ذكر الخمسة كما اشتملت آية الأحزاب عليهم في قوله تبارك وتعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ﴾ الذي جاءت به الرسل كلهم هو عبادة الله وحده لا شريك له كما قال عز وجل: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ وفي الحديث: « نحن معشر الأنبياء أولاد علات ديننا واحد » أي القدر المشترك بينهم هو عبادة الله وحده لا شريك له وإن اختلفت شرائعهم ومناهجهم كقوله جل جلاله: ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ ولهذا قال تعالى ها هنا ﴿ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾ أي أوصى الله تعالى جميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بالائتلاف والجماعة ونهاهم عن الافتراق والاختلاف، وقوله عز وجل: ﴿ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ﴾. أي شق عليهم وأنكروا ما تدعوهم إليه يا محمد من التوحيد، ثم قال تعالى جل جلاله: ﴿ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾ أي هو الذي يقدر الهداية لمن يستحقها ويكتب الضلالة على من آثرها على طريق الرشد ولهذا قال تبارك وتعالى: ﴿ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ ﴾ أي إنما كان مخالفتهم للحق بعد بلوغه إليهم وقيام الحجة عليهم وما حملهم على ذلك إلا البغي والعناد والمشاقة ثم قال عز وجل: ﴿ وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ أي لولا الكلمة السابقة من الله تعالى بإنظار العباد بإقامة حسابهم إلى يوم المعاد لعجل عليهم العقوبة في الدنيا سريعًا، وقوله

جلت عظمته ﴿ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِن بَعْدِهِمْ ﴾ يعني الجيل المتأخر بعد القرن الأول المكذب للحق ﴿ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴾ أي ليسوا على يقين من أمرهم وإيمانهم وإنما هم مقلدون لآبائهم وأسلافهم بلا دليل ولا برهان وهم في حيرة من أمرهم وشك مريب وشقاق بعيد.

وقوله تبارك وتعالى: ﴿ فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ ﴾. إلى قوله: ﴿ الْمَصِيرُ ﴾. **قال (ك)** اشتملت هذه الآية الكريمة على عشر كلمات مستقلات كل منها منفصلة عن التي قبلها حكم برأسها قالوا ولا نظير لها سوى آية الكرسي فإنها أيضا عشر فصول كهذه، وقوله ﴿ فَلِذَلِكَ فَادْعُ ﴾. أي فلذلك أوحينا إليك من الدين الذي وصينا به جميع المرسلين قبلك أصحاب الشرائع الكبار المتبعة كأولى العزم وغيرهم فادع الناس إليه وقوله عز وجل ﴿ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ ﴾. أي واستقم أنت ومن اتبعك على عبادة الله تعالى كما أمركم الله عز وجل وقوله تعالى: ﴿ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ ﴾. يعني المشركين فيما اختلقوه وكذبوه وافتروه من عبادة الأوثان، وقوله جل وعلا: ﴿ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ ﴾. أي صدقت بجميع الكتب المنزلة من السماء على الأنبياء لا نفرق بين أحد منهم وقوله: ﴿ وَأُمِرْتُ لأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ﴾. أي في الحكم كما امرني الله وقوله جلت عظمته ﴿ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ﴾. أي هو المعبود لا إله غيره فنحن نقر بذلك اختيارا وأنتم وإن لم تفعلوه اختيارا فله يسجد من في العالمين طوعا وإجبارا، وقوله تبارك وتعالى: ﴿ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ ﴾. أي نحن براء منكم كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَاْ بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾. وقوله تعالى: ﴿ لا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ﴾. قال مجاهد أي لا خصومة قال السدي وذلك قبل نزول آية السيف وهذا متجه لأن هذه الآية مكية ولآية السيف بعد الهجرة وقوله عز وجل ﴿ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ﴾ , أي يوم القيامة وقوله جل وعلا: ﴿ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾. أي المرجع والمئاب يوم الحساب.

وقوله تبارك وتعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ ﴾.

قال (ك) يقول تعالى متوعدا الذين يصدون عن سبيل الله من آمن به ﴿ وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ ﴾. أي يجادلون المؤمنين المستجيبين لله ولرسوله ليصدوهم عما سلكوه من طريق الهدى ﴿ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾. أي باطلة عند الله ﴿ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ ﴾. أي منه ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾. أي يوم القيامة قال ابن عباس ومجاهد جادلوا المؤمنين بعدما استجابوا لله ولرسوله ليصدوهم عن الهدى وطمعوا أن تعود الجاهلية، وقال قتادة هم اليهود والنصارى قالوا لهم ديننا خير من دينكم ونبينا خير من نبيكم ونحن خير منكم وأولى بالله منكم وقد كذبوا في ذلك.

فصل

قال محمد تقي الدين: اعلم أن دين الرسل واحد في اصوله وهي أربعة توحيد الله في ربوبيته وعبادته وأسمائه وصفاته ومن توحيده في عبادته جعل الحكم له « الثاني » الإيمان بجميع الرسل وبجميع الكتب التي أنزلها الله على أنبيائه من عرفنا منهم ومن لم نعرف « الثالث » إقامة العدل بين الناس لا تفضيل لشعب على شعب ولا لفرد على فرد إلا بتقوى الله العظيم وما خص الله به الأنبياء من الوحي والعصمة لا يشاركهم في ذلك أحد. « الرابع » حسن الخلق ورحمة أهل الأرض كلهم حتى البهائم فهذه لا يختلف فيها رسول ورسول ولا ملة وملة أما الشرائع كالحلال والحرام والعقوبات على الجرائم فإنها كانت مختلفة في شرائع الأنبياء السابقين قبل بعثته خاتمهم صلوات الله وسلامه عليه أما بعد بعثته فجميع بني آدم لهم ملة واحدة يجب عليهم إتباعها وهي الإسلام عقيدة وشريعة ومن أبي من أهل الكتاب أن يدخل في الإسلام ويدين الله به وارتبط مع المسلمين بعهد وذمة فله شريعته يحكم بها في الدنيا أما بالنسبة إلى الآخرة فكل من بلغته دعوة خاتم النبيين على وجهها كما بلغها أصحاب رسول الله ﷺ إلى فارس والروم ومصر وبعض أهل الهند وخراسان ولم يؤمن بها ويدن الله بها فإن الله يعذبه عذابا شديدا وأما من لم تبلغه أو بلغته مشوهة مبدلة فنكل أمره إلى الله. قال الله تعالى ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾. والآيات في هذا المعنى كثيرة في القرآن ولا يظلم ربك أحدا وقوله تعالى ﴿ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾. يمنع إتباع الفرق والمذاهب ويجعل أهل الحق أمة واحدة فمن حاد الله

ورسوله وشاق الرسول من بعد ما تبين له الهدى واتبع غير سبيل المؤمنين وهم أصحاب رسول الله ﷺ وسائر القرون المفضلة يوله الله ما تولى ويصليه جهنم وساءت مصيرا.

وقلت في قصيدة:

ومن رد قول المصطفى بعد صحة فذلك كفار أثيم ومعتد

سيسود في يوم القيامة وجهه وإن يأت للحوض المبارك يطرد

ويبرأ منه ذلك اليوم مالك وكل تقي للإله موحد

سواء أصلى قابضا في صلاته أم اختار سدلا نقله لم يؤيد

وفي الصوارم ما نصه:

وقال تقي الدين السبكي رحمه الله تعالى من قصيدة له يخاطب به ابنه الأكبر أبا بكر:

وإذا أتتك مقالة قد خالفت نص الكتاب أو الحديث المسند

فاقف الكتاب ولا تمل عنه وقف متأدبا مع كل حبر أو حد

وقال الحافظ أبو محمد بن حزم الظاهري رحمه الله تعالى:

واحذر من التقليد فهو مضلة أن المقلد في سبيل المالك

تأبونه في العقل وهو مقالكم في الدين يا له من ضلال فاتك

قوله يا له بالاختلاس وهو لغة بني عقيل ويجوز عند غيرهم اضطرارا أهـ وفي روح البيان للشيخ إسماعيل حقي أفندي التركي ما نصه: الآية ناعية على كثير من الفرق الضالة الذين تركوا كتاب الله وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام لكلام علمائهم ورؤسائهم والحق أحق بالإتباع فمتى ظهر وجب على المسلم إتباعه وأن أخطأه اجتهاد مقلده أهـ.

وفي تفسير الفخر الرازي في الموضع المذكور ما نصه:

ولو تأملت حق التأمل وجدت هذا الداء ساريا في عروق الأكثرين من أهل الدنيا أهـ وفي الاعتصام للشاطبي بعد ذكره حديث عدي بن حاتم المذكور ما نصه:

فتأملوا يا أولى الألباب كيف حال الاعتماد في الفتوى على الرجال من غير تحر للدليل الشرعي بل لمجرد الغرض العاجل عافانا الله من ذلك بمنه أهـ قلت الأحبار العلماء والرهبان العباد كما نص عليه غير واحد أهـ.

وفي الجزء الأول من حاشية الصاوي على تفسير الجلالين في الكلام على قوله تعالى: ﴿ وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ﴾. في سورة آل عمران ما نصه: واتخاذهم أربابا من حيث أنهم ينسبون التحليل والتحريم والإقالة من الذنوب لهم لا يتبعون ما أنزل الله والمدار عندهم على ما حللته الرهبان والأحبار أو حرموه وهذه الآية وإن كانت خطابا لليهود والنصارى إلا أنها تجر ذيلها على من يشرك بالله غيره من المسلمين كضعفاء الإيمان الذي يعتقدون في الأولياء أنهم يضرون أو ينفعون بذواتهم ويحلون ما حرم الله ويحرمون ما أحل الله ومع ذلك يحدثون بدعا عظيمة ما أنزل الله بها من سلطان ويجعلون تلك البدع طرقا لهؤلاء الأولياء ويزعمون أنها منجية وإن كانت مخالفة للشرع ويحسبون أنهم على شيء إلا إنهم هم الكاذبون استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله أولئك حزب الشيطان إلا إن حزب الشيطان هم الخاسرون.

الباب الثالث

قوله تعالى: ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَـٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾ تَرَى ٱلظَّـٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا۟ وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ ۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾ ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ۗ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ [الشورى:٢١-٢٣].

قال المحقق القنوجي في تفسيره فتح البيان ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاء ﴾. أي بل ألهم شركاء؟ أو – أيقبلون ما شرع الله من الدين أم لهم آلهة ﴿ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ ﴾. من الشرك والمعاصي والشرائع المضلة وإنكار البعث والعمل للدنيا والآية بعمومها تشمل كل شيء لم يأمر به الله سبحانه أو رسوله فيدخل فيه التقليد لأنه مما لم يأذن به الله بل ذمه في كتابه في غير موضع ولم يأذن به رسوله ولا إمام من أئمة الدين ولا أحد من سلف الأمة

وسادتها وقادتها بل نهى عنه المجتهدون الأربعة ومن كان بعدهم من أهل الحق ترك الإيمان وأتباع السنة المطهرة وإنما أحدثه من أحدث من الجهال والعوام بعد القرون المشهود لها بالخير فرحم الله امرأ سمع الحق فأتبعه وسمع الباطل ودمغه وبالله التوفيق ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ ﴾. وهي تأخير عذابهم حيث قال بل الساعة موعدهم ﴿ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ﴾. في الدنيا فعوجلوا بالعقوبة والضمير في بينهم راجع إلى المؤمنين والمشركين أو المشركين وشركائهم ﴿ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ ﴾. أي المشركين الكافرين والمكذبين ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾. مؤلم في الدنيا والآخرة ﴿ تَرَى الظَّالِمِينَ ﴾.خطاب لكل من تتأتى منه الرؤية ﴿ مُشْفِقِينَ ﴾ أي خائفين وجلين ﴿ مِمَّا كَسَبُوا ﴾. من السيئات وذلك الخوف والوجل يوم القيامة ﴿ وَهُوَ ﴾. أي جزاء ما كسبوا ﴿ وَاقِعٌ بِهِمْ ﴾. نازل عليهم لا محالة أشفقوا أو لم يشفقوا ولما ذكر سبحانه حال الظالمين ذكر حال المؤمنين فقال ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ ﴾. فيه تنبيه على أن عصاة المسلمين من أهل الجنة لأنه خص ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ بأنهم ﴿ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُم مَّا يَشَاؤُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ من صنوف النعم وأنواع المستلذات ﴿ ذَلِكَ ﴾. ما ذكر للمؤمنين ﴿ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴾. أي الذي لا يوصف ولا تهتدي العقول إلى كنه صفته ومعرفة حقيقته لأن الحق إذا قال كبير فمن ذا الذي يقدر قدره ﴿ ذَلِكَ ﴾. أي الفضل الكبير ﴿ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ ﴾. ثم وصف العباد بقوله ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾. فهؤلاء الجامعون بين الإيمان والعمل بما أمر الله به وترك ما نهى عنه هم المبشرون بتلك البشارة ثم لما ذكر سبحانه ما اخبر به نبيه ﷺ من هذه الأحكام الشريفة التي اشتمل عليه كتابه أمره بأن يخبرهم بأنه لا يطلب منهم بسبب هذا التبليغ ثوابا منهم فقال ﴿ قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾. أي قل يا محمد لا أطلب منكم الآن ولا في مستقبل الزمان لا على تبليغ الرسالة ببشارة أو نذارة جعلا ولا نفعا وإن قل. والخطاب إما لقريش أو للأنصار لأنهم أخواله أو لجميع العرب لأنهم أقاربهم في الجملة ﴿ إِلَّا الْمَوَدَّةَ ﴾. العظيمة الواسعة ﴿ فِي الْقُرْبَى ﴾.

وقال (ك) أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين من كفار قريش لا أسألكم على هذا البلاغ والنصح لكم ما لا تعطونيه وإنما أطلب منكم أن تكفوا شركم عني وتذروني أبلغ رسالات ربي إن لم تنصروني فلا تؤذوني بما بيني وبينكم من القرابة قال البخاري بسنده إلى عبد الملك بن ميسرة قال سمعت طاووسا يحدث عن ابن عباس أنه سئل عن قوله تعالى: ﴿ **إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى** ﴾. فقال سعيد ابن جبير قربى آل محمد ﷺ فقال ابن عباس عجلت أن النبي ﷺ لم يكن بطن من قريش إلا كان له فيهم قرابة فقال إلا أن تصلوا ما بيني وبينكم من القرابة ومضى إلى أن قال وقوله عز وجل ﴿ **وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا** ﴾ أي ومن يعمل حسنة نزد له فيها حسنا أي أجرًا وثوابا كقوله تعالى: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لاَ يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا** ﴾ وقال بعض السلف أن من ثواب الحسنة الحسنة بعدها، ومن جزاء السيئة السيئة بعدها وقوله تعالى: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ** ﴾. يغفر الكثير من السيئات ويكثر القليل من الحسنات.

فصل

قال محمد تقي الدين: تأمل يا أيها السامع وتأمل يا أيها القارئ قول المحقق محمد صديق حسن ملك بهوبال وملك العلماء في زمانه رحمه الله والآية بعمومها تشمل كل شيء لم يأمر به الله سبحانه أو رسوله فيدخل فيه التقليد لأنه مما لم يأذن به الله بل ذمة في كتابه في غير موضع ولم يأذن به رسوله ولا إمام من أئمة الدين ولا أحد من سلف الأمة وسادتها وقادتها بل نهى عنه المجتهدون الأربعة ومن كان بعدهم من أهل الحق ترك الإيمان إلى آخره يظهر لك فساد ما عليه أهل هذا الزمان من التقليد والتفرق في الدين ونبذ كتاب الله وسنة رسوله وأقوال الأئمة المجتهدين والاعتماد على أقوال المقلدين الذين هم في غمرة ساهون وفي طغيانهم يعمهون.

وقال صاحب الصوارم:

وقال تقي الدين ابن تيمية في كتابه اقتضاء الصراط المستقيم ما نصه: واليهود مقصرون عن الحق والنصارى غالون فيه فكفر اليهود أصله من جهة عدم العمل بعلمهم فهم يعلمون الحق ولا يتبعونه وكفر النصارى من جهة عملهم بلا علم فهم مجتهدون في أصناف

العبادات بلا شريعة من الله ويقولون على الله ما لا يعلمون، ولهذا كان السلف كسفيان بن عيينة وغيره يقولون من فسد من علمائنا ففيه شبه من اليهود ومن فسد من عبادنا ففيه شبه من النصارى أهـ.

الباب الرابع

قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [الشورى:٣٨].

قال (ك) أي اتبعوا رسله. وأطاعوا أمره واجتنبوا زجره ﴿ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ ﴾. وهي أعظم العبادات لله عز وجل ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ ﴾. أي لا يبرمون أمرا حتى يتشاوروا فيه ليتساعدوا بآرائهم في مثل الحروب وما جرى مجراها كما قال تبارك وتعالى: ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ ﴾ الآية ولهذا كان ﷺ يشاورهم في الحروب ونحوها ليطيب بذلك قلوبهم، وهكذا لما حضرت عمر بن الخطاب الوفاة حين طعنْ جعل الأمر بعده شورى في ستة نفر وهم: عثمان، وعلى، وطلحة، والزبير، وسعد، وعبد الرحمن بن عوف فاجتمع رأي الصحابة كلهم على تقديم عثمان عليهم ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾. وذلك بالإحسان إلى خلق الله، الأقرب إليهم منهم فالأقرب.

فصل

قال محمد تقي الدين: تفسير هذه الآية في قوله تعالى في سورة الرعد رقم ١٨: ﴿ لِلَّذِينَ اسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَى وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لاَفْتَدَوْاْ بِهِ أُوْلَـئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴾.

وهؤلاء الذين لم يستجيبوا لربهم بعضهم ترك الاستجابة كفرا وجحودا وبعضهم أجاب بلسانه ولم يستجب بقلبه وعمله ومن هؤلاء المقلدون والمبتدعون كأصحاب الطرائق.

قال المحقق القنوجي في كتابه الدين الخالص ج٤ ص ٨٢ ما نصه « أكبر بلية أصيب بها المسلمون هي فتنة التقليد ».

وانظر إن كنت ممن يعتبر ما ابتليت به هذه الأمة من التقليد للأموات في دين الله حتى صارت كل طائفة تعمل في جميع مسائل الدين بقول عالم من علماء المسلمين، ولا تقبل قول غيره، ولا ترضى به وليتها وقفت عند عدم القبول والرضا لكنها تجاوزت ذلك إلى الحط على سائر علماء المسلمين، والوضع من شأنهم، وتضليلهم، وتبديعهم والتنفير عنهم، ثم تجاوزوا ذلك إلى التفسيق والتكفير، ثم زاد الشر حتى صار أهل كل مذهب كأهل ملة مستقلة، لهم نبي مستقل، وهو ذلك العالم الذي قلدوه، فليس الشرع إلا ما قاله به دون غيره، وبالغوا وغلوا فجعلوا قوله مقدمًا على قول الله ورسوله، وهل بعد هذه الفتنة والمحنة شيء من الفتن والمحن ؟

فإن أنكرت هذا، فهؤلاء المقلدون على ظهر البسيطة، قد ملأوا الأقطار الإسلامية، فاعمد إلى أهل كل مذهب، وانظر إلى مسألة من مسائل مذهبهم، هي مخالفة لكتاب الله، أو لسنة رسوله، ثم أرشدهم إلى الرجوع عنها إلى ما قاله الله ورسوله، وانظر بماذا يجيبونك ؟ فما أظنك تنجو من شرهم، ولا تأمن من مضرتهم، وقد يستحلون لذلك دمك ومالك، وأورعهم يستحل عرضك وعقوبتك، وهذا يكفيك، إن كان لك فطرة سليمة، وفكرة مستقيمة.

فانظر كيف خصوا بعض علماء المسلمين واقتدوا بهم في مسائل الدين، ورفضوا الباقين، بل جاوزوا هذه إلى أن الإجماع ينعقد بأربعة من علماء هذه الأمة، وأن الحجة قائمة بهم، مع أن في عصر كل واحد منهم، من هو أكثر علمًا منه، فضلاً عن العصر المتقدم على عصره والعصر المتأخر على عصره، وهذا يعرفه، كل من يعرف أحوال الناس.

الباب الخامس

قوله تعالى: ﴿ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۚ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴿٤٧﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ ﴾ [الشورى:٤٧، ٤٨].

قال (ك): لما ذكر تعالى ما يكون في يوم القيامة من الأهوال والأمور العظام الهائلة حذر منه وأمر بالاستعداد له فقال ﴿ **اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ** ﴾. أي إذا أمر بكونه فإنه كلمح البصر يكون ليس له دافع ولا مانع وقوله عز وجل ﴿ **مَا لَكُم مِّن مَّلْجَأٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ** ﴾ أي ليس لكم حصن تتحصنون فيه ولا مكان يستركم وتتنكرون فيه فتغيبون عن بصره تبارك وتعالى بل هو محيط بكم بعلمه وبصره وقدرته فلا ملجأ منه إلا إليه ﴿ **يَقُولُ الإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ (١٠) كَلاَّ لا وَزَرَ (١١) إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ** ﴾. وقوله تعالى ﴿ **فَإِنْ أَعْرَضُوا** ﴾. يعني المشركين ﴿ **فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا** ﴾. أي لست عليهم بمصيطر وقال عز وجل ﴿ **لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاء** ﴾. وقال تعالى: ﴿ **فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ** ﴾. وقال جل وعلا هاهنا: ﴿ **إِنْ عَلَيْكَ إِلاَّ الْبَلاغ** ﴾ أي إنما كلفناك أن تبلغهم رسالة الله إليهم ثم قال تبارك وتعالى ﴿ **وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا** ﴾ أي إذا أصابه رخاء ونعمة فرح بذلك ﴿ **وَإِن تُصِبْهُمْ** ﴾ يعني « الناس » ﴿ **سَيِّئَةٌ** ﴾ الجدب ونقمة وبلاء وشدة ﴿ **فَإِنَّ الإِنسَانَ كَفُورٌ** ﴾ أي يجحد ما تقدم من النعم ولا يعرف إلا الساعة الراهنة فإن إصابته نعمة أشر وبطر وإن صابته محنة يئس وقنط كما قال رسول ﷺ وسلم للنساء: « يا معشر النساء تصدقن فإني رأيتكن أكثر أهل النار » فقالت امرأة: ولم يا رسول الله ؟ فقال ﷺ: «لأنكن تكثرن الشكاية وتكفرن العشير، لو أحسنت إلى إحداهن الدهر ثم تركت يومًا قالت: ما رأيت منك خير قط». وهذا حال أكثر النساء إلا من هداه الله تعالى وألهمه رشده وكان من الذين آمنوا وعملوا الصالحات فالمؤمن كما قال ﷺ: « إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن ».

فصل

قال محمد تقي الدين: كل من أعرض عن كتاب الله وسنة رسوله فإنه لم يستجب لربه وهو متعرض للمصائب كما تقدم في سورة النساء ﴿ **فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ** ﴾ ونحن نرى اليوم هذه الشعوب التي استجاب أسلافها لربهم فأطاعوا الله

ورسوله وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر لما أعرضوا عن كتاب الله وسنة رسوله أصابتهم مصائب شتى وهم يقاسونها ويعذبون بها ولم يهتدوا سبيلا إلى التخلص منها بالرجوع إلى كتاب الله وسنة رسول الله بل هم مستمرون في ضلالتهم ومن أسباب إعراضهم عن الكتاب والسنة، التقليد والتعصب وإتباع الطرائق القدد.

قال المحقق القنوجي في الدين الخالص ما نصه:

ثم تجاوزوا في ذلك إلى أنه لا اجتهاد لغيرهم، بل هو مقصور عليهم، فكأن هذه الشريعة كانت لهم، لاحظ لغيرهم فيها، ولم يتفضل الله على عباده بما تفضل عليهم، وكل عاقل يعلم أن هذه المزايا التي جعلوها لهؤلاء الأئمة رحمهم الله تعالى، إن كانت باعتبار كثرة علمهم وزيادة على علم غيرهم، فهذا مدفوع عند كل من له إطلاع على أحوالهم وأحوال غيرهم، فإن في إتباع كل واحد منهم، من هو أعلم منه، لا ينكر هذا إلا مكابر أو جاهل، فكيف بمن لم يكن من أتباعهم من المعاصرين لهم والمتقدمين عليهم، والمتأخرين عنهم ؟

وإن كانت تلك المزايا بكثرة الورع والعبادة فالأمر كما تقدم، فإن في معاصريهم، والمتقدمين عليهم، والمتأخرين عنهم من هو أكثر عبادة وورعًا منهم، لا ينكر هذا إلا من لا يعرف تراجم الناس بكتب التواريخ.

وإن كانت تلك المزايا بتقدم عصورهم فالصحابة والتابعون، أقدم منهم عصرًا بلا خلاف، وهم أحق بهذه المزايا ممن بعدهم لحديث: « خير القرون قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم ».

وإن كانت تلك المزايا لأمر عقلي، فما و ؟ أو لأمر شرعي، فأين هو ؟ ولا ننكر أن الله قد جعلهم بمحل من العلم والورع، وصلابة الدين، وأنهم من أهل السبق في الفضائل والفواضل، ولكن الشأن في المتعصب لهم من أتباعهم القائلين أنه لا يجوز تقليد غيرهم، ولا يعتد بخلافه إن خالف، ولا يجوز لأحد من علماء المسلمين أن يخرج عن تقليدهم، وإن كان عارفًا بكتاب الله وسنة رسوله، قادرًا على العمل بما فيهما متمكنًا من استخراج المسائل الشرعية منهما.

فلم يكن مقصودنا إلا التعجب لمن كان له عقل صحيح وفكر رجيح، وتهوين الأمر عليه فيما نحن بصدده من الكلام على ما يفعله المعتقدون للأموات، وأنه لا يغتر العاقل بالكثرة، وطول المهلة مع الغفلة، فإن ذلك لو كان دليلاً على الحق، لكان ما زعمه المقلدون المذكورون حقًا، ولكان ما يفعله المعتقدون للأموات حقًا.

الباب السادس

قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلۡأُمُورُ ﴾ [الشورى:٥٢، ٥٣].

قال (ك) يعني: القرآن ﴿ **مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ** ﴾ أي على التفصيل الذي شرع لك في القرآن ﴿ **وَلَكِن جَعَلْنَاهُ** ﴾ أي القرآن و﴿ **نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاء مِنْ عِبَادِنَا** ﴾ كقوله تعالى: ﴿ **قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاء وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى** ﴾. الآية وقوله تعالى: ﴿ **وَإِنَّكَ** ﴾ يا محمد ﴿ **لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ** ﴾ وهو الحق القويم ثم فسره بقوله تعالى: ﴿ **صِرَاطِ اللَّهِ** ﴾ أي ربهما ومالكهما والمتصرف فيهما والحاكم الذي لا معقب لحكمه ﴿ **أَلا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الأُمُورُ** ﴾ أي ترجع الأمور فيفصلها ويحكم فيها سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون والجاحدون علوًا كبيرًا.

فصل

قال محمد تقي الدين: أوحى الله هذه الروح الذي هو القرآن به حياة من اتبعه وبتركه موت من تركه وقد بلغه النبي ﷺ إلينا بأقواله وأفعاله وأخلاقه فقامت علينا حجة الله وجعله نورًا يهدي به من اتبعه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم ومن لم يتبع القرآن والسنة فقد خرج عن صراط الله وصار كل ما في السموات والأرض أعداء له ولله جنود السموات والأرض.

قال المحقق القنوجي في الدين الخالص ما نصه ج٤ ص٣٠٨.

بيان تلاعب المقلدين بالنصوص وتأويلها حسب مشتهياتهم تعصبًا لمذاهبهم ولنذكر من هذا طرفًا فإنه من عجيب أمرهم، فاحتج طائفة منهم: في سلب طهورية الماء المستعمل في رفع الحدث. بأن النبي ﷺ نهى أن يتوضأ الرجل بفضل وضوء المرأة والمرأة بفضل وضوء الرجل، وقالوا: الماء المنفصل عن أعضائهما هو فضل وضوئهما، وخالفوا نفس الحديث، فجوزوا لكل منهما أن يتوضأ بفضل طهور الآخر، وهو المقصود بالحديث، فإنه نهى أن يتوضأ الرجل بفضل وضوء المرأة إذا خلت بالماء، وليس عندهم للخلوة أثر، ولا لكون الفضلة فضلة امرأة، أثر، فخالفوا نفس الحديث الذي احتجوا به، وحملوا الحديث على غير محله، إذ فضل الوضوء — بيقين — هو الماء الذي فضل منه، ليس هو الماء المتوضأ به فإن ذلك لا يقال له، فضل الوضوء.

فاحتجوا به فيما لم يرد به، وأبطلوا الاحتجاج به فيما أريد به، ومن ذلك، احتجاجهم على نجاسة الماء بالملاقاة وإن لم يتغير، بنهيه ﷺ أن يبال في الماء الدائم.

ثم قالوا: لو بال في الماء الدائم، لم ينجسه حتى ينقص عن قلتين، واحتجوا على نجاسته أيضًا بقوله ﷺ: « إذا استيقظ أحدكم من نومه فلا يغمس يده في الإناء حتى يغسلها ثلاثًا ».

ثم قالوا: لو غمسها قبل غسلها، لم يتنجس الماء ولا يجب عليه غسلها، وإن شاء أن يغمسها قبل الغسل فعل.

واحتجوا في هذه المسألة، بأن النبي ﷺ أمر بحفر الأرض التي بال فيها البائل وإخراج ترابها. ثم قالوا: لا يجب حفرها. بل لو تركت حتى يبست بالشمس والريح طهرت واحتجوا على منع الوضوء بالماء المستعمل، بقوله ﷺ: « يا بني عبد المطلب إن الله كره لكم غسالة أيدي الناس » « يعني الزكاة » ثم قالوا: لا تحرم الزكاة على بني عبد المطلب.

واحتجوا على أن السمك الطافي إذا وقع في الماء ينجسه بخلاف غيره من ميتة البحر، فإنه ينجس الماء بقوله ﷺ في البحر: « هو الطهور ماؤه، الحل ميتته ».

ثم قالوا هذا الخبر بعينه، وقالوا: لا يحل ما مات في البحر من السمك ولا يحل شيء مما فيه أصلاً غير السمك.

واحتج أهل الرأي على نجاسة الكلب وولوغه بقوله ﷺ: « إذا ولغ الكلب في إناء أحدكم فليغسله سبع مرات » ثم قالوا: لا يجب غسله سبعًا بل يغسله مرة ومنهم من قال: ثلاثًا. واحتجوا على تفريقهم في النجاسة المغلظة بين قدر الدرهم وغيره بحديث لا يصح، من طريق غطيف عن الزهري عن أبي سلمة وعن أبي هريرة يرفعه: « تعاد الصلاة من قدر الدرهم ».

ثم قالوا: لا تعاد الصلاة من قدر الدرهم، ثم احتجوا بحديث عمرو بن حزم أن ما زاد على مائتي درهم فلا شيء فيه حتى يبلغ أربعين، فيكون فيها درهم، وخالفوا الحديث بعينه في نص ما فيه، في أكثر من خمسة عشر موضعًا.

واحتجوا على أن الخيار لا يكون أكثر من ثلاثة أيام بحديث المصراة، وهذا من إحدى العجائب، فإنهم من أشد الناس إنكارًا له، ولا يقولون به، فإن كان حقًا، وجب اتباعه، وإن لم يكن صحيحًا لم يجز الاحتجاج به في تقدير الثلاث، مع أنه ليس في الحديث تعرض لخيار الشرط، فالذي أريد بالحديث ودل عليه، خالفوه، والذي احتجوا عليه به، لم يدل عليه.

واحتجوا لهذه المسألة أيضًا بحديث حبان بن منقذ الذي كان يغبن في البيع، فجعل له النبي ﷺ الخيار ثلاثة أيام، وخالفوا الخبر كله. فلم يثبتوا الخيار بالغبن ولو كان يساوي عشر معشار ما بذله فيه، وسواء قال المشتري « لا خلابة » أو لم يقل، وسواء غبن قليلاً أو كثيرًا، لا خيار له في ذلك.

ثم مضى إلى أن عد ثلاثة وخمسين حديثًا كلها خالف مدلولها المتمذهبون واحتجوا بها فيما لا تدل عليه وذلك غاية في التناقض وإتباع الهوى.

سورة الزخرف

الباب الأول

قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ

لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴾ [الزخرف:٣٦-٣٨].

قال (ك) يقول تعالى: ﴿ وَمَن يَعْشُ ﴾ أي تعامي ويتغافل ويعرض ﴿ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ ﴾ والعشا في العين ضعف بصرها، والمراد ههنا عشا البصيرة ﴿ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴾ كقوله تعالى: ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى ﴾ الآية وكقوله: ﴿ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ وكقوله جل جلاله: ﴿ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاء فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ الآية ولهذا قال تبارك وتعالى ههنا: ﴿ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ (٣٧) حَتَّى إِذَا جَاءنَا ﴾ أي هذا الذي تغافل عن الهدى فقيض له من الشياطين من يضله ويهديه إلى صراط الجحيم، فإذا وافي الله عز وجل يوم القيامة يتبرأ من الشيطان الذي وكل به ﴿ قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ ﴾ وقرأ بعضهم حتى إذا جاءانا. يعني القرين والمقارن قال عبد الرزاق أخبرنا معمر عن سعيد الجريري قال: بلغنا أن الكافر إذا بعث من قبره يوم القيامة شفع بيده شيطان لم يفارقه حتى يصيرهما الله تبارك وتعالى إلى النار فذلك حين يقول: ﴿ قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ ﴾ والمراد بالمشرقين ههنا ما بين المشرق والمغرب وإنما استعمل ههنا تغليبا كما يقال: القمران والعمران والأبوان، قاله (ج) وغيره.

فصل

قال محمد تقي الدين: ذكر الرحمن هو القرآن من أعرض عنه أو عن السنة المبينة له يقيض الله له شيطانًا يزين له الإعراض ولا يزال معه يمنعه من الاهتداء إلى أن يموت على الضلال وهو يحسب أنه مهتد بتزيين شياطين الإنس والجن وكل من اختار التقليد وعمي عن الحجة فإنه يخشى عليه من هذا الوعيد لأن إتباع الذكر يمنع من التقليد والتعصب والتمذهب وكل بدعة في دين الله.

قال المحقق القنوجي في الدين الخالص ج٤ ص٣٢٣ ما نصه:

رجوع إلى ذكر بقية الوجوه من الأدلة العقلية والنقلية على بطلان التقليد.

الوجه العشرون: أن فرقة التقليد قد ارتكبت مخالفة أمر الله وأمر رسوله، وهدى أصحابه، وأحوال أئمتهم وسلكوا ضد طريق أهل العلم، أما أمر الله، فإنه أمر برد ما تنازع فيه المسلمون إليه وإلى رسوله والمقلدون قالوا: إنما نرده إلى من قلدناه.

وأما أمر رسوله، فإنه ﷺ أمر – عند الاختلاف – بالأخذ بسنته وسنة خلفائه الراشدين المهديين، وأمر أن يتمسك بها، ويعض عليها بالنواجذ.

وقال المقلدون: بل عند الاختلاف نتمسك بقول من قلدناه ونقدمه على كل ما عداه.

وأما هدي الصحابة فمن المعلوم – بالضرورة – أنه لم يكن فيهم شخص واحد يقلد رجلاً في جميع أقواله، ويخالف من عداه من الصحابة، بحيث لا يرد من أقواله شيئًا، ولا يقبل من أقوالهم شيئًا، وهذا من أعظم البدع، وأقبح الحوادث. وأما مخالفتهم لأئمتهم، فإن الأئمة نهوا عن تقليدهم، وحذروا منه كما تقدم ذكر بعض ذلك عنهم.

وأما سلوكهم ضد طريق أهل العلم، فإن طريقهم طلب أقوال العلماء وضبطها، والنظر فيها وعرضها على القرآن والسنن الثابتة عن رسول الله ﷺ وأقوال خلفائه الراشدين.

فما وافق ذاك منها، قبلوه ودانوا الله به وقضوا به وأفتوا به وما خالف ذلك منها، لم يلتفتوا إليه، وردوه.

وما لم يتبين لهم، كان عندهم من مسائل الاجتهاد، التي غايتها أن تكون سائغة الاتباع لا واجبة الإتباع من غير أن يلزموا بها أحدًا، ولا يقولوا: إنها الحق دون ما خالفها. هذه طريقة أهل العلم سلفنا وخلفنا.

سورة الدخان

الباب الأول

قوله تعالى: ﴿ فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ۝١٠ يَغْشَى ٱلنَّاسَ ۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١١ رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ۝١٢ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ۝١٣ ثُمَّ تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ۝١٤ إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا ۚ إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ۝١٥ يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴾ [الدخان: ١٠-١٦].

وفي الجلالين ﴿ فَارْتَقِبْ ﴾ لهم. ﴿ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴾ فأجدبت الأرض واشتد بهم الجوع إلى أن رأوا من شدته كهيئة الدخان بين السماء والأرض ﴿ يَغْشَى النَّاسَ ﴾ فقالوا: ﴿ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴾ مصدقون نبيك قال تعالى: ﴿ أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى ﴾ أي لا ينفعهم الإيمان عند نزول العذاب ﴿ وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴾ بين الرسالة ﴿ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴾ أي يعلمه القرآن بشر ﴿ مَّجْنُونٌ إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ ﴾ أي الجوع عنكم زمنًا ﴿ قَلِيلاً ﴾ فكشف عنهم ﴿ إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ﴾ إلى كفركم فعادوا إليه اذكر ﴿ يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى ﴾ هو يوم بدر ﴿ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴾ منهم والبطش الأخذ بقوة.

فصل

قال محمد تقي الدين: عاقب الله قريشًا بالجدب والقحط لأنهم لم يتبعوا رسوله ولا قبلوا كتابه ثم عاقبهم بالقتل والهزيمة في غزوة بدر وكانت العقوبة الثالثة وهي الأخيرة غزوة الفتح فيها جاء نصر الله وخسر حزب الشيطان وكسرت قرون الكفر وخضع أبو سفيان ورهطه وقد ضمن الله سبحانه وتعالى لكل من بلغه الإنذار بالقرآن والسنة وردهما وأعرض عنهما واستكبر عن اتباعهما وابتغى الهدي في غيرهما ضمن الله له شقاء الدارين وتمام الخسارتين لا يشك في هذا عاقل منصف وإن كان من أبعد الناس عن الإسلام ولا يكشف عنهم هذا العذاب إلا بالرجوع إلى القرآن والله عزيز ذو انتقام اهـ.

قال المحقق القنوجي في الدين الخالص ج٤ ص٣٢٤، ما نصه: الوجه الحادي والعشرون.. إن الله سبحانه ذم ﴿ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾. وهؤلاء هم أهل التقليد بأعيانهم بخلاف أهل العلم، فإنهم – وإن اختلفوا – لم يفرقوا دينهم، ولم يكونوا شيعًا، بل شيعة واحدة، متفقة على طلب الحق، وإيثاره عند ظهوره، وتقديمه على كل ما سواه.

فهم طائفة واحدة، قد اتفقت مقاصدهم وطريقتهم، فالطريق واحد، والقصد واحد.

والمقلدون بالعكس، مقاصدهم شتى، وطرقهم مختلفة، فليسوا مع الأئمة في القصد ولا في الطريق.

الوجه الثاني والعشرون: أن الله سبحانه ذم الذين تقطعوا أمرهم بينهم زبرا، كل حزب بما لديهم فرحون، « والزبر »: الكتب المصنفة، التي رغبوا بها عن كتاب الله، وما بعث به رسوله، فقال تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٥١) وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ (٥٢) فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ** ﴾.

فأمر تعالى الرسل بما أمر به أممهم وأن يأكلوا من الطيبات، وأن يعملوا صالحًا، وأن يعبدوه وحده، ويطيعوا أمره وحده، وأن لا يتفرقوا في الدين.

فمضت الرسل وأتباعهم على ذلك ممتثلين لأمر الله، قابلين لرحمته حتى نشأت خلوف تقطعوا أمرهم بينهم زبرا، كل حزب بما لديهم فرحون فمن تدبر هذه الآيات، ونزلها على الواقع، تبين له حقيقة الحال، وعلم من أي الحزبين هو، والله المستعان.

الباب الثاني

قوله تعالى: ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ فَارْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ﴾ [الدخان:٥٨، ٥٩].

قال (ك): أي إنما يسرنا هذا القرآن الذي أنزلناه سهلاً واضحًا بينًا جليًا بلسانك الذي هو أفصح اللغات وأحلاها وأعلاها ﴿ **لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ** ﴾ أي يتفهمون ويعلمون، ثم لما كان مع هذا الوضوح والبيان من الناس من كفر وخالف وعاند قال تعالى لرسوله ﷺ مسليًا له وواعدًا له بالنصر ومتوعدًا لمن كذبه بالغضب والهلاك ﴿ **فَارْتَقِبْ** ﴾ أي انتظر ﴿ **إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ** ﴾ أي فسيعلمون لمن تكون النصرة والظفر وعلو الكلمة في الدنيا والآخرة فإنها لك يا محمد ولإخوانك من النبيين والمرسلين ومن اتبعكم من المؤمنين كما قال تعالى ﴿ **كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي** ﴾ الآية وقال تعالى: ﴿ **إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ (٥١) يَوْمَ لا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ** ﴾.

فصل

قال محمد تقي الدين: قد أجاد الحافظ (ك) في تفسير الآيتين وفيهما فوائد:

الأولى:

أن الله يسر القرآن وسهله قراءة وحفظًا وفهمًا وسهل العمل به والحكم به والدعوة إليه وتعليمه ونشره وقد ادعى المقلدون المتفرقون في دينهم خلاف ذلك وزعموا أنه لا يفهم حتى قالوا قولتهم الشنيعة صوابه خطأ، وخطأه كفر واشتروا بآيات الله ثمنًا قليلاً فصدوا عن سبيله أنهم ساء ما كانوا يعملون وجعلوا القرآن مقصورًا على قراءته للتبرك بلا تدبر ولا فهم ولا عمل ولا تحكيم ولا إتباع وعلى قراءته على القبور وإهداء ثوابه للأموات والسحر به فلذلك أخذهم الله بذنوبهم وسلبهم نعمه وعذبهم في هذه الدنيا عذابًا مهينًا ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون.

الثانية:

أن الغرض من إنزاله التذكر والعمل والتحكيم واتخاذه إمامًا والتأدب والتخلق به ولم يفعلوا شيئًا من ذلك.

الثالثة:

أن كل من أعرض عنه يرتقب عذاب الله في الدنيا والآخرة وما لهم من ولي ولا نصير ومن اتبعه واستضاء بنوره يرتقب نصر الله ورحمته في الدنيا والآخرة وتكون لهم العاقبة كما قال الحافظ (ك) رحمه الله.

ثم قال المحقق القنوجي رحمه الله ج٤ ص٣٢٥ ما نصه:

الوجه الثالث والعشرون: أن الله سبحانه قال: ﴿ **وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** ﴾. فخص هؤلاء بالفلاح دون من عداهم. والداعون إلى الخير هم الداعون إلى كتاب الله وسنة رسوله، لا الداعون إلى رأي فلان.

الوجه الرابع والعشرون: أن الله سبحانه ذم من إذا دعي إلى الله ورسوله أعرض ورضي بالتحاكم إلى غيره، وهذا شأن أهل التقليد.

قال تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴾.

فكل من أعرض عن الداعي له إلى ما أنزل الله وإلى رسوله إلى غيره، فله نصيب من هذا الذم. فمستكثر ومستقل.

الوجه الخامس والعشرون: أن يقال لفرقة التقليد – دين الله – عندكم قول واحد، أو في القول وضده.

فدينه هو الأقوال المتضادة التي ينقض بعضها بعضًا، ويبطل بعضها بعضا، كلها دين الله؟

فإن قال: بل هذه الأقوال المتضادة المتعارضة، التي يناقض بعضها بعضًا كلها دين الله، خرجوا على نصوص أئمتهم، فإن جميعهم على أن الحق في واحد من الأقوال، كما أن القبلة في جهة من الجهات.

وخرجوا عن نصوص القرآن، والسنة، والمعقول الصريح، وجعلوا دين الله تابعًا لآراء الرجال.

وإن قالوا: الصواب الذي لا صواب غيره، أن دين الله واحد، وهو ما أنزل الله به كتابه وأرسل به رسله، وارتضاه لعباده كما أن نبيه واحد، وقبلته واحدة فمن وافقه فهو المصيب وله أجران، ومن أخطأ فله أجر واحد على اجتهاده، لا على خطئه.

قيل لهم: فالواجب إذا طلب الحق، وبذل الاجتهاد في الوصول إليه بحسب الإمكان، لأن الله سبحانه أوجب على الخلق تقواه، بحسب الاستطاعة وتقواه فعل ما أمر به وترك ما نهى عنه.

فلابد أن يعرف العبد ما أمر به ليفعله، وما نهى عنه ليجتنبه، وما أبيح له ليأتيه.

وهذا، لا يكون إلا بنوع اجتهاد، وطلب، وتحر للحق، فإذا لم يأت بذلك فهو في عهدة الأمر ويلقي الله، ولما يقض ما أمره.

سورة الجاثية

الباب الأول

قوله تعالى: ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ۝ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۝ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝ مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ ۖ وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟ شَيْـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝ هَٰذَا هُدًى ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴾ [الجاثية:٦-١١].

قال (ك): يقول تعالى: ﴿ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ ﴾. يعني القرآن بما فيه من الحجج والبينات ﴿ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ ﴾. أي متضمنة الحق فإذا كانوا لا يؤمنون بها ولا ينقادون لها ﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ ﴾ ؟ ثم قال تعالى ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴾. أي أفاك في قوله كذاب حلاف مهين ﴿ أَثِيمٍ ﴾. في فعله وقلبه كافر بآيات الله ولهذا قال ﴿ يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ﴾. أي تقرأ عليه ﴿ ثُمَّ يُصِرُّ ﴾. أي على كفره وجحوده استكبارا وعنادا ﴿ كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ﴾. أي كأنه ما سمعها ﴿ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾. أي فأخبره أن له عند الله تعالى يوم القيامة عذابا أليما موجعا ﴿ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا ﴾ أي إذا حفظ شيئا من القرآن كفر به واتخذه سخريا وهزوا ﴿ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾. أي مقابل ما استهان بالقرآن واستهزأ به ولهذا روى مسلم في صحيحه عن ابن عمر قال نهي رسول الله ﷺ أن يسافر بالقرآن إلى أرض العدو مخافة أن يناله العدو ؛ ثم فسر العذاب الحاصل له يوم معاده فقال: ﴿ مِن وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ ﴾ أي كل من اتصف بذلك سيصير إلى جهنم يوم القيامة ﴿ وَلَا يُغْنِي عَنْهُم مَّا كَسَبُوا شَيْئًا ﴾. أي لا تنفعهم أموالهم ولا أولادهم ﴿ وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاء ﴾. أي ولا تغني عنهم الآلهة التي عبدوها من دون الله شيئا ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ

عَظِيمٌ ﴾ ثم قال تبارك وتعالى ﴿ هَذَا هُدًى ﴾. يعني القرآن ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴾ وهو المؤلم الموجع والله سبحانه وتعالى أعلم.

فصل

قال محمد تقي الدين: هذه الشعوب التي تدعي الإسلام قد نبذت كتاب الله وراء ظهورها وآمنت بالتشبه بالأجانب واتخاذهم أربابا واقتباس قوانينهم وعاداتهم فما زادتهم إلا خبالا فهم أحقر الناس وأخسر الناس وأفقر الناس وإن كانت الأموال الكثيرة بأيديهم فهم كما قال الشاعر:

كالعيس في البيداء يقتلها الظما والماء فوق ظهورها محمول

بل كما قال الله تعالى: ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ﴾. فإسفار العلم فيها الهدى والنور وفيها الحياة والرفعة والعيشة الراضية ولكن الحمار إذا حملها لا تصل إلى قلبه ولا يناله منها إلا الثقل والعناء فهذا القرآن الذي أحيا الله به شعوبا ورفعهم من حضيض الهوان إلى أوج العزة والسعادة مهجور عند هؤلاء منبوذ لا يستضاء بنوره ولا ينتفع بحكمه ولا يستفاد من أحكامه فأعجبوا يا أولي الأبصار ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى ﴾. لكان هذا القرآن ولكن إنما ينذر به من كان حيا ويحق القول على الكافرين ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾. فقلوبهم أقسى من الحجارة صم بكم عمى فهم لا يفقهون ثم قال المحقق القنوحي في الدين الخالص ج٤ ص ٣٢٧ ما نصه:

الوجه السادس والعشرون: إن دعوة الرسول ﷺ عامة لمن كان في عصره، ولمن يأتي بعده إلى يوم القيامة.

والواجب على من بعد الصحابة، هو الواجب عليهم بعينه، وأن تنوعت صفاته وكيفياته، باختلاف الأحوال. ومن المعلوم – بالإضطرار – أن الصحابة لم يكونوا يعرضون ما يسمعون منه ﷺ على أقوال علمائهم بل لم يكن لعلمائهم قول غير قوله، ولم يكن أحد

منهم يتوقف في قبول ما سمعه منه على موافقة موافق أو رأي ذي رأي أصلا، وكان هذا هو الواجب الذي لا يتم الإيمان إلا به.

وهو- بعينه – الواجب علينا وعلى سائر المكلفين إلى يوم القيامة. ومعلوم أن هذا الواجب لم ينسخ بعد موته ولا هو مختص بالصحابة، فمن خرج عن ذلك، فقد خرج عن نفس ما أوجبه الله ورسوله.

الباب الثاني

قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الجاثية:١٨].

أي اتبع ما أوحى إليك من ربك لا إله إلا هو وأعرض عن المشركين وقال جل جلاله ههنا: ﴿ **وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاء الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ (١٨) إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ** ﴾. أي وماذا تغني عنهم ولايتهم لبعضهم بعضا فإنهم لا يزيدونهم إلا خسارا ودمارا وهلاكا ﴿ **وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ** ﴾. وهو تعالى يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات.

فصل

قال محمد تقي الدين: تقدم في كلام ابن القيم الكلام في هذه الآية ونظائرها وبين بغاية الوضوح أنهما أمران لا ثالث لهما إما إتباع الوحي وإما إتباع الهوى والتقليد ليس من إتباع الوحي يقينًا فهو إذا من إتباع الهوى وإتباع الهوى ضلال والله ولي المتقين والمتقون لا يفتون ولا يقضون بالتقليد أبدًا.

ثم قال صاحب الدين الخالص في ٤ ص٣٢٧ ما نصه:

الوجه السابع والعشرون: أن أقوال العلماء وآراءهم لا تنضبط، ولا تنحصر، ولم يضمن لها العصمة إلا إذا اتفقوا ولم يختلفوا فلا يكون اتفاقهم إلا حقًا، ومن المحال أن يحيلنا الله ورسوله على ما لا ينضبط، ولا ينحصر ولم يضمن لنا عصمته من الخطأ، ولم يقم لنا دليلاً على أن أحد القائلين أولى أن نأخذ قوله كله من الآخر، بل يترك قول هذا كله ويؤخذ قول

هذا كله، محال أن يشرعه الله، أو يرضى به إلا إذا كان أحد القائلين رسولا، والآخر كاذبًا على الله. فالفرض حينئذ مما يعتمده هؤلاء المقلدون مع متبوعهم.

سورة الأحقاف

الباب الأول

قوله تعالى: ﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ۚ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ۝ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴾ [الأحقاف:٩-١٢].

قال (ك): وقوله تعالى: ﴿ **قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنْ الرُّسُلِ** ﴾ أي ما أنا بأول رسول، وقوله تعالى: ﴿ **وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلا بِكُمْ** ﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس، وكذا قال عكرمة والحسن وقتادة، أنها منسوخة بقوله تعالى: ﴿ **لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ** ﴾.

فأما الحديث الذي رواه الإمام أحمد عن أم العلاء قالت: (اشتكى عثمان بن مظعون عندنا فمرضناه حتى إذا توفي أدرجناه في أثوابه فدخل علينا رسول الله ﷺ فقلت رحمة الله عليك أبا السائب شهادتي عليك لقد أكرمك الله عز وجل فقال رسول الله ﷺ وما يدريك أن الله تعالى أكرمه ؟ فقلت: لا أدري بأبي أنت وأمي فقال رسول الله ﷺ: أما هو فقد جاءه اليقين من ربه وإني لأرجو له الخير والله ما أدري ما يفعل بي. قالت: فقلت والله لا أزكي أحدًا بعده أبدًا، وأحزنني ذلك فنمت فرأيت لعثمان عينًا تجري فجئت إلى رسول الله ﷺ فأخبرته بذلك فقال رسول الله ﷺ: ذلك عمله). أخرجه البخاري وفي لفظ له: « وما أرى وأنا رسول الله ﷺ ما يفعل به » وهذا أشبه أن يكون هو المحفوظ بدليل قولها فأحزنني ذلك

وفي هذا الحديث وأمثاله دلالة على أنه لا يقطع لمعين بالجنة إلا الذي نص الشارع الحكيم على تعيينه كالعشرة، وابن سلام والغميماء وبلال وسراقة، وعبد الله والد جابر ابن عبد الله والقراء السبعين الذين قتلوا ببئر معونة وزيد بن حارثة وجعفر، وابن رواحة وما أشبه هؤلاء وقوله تعالى: ﴿ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ أي ما اتبع إلا ما ينزل على من الوحي، وما أنا إلا مبلغ عن ربي من النذارة الواضحة لكل ذي عقل والله أعلم. وقوله تعالى: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِ ﴾. إلى قوله: ﴿ الْمُحْسِنِينَ ﴾. قال (ك) يقول تعالى: ﴿ قُلْ ﴾ يا محمد للكافرين بالقرآن ﴿ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ ﴾ القرآن ﴿ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِ ﴾ ما ظنكم أن الله صانع بكم ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ من بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ وهو عبد الله بن سلام ﴿ عَلَى مِثْلِهِ ﴾ أي على مثل ما في التوراة بصدق القرآن لمعرفته بحقيقته من التوراة ﴿ فَآمَنَ ﴾ أي هذا الشاهد بنبيه وكتابه ﴿ وَاسْتَكْبَرْتُمْ ﴾ أنتم عن إتباع القرآن فكفرتم بنبيكم وكتابكم رواه مالك عن سعد قال: ما سمعت رسول الله ﷺ يقول لأحد يمشي على وجه الأرض أنه من أهل الجنة إلا لعبد الله بن سلام قال وفيه نزلت وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله رواه البخاري ومسلم وقال ابن عباس وجماعة ومن التابعين أنه عبد الله بن سلام وقوله تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ ﴾ أي قال الكفار لو كان في القرآن خيرًا ما سبق إليه أمثال المستضعفين كعمار وبلال وصهيب وخباب وأشباههم من المستضعفين والعبيد والإماء كقوله تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولواْ أَهَـؤُلاء مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا ﴾ أي يتعجبون كيف اهتدى هؤلاء دونهم لأنهم يعتقدون في أنفسهم أنهم وجيهون عند الله وله بهم عناية وهذا هو الخطأ الفاحش، الذي دعاهم يقولون: ﴿ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ ﴾. وأما أهل السنة والجماعة فيقولون كل فعل وقول لم يثبت عن الصحابة هو بدعة لأنه لو كان خيرًا سبقونا إليه لأنهم لم يتركوا خصلة من خصال الخير إلا وقد بادروا إليها وقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ ﴾ أي بالقرآن ﴿ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴾ كذب قديم أي مأثور عن الناس الأقدمين ينتقصون القرآن وأهله وهذا هو الكبر الذي حدث عنه رسول الله ﷺ: «بطر الحق وغمط الناس» ثم قال تعالى: ﴿ وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى ﴾ وهي التوراة. ﴿ إِمَامًا وَرَحْمَةً ﴾ للناس ﴿ وَهَذَا كِتَابٌ ﴾

يعني القرآن مصدق أي لما قبله من الكتب ﴿ لِّسَانًا عَرَبِيًّا ﴾ أي فصيحًا بينًا واضحًا ﴿ لِّيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ ﴾ أي مشتمل على النذارة للكافرين والبشارة للمؤمنين.

فصل

قال محمد تقي الدين: إن قوله تعالى: ﴿ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلا بِكُمْ ﴾. منسوخة بقوله تعالى ﴿ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ ﴾، مشكل لأن الأخبار لا يدخلها النسخ إذ كلها صادقة والصواب أن يقال: « ما أدري ما يفعل بي ولا بكم » من أمور الدنيا كالإخراج من الوطن والحبس والقتل والنصر والهزيمة فهي محكمة على هذا الوجه.

أما حديث عثمان بن مظعون فالرواية الصحيحة هي رواية ما أدري ما يفعل به كما أشار إليه بعض المفسرين.

قوله: « وأما أهل السنة إلى آخره » يقتضي أن يكون أصحاب الطرائق وعباد القبور والمتخذون المذاهب من المبتدعين ويؤيده قول مالك إمام دار الهجرة من ابتدع في الإسلام بدعة يراها حسنة فقد زعم أن محمدًا ﷺ خان الرسالة لأني سمعت الله يقول: اليوم أكملت لكم دينكم وما لم يكن يومئذ دينًا لا يكون اليوم دينا..

الباب الثاني

قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُواْ يَـٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَـٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَـٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأحقاف:٢٩-٣٢].

وفي الجلالين قوله (و) اذكر ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا ﴾. وجهنا إليك نفرا من جن نصيبين باليمن أو جن نينوي وكانوا سبعة أو تسعة وكان ﷺ ببطن نخلة يصلي بأصحابه الفجر.

رواه الشيخان ﴿ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا ﴾. أي قال بعضهم لبعض ﴿ أَنصِتُوا ﴾. اصغوا لاستماعه ﴿ فَلَمَّا قُضِيَ ﴾. فرغ من قراءته ﴿ وَلَّوْا ﴾. رجعوا ﴿ إِلَى قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴾. مخوفين قومهم العذاب إن لم يؤمنوا وكانوا يهودًا وقد أسلموا ﴿ قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا ﴾. هو القرآن ﴿ أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾. أي تقدمه كالتوراة ﴿ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ ﴾. الإسلام ﴿ وَإِلَى طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾. أي طريقه ﴿ يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ ﴾. محمد ﷺ إلى الإيمان ﴿ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ ﴾. الله ﴿ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ ﴾ أي بعضها لأن منها المظالم ولا تغفر إلا بردها إلى أصحابها ﴿ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾. مؤلم ﴿ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ ﴾. أي لا يعجز الله بالهرب منه فيفوته ﴿ وَلَيْسَ لَهُ ﴾. لمن لا يجيب ﴿ مِن دُونِهِ ﴾. أي الله ﴿ أَوْلِيَاءُ ﴾. أنصار يدفعون عنه العذاب ﴿ أُولَٰئِكَ ﴾. الذين لم يجيبوا ﴿ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾. ظاهر.

فصل

قال محمد تقي الدين: نصيبين ليست من اليمن وقد أشار إلى ذلك الجمل بقوله « قوله من اليمن » هذا أحد قولين والذي في شرح المواهب أنها بالجزيرة وهي بين الشام والعراق أهـ.

ونفهم من هذه الآيات أن كل من أجاب داعي الله محمد رسول الله ﷺ وتلقاه بالإيمان والنصرة يغفر له الله سبحانه من ذنوبه ويجيره من عذاب أليم في الدنيا والآخرة ومن لا يجب داعي الله يقصمه الله ولا يجد وليًا ولا نصيرًا والمقلدون لا يجيبون داعي الله بل يجتهدون في رد ما جاء به ويركبون في ذلك الصعب والذلول ومن قرأ كتبهم يعلم ذلك علم اليقين وقد تقدم نموذج من ذلك فيما نقلته من كتاب الدين الخالص وهو قليل من كثير فمن أراد التفصيل فليقرأه يرى العجب العجاب فالحمد لله على السلامة والعافية وقلت في التبرئ من المتمذهبين:.

برئت إلى الرحمن من كل مذهب … سوى مذهب المختار سؤلي ومطلبي
مدى الدهر لا أبغي بديلا به ولو … يزخرفه قوم بقول مكذب

لقد عبدوا الأوثان معنى وما دروا فباؤوا بإشراك وجهل مركب

وقال صاحب الدين الخالص ج٤ ص ٣٢٨ ما نصه:

الوجه الثامن والعشرون: أن النبي ﷺ قال: « بدأ الإسلام غريبا وسيعود غريبا كما بدأ ».

وأخبر أن العلم يقل، فلابد من وقوع ما أخبر به الصادق.

ومعلوم أن كتب المقلدين قد طبقت شرق الأرض وغربها، ولم تكن في وقت قط أكثر منها في هذا الوقت، ونحن نراها كل عام في ازدياد وكثرة، والمقلدون يحفظون منها ما يمكن حفظه بحروفه.

وشهرتها في الناس خلاف الغربة، بل هي المعروف الذي لا يعرفون غيره، فلو كانت هي العلم الذي بعث الله به رسوله، لكان الدين كل وقت في ظهور وزيادة، والعلم في شهرة وظهور وهو خلاف ما أخبر به الصادق.

سورة محمد

الباب الأول

قوله تعالى: ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُم ﴾ [محمد:١٤].

قال (ك) يقول تعالى: ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَى بَيِّنَة مِّن رَّبِّه ﴾. أي على بصيرة ويقين من الله وأمره ودينه ﴿ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِه وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءهُمْ ﴾. أي ليس هذا كهذا، كقوله تعالى: ﴿ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى ﴾.

فصل

قال محمد تقي الدين: الصحابة والتابعون والأئمة المجتهدون ومن اتبع طريقهم وهو إتباع الكتاب والسنة كان على بينة من ربه وأصحاب الفرق من المبتدعين في العقائد والمقلدين في الفروع وأصحاب الطرائق المستمدون من شيوخهم تنوير القلوب وانشراحها كل هؤلاء لم يكونوا على بينة من ربهم بل زين لهم سوء عملهم واتبعوا أهوائهم وقد تقدم مثل هذا

المعنى في مواضع.

ثم قال المحقق القنوجي في الدين الخالص ج٤ ص ٣٢٨ ما نصه:

الوجه التاسع والعشرون: أن الاختلاف كثير في كتب المقلدين وأقوالهم، وما كان من عند الله فلا اختلاف فيه، بل هو حق يصدق بعضه بعضا، ويشهد بعضه لبعض، وقد قال تعالى: ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾.

قال محمد تقي الدين: ومن المعلوم أن أصحاب المذاهب بينهم اختلاف كثير بعضهم مع بعض وفي داخل كل مذهب اختلاف كثير فلا يكون من الله تعالى وإذا لم يكن من الله تعالى فهو من إتباع الهوى كما تقدم فيما نقلته عن ابن القيم.

الباب الثاني

قوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ۙ ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ ۖ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴾ [محمد: ٢٤-٢٦].

قال (ك) يأمر تعالى بتدبر القرآن وتفهمه وناهيا عن الإعراض عنه، فقال سبحانه: ﴿ **أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا** ﴾. أي بل على قلوب إقفالها فهي مطبقة لا يخلص إليها شيء من معانيه، ثم قال تعالى ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى** ﴾. أي فارقوا الإيمان ورجعوا إلى الكفر – والعياذ بالله تعالى من سوء المنقلب – ﴿ **مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ** ﴾. أي زين لهم ذلك وحسنه ﴿ **وَأَمْلَى لَهُمْ** ﴾. أي غرهم وخدعهم ﴿ **ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ** ﴾. أي مالؤوهم ونصحوهم في الباطن وهذا شأن المنافقين يظهرون خلاف ما يبطنون » ولهذا قال جل جلاله: ﴿ **وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ** ﴾. أي ما يخفون.

فصل

قال محمد تقي الدين: ومن المعلوم إن المقلدين لا يتدبرون القرآن فقلوبهم مقفلة عنه ولو علموا معناه لا يعملون به فقد زين لهم شيطانهم إن الأحكام لا تؤخذ من القرآن وإنما تؤخذ من آراء أئمتهم ويزعمون أن أئمتهم قد مخضوا القرآن والسنة وأخرجوا زبدهما وأودعوه كتب الرأي، أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا فإن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء فلا تذهب نفسك عليهم حسرات إن الله عليم بما يصنعون.

قال المحقق القنوجي في الدين الخالص ج٤ ص ٣٢٨ ما نصه:

الوجه الثلاثون: إنه لا يجب على العبد أن يقلد زيدا دون عمرو، بل يجوز له الانتقال من تقليد هذا إلى تقليد الآخر عند المقلدين.

فإن كان قول من قلده – أولا – هو الحق لا سواه، فقد جوزتم له الانتقال عن الحق إلى خلافه وهذا محال.

وإن كان الثاني هو الحق وحده، فقد جوزتم الإقامة على خلاف الحق، وإن قلتم: القولان المتضادان المتناقضان حق، فهو أشد ضلالة، ولابدلكم من قسم من هذه الأقسام الثلاثة.

قال محمد تقي الدين: والمقلد لواحد من هذه المذاهب أما أن يكون عاقلا رشيدا كالذي يسلم. فنسأل المقلدين أي مذهب تختارونه له فلا شك لا يتفقون على اختيار أبدا بل كل فرقة منهم تقول له يجب أن تدخل في مذهبنا وتعدد له فضائله ولا تبيح له أن يدخل في مذهب آخر فيبقى متحيرا وربما رجع إلى دينه الأول لأنه إذا انضم إلى فرقة منهم أغضب الفرق الأخرى وهذا ما قال الدكتور أمبدكار زعيم المتحررين من المنبوذين في الهند فإن أصحابه الذين اقتنعوا بأن المنبوذية باطلة وأن الله تعالى أعدل وأرحم من أن يحكم على أطفال بأنهم أنجاس محرومون يجب إبعادهم وتعذيبهم منذ خروجهم من بطون أمهاتهم إلى موتهم بسبب ذنوب ارتكبتها أرواحهم في التجسدات السابقة هذا على فرض صحة عقيدة التناسخ وهي فاسدة فإن الأرواح لا تدخل الأجساد إلا مرة واحدة ثم ترجع إلى ربها لتلقي جزاء عملها أجمعت على ذلك الديانات السماوية واتفق عليه جميع الرسل والأنبياء.

سأل هؤلاء المتحررون الذين أنقذوا من المنبوذية زعيمهم الدكتور أمبدكار في أي دين ندخل الآن بعدما تحررنا من دين الهنادك فقال: لهم أفضل الأديان في نظرهم هو الإسلام ولولا اختلاف المسلمين على فرق ومذاهب لنصحت لكم أن تدخلوا في الإسلام فلم يبق لكم إلا أن تدخلوا في البدية فإنها ملة هندية خالية من عقيدة التناسخ وإن ولد في الإسلام ووجد والديه مقلدين لمذهب ومنتسبين لفرقة ومتمسكين بطريقة فإنه يتبع والديه في ضلالهم ويقول: إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على أثارهم مقتدون، وهذا ما وقع لنا معشر الحنفاء الموحدين فأنا مثلا وجدت والدي مقلد للمذهب المالكي ومنتسبا إلى الفرقة الأشعرية ومتمسكا بالطريقة الدرقاوية الشاذلية فلم يكن لي بد من اتباعه ثم انتقلت من الدرقاوية إلى التجانية وبقيت فيها مدة تسع سنين حتى لقيت شيخنا العلامة الداعي إلى الله على بصيرة محمد بن العربي العلوي في مدينة فاس سنة ١٣٣٨ هـ في ربيع الأول في اليوم -١٢- منه وهو الذي يحتفل به المبتدعون وعباد القبور أجمعون وكان عمري حينئذ ثماني وعشرين سنة وقد قرأت القرآن وحفظته وجودته وقرأت عبادات خليل ومن علم النحو درست الآجرومية ومنحة الإعراب وألفية بن مالك ومع ذلك كله بقيت على عقيدة أبي وأمي ففتح أستاذي بإذن الله عين بصيرتي وعلمت أني كنت في ظلمات بعضها فوق بعض وتبت إلى الله من عقيدة الأشعرية المتأخرين ومن التقليد ومن الطريقة.

إذا اصطفاك لأمر هيأتك له ... يد العناية حتى تبلغ الأملا

وهذا يبين لك شؤم التفرق في الدين وأنه سبيل الهالكين.

الباب الثالث

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَىٰ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗا وَسَيُحۡبِطُ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴿٣٢﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبۡطِلُوٓاْ أَعۡمَٰلَكُمۡ ﴾ [محمد:٣٢، ٣٣].

قال (ك) يخبر تعالى عمن كفر وصد عن سبيل الله وخالف الرسول وشاقه وارتد عن الإيمان من بعد ما تبين له الهدى أنه لن يضر الله شيئا. وإنما يضر نفسه ويخسرها يوم معادها

وسيحبط الله عمله فلا يثيبه على سالف عمله الذي عقبه بردته مثقال بعوضه من خير بل يحبطه ويمحقه بالكلية، كما أن الحسنات يذهبن السيئات.

روى الإمام أحمد من طريق عبد الله بن المبارك عن ابن عمر قال (كنا معشر أصحاب رسول الله نرى أنه ليس شيء من الحسنات إلا مقبولا حتى نزلت: ﴿ **أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ** ﴾. فقلنا ما هذا الذي يبطل أعمالنا ؟ فقلنا: الكبائر الموجبات والفواحش حتى نزل قوله تعالى: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاء** ﴾. فلما نزلت كففنا عن القول في ذلك فكنا نخاف على من أصاب الكبائر والفواحش ونرجو لمن لم يصبها) ثم أمر تبارك وتعالى عباده المؤمنين بطاعته وطاعة رسوله التي هي سعادتهم في الدارين ونهاهم عن الارتداد الذي هو مبطل للأعمال، ولهذا قال تعالى: ﴿ **وَلا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ** ﴾ أي بالردة.

قال المحقق القنوجي في تفسيره لهذه الآية واستدل بهذه الآية من لا يرى إبطال النوافل حتى لو دخل في صلاة تطوع أو صوم تطوع. لا يجوز له إبطال ذلك العمل والخروج منه وبه قال أبو حنيفة رحمه الله وقال الشافعي بخلافه ولا دليل لهم في الآية ولا حجة لأن السنة مبينة للكتاب وقد ثبت في الصحيحين أن النبي ﷺ أصبح صائما فلما رجع إلى البيت وجد حيسا فقال لعائشة قربيه فلقد أصبحت صائما فأكل وهذا معنى الحديث وليس بلفظه وليس في هذه الآية دليل كما ظنه الزمخشري على إحباط الطاعات بالكبائر على ما زعمت المعتزلة والخوارج بجمهورهم على أن كبيرة واحدة تحبط جميع الطاعات حتى إن من عبد الله طول عمره ثم شرب جرعة خمر فهو كمن لم يعبده قط.

فصل

قال محمد تقي الدين: من مبطلات الأعمال يقينا مخالفة سنة النبي ﷺ روى مسلم عن أم المؤمنين عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد فكل امرئ يسمى نفسه مالكيا ويصلي سادلا يديه بعد علمه بما رواه مالك وغيره كالبخاري ومسلم عن النبي ﷺ من وضع اليمنى على اليسرى لا صلاة له للحديث المتقدم ولقوله تعالى: ﴿ **فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** ﴾.

وتقدم تفسير أحمد بن حنبل للفتنة بالكفر ويدل على ذلك أيضا حديث سلمة بن الأكوع في الرجل الذي أكل بشماله عند النبي ﷺ فدعا عليه فأشل الله يده والحنفي الذي لا يرفع يديه عند الركوع ولا عند الرفع منه ولا عند القيام من اثنتين ويمنع الجهر بالتأمين لا صلاة له إذا عرف أن سنة النبي ﷺ بخلاف ذلك وقال في الدين الخالص ج٤، ص ٣٢٩، ما نصه:

الوجه الحادي والثلاثون: أن يقال للمقلد: بأي شيء عرفت أن الصواب مع من قلدته دون من لا تقلده ؟

فإن قال عرفته بالدليل، فليس بمقلد، وإن قال، عرفته تقليدا له، فإنه أفتى بهذا القول، ودان به وعلمه وحسن ثناء الأمة عليه يمنعه أن يقول غير الحق.

قيل له: أفمعصوم هو عندك، أم يجوز عليه الخطأ ؟

فإن قال بعصمته، أبطل، وإن جوز عليه الخطأ قيل له، فما يؤمنك أن يكون قد أخطأ فيما قلدته فيه، وخالف فيه غيره ؟

فإن قال: وإن أخطأ فهو مأجور، قيل: أجل هو مأجور لاجتهاده، وأنت غير مأجور لأنك لم تأت بموجب الأجر، بل قد فرطت في إتباع الواجب فأنت إذا مأزور.

فإن قال كيف يأجره الله على ما أفتى به ويمدحه عليه، ويذم المستفتي على قبوله منه، وهل يعقل هذا ؟

قيل: المستفتي إن قصر وفرط في معرفة الحق مع قدرته عليه، لحقه الذم والوعيد، وإن بذل جهده ولم يقصر فيما أمر به واتقى الله ما استطاع، فهو مأجور أيضا، وأما المتعصب الذي جعل قول متبوعه عيارا على الكتاب والسنة وأقوال الصحابة، يزنها به، فما واقف قول متبوعه منها قبله، وما خالفه رده، فهذا إلى الذم والعقاب أقرب منه إلى الأجر والثواب.

وإن قال: وهو الواقع: اتبعته وقلدته، ولا أدري، أعلى صواب هو، أم لا ؟ فالعهدة على القائل، وأنا حاك لأقواله.

قيل له: فهل تتخلص بهذا من الله عند السؤال لك عما حكمت به بين عباد الله وأفتيتهم به ؟

فوالله إن للحكام والمفتين لموقفا للسؤال. لا يتخلص فيه إلا من عرف الحق، وحكم به وعرفه وأفتى به.

وأما من عداهما فسيعلم – عند انكشاف الحال – أنه لم يكن على شيء.

سورة الفتح

الباب الأول

قوله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الفتح:٨-١٠].

قال (ك) يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ ﴿ **إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا** ﴾. أي على الخلق ﴿ **وَمُبَشِّرًا** ﴾. أي للمؤمنين ﴿ **وَنَذِيرًا** ﴾. أي للكافرين وقد تقدم تفسيرها في سورة الأحزاب ﴿ **لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ** ﴾. قال ابن عباس وغير واحد تعظموه ﴿ **وَتُوَقِّرُوهُ** ﴾. من التوقير وهو الاحترام والإجلال والإعظام ﴿ **وَتُسَبِّحُوهُ** ﴾. أي تسبحوا الله ﴿ **بُكْرَةً وَأَصِيلاً** ﴾. أي أول النهار وآخره. ثم قال عز وجل لرسوله ﷺ تشريفا له وتعظيما وتكريما ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ** ﴾. كقوله عز وجل: ﴿ **مَّنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ** ﴾. ﴿ **يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ** ﴾. أي هو حاضر معهم يسمع أقوالهم ويرى مكانهم ويعلم ضمائرهم وظواهرهم فهو تعالى هو المبايع بواسطة رسول الله ﷺ كقوله تعالى: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللّهِ فَاسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ** ﴾. وعن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ في الحجر: «والله ليبعثنه الله عز وجل يوم القيامة له عينان ينظر بهما ولسان ينطق به ويشهد على من أستلمه بالحق فقد بايع الله تعالى» ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ**

اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾. ولهذا قال تعالى ها هنا ﴿ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَى نَفْسِهِ ﴾.أي إنما يعود وبال ذلك على الناكث والله غني عنه ﴿ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾. أي ثوابا جزيلا وهذه البيعة هي بيعة الرضوان وكانت تحت شجرة سمرة بالحديبية وكان الصحابة الذين بايعوا رسول الله ﷺ يومئذ، قيل ألف وثلاثمائة وقيل: وأربعمائة، وقيل وخمسمائة والأوسط أصح.

فصل

قال محمد تقي الدين: كل مسلم يعتبر مبايعا للرسول ﷺ كأنه وضع يده في يده أن يطيعه في كل ما أمر به وأن ينتهي عن كل ما نهى عنه وأن يحبه أكثر من نفسه ووالديه وأولاده والناس أجمعين فمن أوفى ببيعته سعد في الدنيا والآخرة ومن نكث بيعته تعرض لعذاب الله وغضبه ونقمته قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴾ فمن ترك سنة النبي ﷺ واتبع آراء الرجال وقلدهم قلادة سوء فقد نكث البيعة ونقض العهد.

وقال صاحب الدين الخالص، ج ٤ ص ٣٣٠ ما نصه:

الوجه الثاني والثلاثون: أن نقول: أخذتم بقول فلان، لأن فلانا قاله، أو لأن رسول الله ﷺ قاله ؟

فإن قلتم: لأن فلانا قاله، جعلتم قول فلان حجة، وهذا عين الباطل، وإن قلتم: لأن رسول الله ﷺ قاله، كان هذا أعظم وأقبح فإنه – مع تضمنه للكذب على رسول الله ﷺ وتقويلكم عليه ما لم يقله، وهو أيضا كذب على المتبوع، فإنه لم يقل: هذا قول رسول الله ﷺ.

فقد دار قولكم بين أمرين لا ثالث لهما: أما جعل قول غير المعصوم حجة – وأما تقويل المعصوم ما لم يقله، ولابد من واحد من الأمرين، فإن قلتم بل منهما بد وبقى قسم ثالث، وهو أنا قلنا كذا، لأن رسول الله ﷺ امرنا أن نتبع من هو أعلم منا ونسأل أهل الذكر إن كنا لا نعلم، ونرد ما لم نعلمه إلى استنباط أولى العلم، فنحن في ذلك متبعون ما امرنا به نبينا.

قيل: وهل ندندن إلا حول إتباع أمره ﷺ ؟. فحيهلا بالموافقة على هذا الأصل الذي لا يتم الإيمان والإسلام إلا به.

فنناشدكم بالذي أرسله، إذا جاء أمره، وجاء قول من قلدتموه هل تتركون قوله لأمره ﷺ، وتضربون به الحائط وتحرمون الأخذ به والحالة هذه حتى تتحقق المتابعة كما زعمتم ؟ أم تأخذون بقوله وتفوضون أمر الرسول ﷺ إلى الله وتقولون: هو أعلم برسول الله ﷺ منا، ولم يخالف هذا الحديث، إلا وهو عنده منسوخ أو معارض بما هو أقوى منه، أو غير صحيح عنده، فتجعلون قول المتبوع محكما، وقول الرسول متشابها.

الباب الثاني

قوله تعالى: ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [الفتح:١٧].

قال (ك) يذكر الله تعالى الأعذار في ترك الجهاد فمنها لازم كالعمى والعرج المستمر وعارض كالمرض الذي يطرأ أياما ثم يزول فهو في حال مرضه ملحق بذوي الأعذار اللازمة حتى يبرأ، ثم قال تبارك وتعالى مرغبا في الجهاد وطاعة الله ورسوله **﴿ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَمَن يَتَوَلَّ ﴾**. أي ينكل عن الجهاد ويقبل على المعاش **﴿ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾**. في الدنيا بالمذلة وفي الآخرة بالنار والله تعالى أعلم.

فصل

قال محمد تقي الدين: قوله تعالى **﴿ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾** إلى آخره. عام يشمل كل مطيع وكذلك قوله تعالى **﴿ وَمَن يَتَوَلَّ ﴾** يشمل كل معرض عن الكتاب والسنة سواء أكان مرتدا يصرح بأن الكتاب والسنة لا يصلحان لهذا العصر أو مبتدعا مقلدا يقدم رأي شيخه وإمامه على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ فإن الله يعذبهم عذابا أليما في الدنيا والآخرة.

قال صاحب الدين الخالص ج٤، ص ٣٣١ ما نصه:

ثم نقول في الوجه الثالث والثلاثين: وأين أمركم رسول الله ﷺ بأخذ قول واحد من الأئمة بعينه، وترك قول نظيره ؟ ومن هو أعلم منه وأقرب إلى الرسول ؟ وهل هذا إلا نسبة رسول الله ﷺ إلى أنه أمر بما لم يأمر به قط، - يوضحه الوجه الرابع والثلاثون: أن ما ذكرتم بعينه، حجة عليكم. فإن الله سبحانه أمر بسؤال أهل الذكر، والذكر هو القرآن والحديث الذي أمر الله نساء نبيه أن يذكرنه بقوله: ﴿ وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ ﴾ فهذا هو الذكر الذي أمرنا بإتباعه، وأمر من لا علم عنده أن يسأل أهله.

وهذا هو الواجب على كل أحد أن يسأل أهل العلم بالذكر الذي أنزله على رسوله ليخبروه به، فإذا أخبروه به، لم يسعه غير إتباعه، وهذا كان شأن أئمة أهل العلم، لم يكن لهم مقلد معين يتبعونه في كل ما قال، فكان عبد الله بن عباس يسأل الصحابة عما قاله رسول الله ﷺ أو فعله، أو سنه، لا يسألهم عن غير ذلك، وكذلك الصحابة كانوا يسألون أمهات المؤمنين، خصوا عائشة، عن فعل رسول الله ﷺ في بيته، وكذلك التابعون كانوا يسألون الصحابة عن شأن نبيهم فقط.

وكذلك أئمة الفقه كما قال الشافعي لأحمد: يا أبا عبد الله أنت أعلم بالحديث مني فإذا صح الحديث فأعلمني حتى أذهب إليه، شاميا أو كوفيا، أو بصريا، ولم يكن أحد من أهل العلم قط يسأل عن رأي رجل بعينه ومذهبه فيأخذ به وحده ويخالف له ما سواه.

سورة الحجرات

الباب الأول

قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ [الحجرات:١-٣].

قال (ك) هذه آيات أدب الله تعالى بها عباده المؤمنين، فيما يعاملون به الرسول من التوقير والاحترام، والتبجيل والإعظام، فقال تبارك وتعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾. أي لا تسرعوا في الأشياء بين، يديه أي قبله، بل كونوا تبعا له في جميع الأمور، حتى يدخل في عموم هذا الأدب الشرعي، حديث معاذ حيث قال له النبي ﷺ حين بعثه إلى اليمن « بم تحكم » قال: بكتاب الله تعالى، قال « فإن لم تجد » ؟ قال: بسنة رسول الله، قال: « فإن لم تجد » قال: اجتهد رأيي، فضرب في صدره وقال: « الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله إلى ما يرضي رسول الله ﷺ » وقد رواه أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجه فالغرض منه، أنه أخر رأيه ونظره واجتهاده إلى ما بعد الكتاب والسنة، ولو قدمه قبل البحث عنهما لكان من باب التقديم بين يدي الله ورسوله ﷺ قال على بن أبي طلحة عن ابن عباس ﴿ لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ أي لا تقولوا خلاف الكتاب والسنة، ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾. فيما أمركم به ﴿ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ ﴾ لأقوالكم، ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بنياتكم، وقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ ﴾ هذا أدب ثان أدب الله تعالى به المؤمنين أن لا يرفعوا أصواتهم بين يدي النبي ﷺ فوق صوته.

روى البخاري عن عبد الله بن الزبير (أنه قدم ركب بني تميم على النبي ﷺ فقال أبو بكر: أمر القعقاع بن معبد، وقال عمر: بل أمر الأقرع بن حابس، فقال أبو بكر: ما أردت إلا خلافي، فقال عمر: ما أردت خلافك، فتماريا حتى ارتفعت أصواتهما فنزلت في ذلك: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾. حتى انقضت الآية: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ ﴾. الآية: وروى البخاري عن أنس بن مالك أن النبي ﷺ افتقد ثابت بن قيس فقال رجل: يا رسول الله: أنا أعلم لك علمه، فأتاه فوجده في بيته منكسا رأسه، فقال له: ما شأنك فقال شر، كان يرفع صوته فوق صوت النبي ﷺ فقد حبط عمله فهو من أهل النار، فأتى الرجل النبي ﷺ فأخبره أنه قال كذا وكذا، قال موسى: فرجع إلى المرة الآخرة ببشارة عظيمة فقال « اذهب إليه فقل له: إنك لست من أهل النار ولكنك من أهل الجنة ». ثم نهى عن الجهر له بالقول كما يجهر الرجل لمخاطبه، بل يخاطب بسكينة ووقار وتعظيم، ولهذا قال تبارك وتعالى: ﴿ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ ﴾.

كما قال تعالى: ﴿ لا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ﴾. وقوله عز وجل ﴿ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ ﴾. أي إنما نهيناكم عن رفع الصوت عنده، خشية أن يغضب من ذلك فيغضب الله تعالى لغضبه، فيحبط عمل من أغضبه وهو لا يدري كما جاء في الصحيح « إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله تعالى لا يلقي لها بالا يكتب له بها الجنة، وأن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله تعالى لا يلقي لها بالا، يهوى بها في النار، أبعد ما بين السماء والأرض » ثم ندب تعالى إلى خفض الصوت عنده وحث على ذلك، وأرشد إليه، ورغب فيه، فقال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى ﴾. أي أخلصها لها وجعلها أهلا ومحلا ﴿ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾. وقد قال الإمام أحمد عن مجاهد قال: كتب إلى عمر: يا أمير المؤمنين، رجل لا يشتهي المعصية ولا يعمل بها أفضل ؟ أم رجل يشتهي المعصية ولا يعمل بها ؟ فكتب عمر: إن الذين يشتهون المعصية ولا يعملون بها ﴿ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾

فصل

قال محمد تقي الدين: هذه الآيات الكريمة فيها من الأمر بتعظيم النبي ﷺ وإجلاله مالا حد له وقد تقدم أن من لم يحب النبي ﷺ أكثر من نفسه ووالديه وأولاده والناس أجمعين لا يكون مؤمنا حقا وذلك معنى قول النبي ﷺ لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين. قال العلماء ويدخل في الناس أجمعين كل محبوب لديه منهم حتى هو نفسه، وكل من آمن بهذا يستحيل أن يخالف أمر النبي ﷺ في عقيدة أو عبادة أو معاملة أو خلق وقد أشار الحافظ (ك) إلى ذلك وبينه غاية البيان وبسط القول فيه الحافظ ابن القيم وقد تقدم كلامه ويدخل في هذا الوعيد المقلدون المتمذهبون وأصحاب الطرائق والأحزاب السياسية والتعصب للأوطان والقوميات.

ثم قال صاحب الدين الخاص ج٤ ص ٣٣٢ ما نصه:

الوجه الخامس والثلاثون: أن النبي ﷺ إنما أرشد المستفتين كصاحب الشجة، بالسؤال عن حكمه وسننه، فقال: « قتلوه قتلهم الله » فدعا عليهم حين أفتوا بغير علم، وفي هذا

تحريم الإفتاء بالتقليد فإنه ليس علما بإتفاق الناس، فإن ما دعا رسول الله ﷺ على فاعله، فهو حرام وذلك أحد أدلة التحريم.

فما احتج به المقلدون هو من أكبر الحجج عليهم والله الموفق.

وكذلك سؤال أبي العسيف الذي زنى بامرأة مستأجرة عند أهل العلم، فإنهم لما أخبروه بسنة رسول الله ﷺ في البكر الزاني، أقره على ذلك، ولم ينكره، فلم يكن ثم سؤالهم عن رأيهم ومذاهبهم.

سورة ق

الباب الأول

قوله تعالى: ﴿ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ ۖ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾ [ق:٤٥].

قال (ك) أي بما يقول لك المشركون من التكذيب فلا يهولنك ذلك، وقوله تعالى: ﴿ **وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ** ﴾. أي وما أنت بمجبرهم على الإيمان، إنما أنت مبلغ، ثم قال عز وجل: ﴿ **فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ** ﴾. أي بلغ أنت رسالة ربك، فإنما يتذكر من يخاف الله ووعيده ويرجو وعده، كقول تعالى ﴿ **فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ** ﴾. وكان قتادة يقول: اللهم اجعلنا ممن يخاف وعيدك ويرجو موعدك يا بار يا رحيم.

فصل

قال محمد تقي الدين: كل من يؤمن بالله ورسوله وما أنزل عليه ويخاف الله فإن الذكرى تنفعه فيتبع الكتاب والسنة ويجتنب التقليد والشرك والبدعة فيكون من الذين هداهم الله وهم أولوا الألباب.

قال صاحب الدين الخالص ٤ ص ٣٣٣ ما نصه:

الرد على القائلين بمشروعية التقليد استنادا إلى قول عمر: « إني لأستحي من الله أن أخالف أبا بكر ».

الوجه السادس والثلاثون: قولهم: إن عمر قال في الكلالة « إني لأستحي من الله أن أخالف أبا بكر » وهذا تقليد منه له، فجوابه من خمسة أوجه.. أحدها: إنهم اختصروا الحديث وحذفوا منه ما يبطل استدلالهم، ونحن نذكره بتمامه.

قال شعبة عن عاصم الأحول، عن الشعبي: أنا أبا بكر قال في الكلالة: « أقصي فيها برأيي، فإن يكن صوابا فمن الله، وإن يكن خطأ فمني ومن الشيطان والله منه بريئ، هو ما دون الولد والوالد ».

فقال عمر بن الخطاب: « إني لأستحيي من الله أن أخالف أبا بكر ».

فاستحيى عمر من مخالفة أبي بكر في اعترافه بجواز الخطأ عليه وأنه ليس كلامه كله صوابا، مأمونا عليه الخطأ.

ويدل على ذلك أن عمر بن الخطاب أقر عند موته أنه لم يقض في الكلالة بشيء، وقد اعترف أنه لم يفهمها.

الوجه الثاني أن خلاف عمر لأبي بكر أشهر من أن يذكر كما خالفه في سبي أهل الردة فسباهم أبو بكر وخالفه عمر، وبلغ خلافه إلى أن ردهن حرائر إلى أهلهن إلا من ولدت لسيدها منهن، ونقض حكمه، ومن جملتهن خولة الحنفية أم محمد بن علي، فأين هذا من فعل المقلدين لمتبوعهم ؟

وخالفه في أرض العنوة، فقسمها أبو بكر، ووقفها عمر، وخالفه في المفاضلة في العطاء، فرأى أبو بكر التسوية، ورأى عمر المفاضلة، ومن ذلك مخالفته له في الاستخلاف، وصرح بذلك فقال: « أن أستخلف أبو بكر، وإن لم أستخلف، فإن رسول الله ﷺ لم يستخلف.

قال ابن عمر: فوالله ما هو إلا أن ذكر رسول الله ﷺ فعلمت أنه لا يعدل برسول الله ﷺ أحدا وأنه غير مستخلف، فهكذا يفعل أهل العلم حين يتعارض عندهم سنة رسول الله ﷺ وقول غيره، لا يعدلون بالسنة شيئا سواها. لاكما يصرح به المقلدون، وخلافه له في الجد، والأخوة معلوم أيضا، الثالث: أنه لو قدر تقليد عمر لأبي بكر في كل ما قاله لم يكن في ذلك مستراح لمقلدي من هو بعد الصحابة والتابعين ممن لا يداني الصحابة ولا يقاربهم فإن كان – كما زعمتم – لكم أسوة بعمر، فقلدوا أبا بكر، واتركوا تقليد غيره، والله

ورسوله وجميع عباده يحمدونكم على هذا التقليد، مالا يحمدونكم على تقليد غير أبي بكر.

الرابع: أن المقلدين لأئمتهم لم يستحيوا مما أستحيي منه عمر، لأنهم يخالفون أبا بكر وعمر معه، ولا يستحيون من ذلك، لقول من قلدوه من الأئمة، بل قد صرح بعض غلاتهم في بعض الكتب الأصولية أنه لا يجوز تقليد أبي بكر وعمر، ويجب تقليد الشافعي.

فيا لله للعجب !! ما الذي أوجب تقليد الشافعي، وحرم عليكم تقليد أبي بكر وعمر ؟

ونحن نشهد الله، شهادة نسأل عنها يوم نلقاه، أنه إذا صح عن الخليفتين الراشدين اللذين امرنا رسول الله ﷺ باتباعهما والاقتداء بهما، قول، وأطبق أهل الأرض على خلافه، لم نلتفت إلى أحد منهم، ونحمد الله أن عافانا مما ابتلى به من حرم تقليدهم، وأوجب تقليد متبوعه من الأئمة.

وبالجملة، فلو صح تقليد عمر لأبي بكر لم يكن في ذلك راحة لمقلدي من لم يأمر الله ولا رسوله بتقليده ولا جعله عيارا على كتابه وسنة نبيه، ولا هو جعل نفسه كذلك.

الخامس: أن غاية هذا، أن يكون عمر قلد أبا بكر في مسألة، فهل في هذا دليل على جواز اتخاذ أقوال رجل بعينه بمنزلة نصوص الشارع، لا يلتفت إلى أقوال من سواه، بل ولا إلى نصوص الشارع، إلا إذا وافقت أقواله ؟

فهذا – والله – هو الذي أجمعت الأمة على أنه محرم في دين الله، ولم يظهر في الأمة إلا بعد انقراض القرون الفاضلة.

سورة الذاريات

الباب الأول

قوله تعالى: ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ۝ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الذاريات:٥٤،٥٥].

قال: (ك) ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ﴾. أي فأعرض عنهم يا محمد ﴿ فَمَا أَنتَ بِمَلُومٍ ﴾. يعني فما نلومك على ذلك ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي إنما ينتفع بها القلوب المؤمنة.

فصل

قال محمد تقي الدين: صدق الله في قوله فما أنت بملوم فإن النبي ﷺ بلغ الرسالة وأدى الأمانة وجاهد في الله حق جهاده ونصح لعباده وعبد الله حتى أتاه اليقين اللهم صلي على محمد وعلى آله ومن اقتدى به إلى يوم الدين وقد ذكر أحسن التذكرة وخلف فينا كتاب الله وسنته هدى وتبصرة فجزاه الله عنا أحسن الجزاء فمن قبل تذكرته وعمل بها فهو الموفق السعيد ومن ردها أو خالفها بعناد أو تقليد فهو الخاسر البليد.

قال صاحب الدين الخالص ج٤ ص٣٣٥ – ما نصه:

الوجه السابع والثلاثون: قولهم: أن عمر قال لأبي بكر: « رأينا لرأيك تبع » فالظاهر أن المحتج بهذا، سمع الناس يقولون كلمة تكفي العاقل، فاقتصر من الحديث على هذه الكلمة، واكتفى بها والحديث من أعظم الأشياء إبطالا لقوله، ففي صحيح البخاري عن طارق بن شهاب قال: جاء وفد من « أسد « و « غطفان » إلى أبي بكر، يسألون الصلح، فخيرهم بين الحرب المجلية، والسلم المخزية !

فقالوا: هذه المجلية قد عرفناها فما المخزية ؟ قال: ننزع منكم الحلقة والكراع، ونغنم ما أصبنا لكم، وتردون لنا ما أصبتم منا، وتدون لنا قتلانا، ويكون قتلاكم في النار، وتتركون أقواما يتبعون أذناب الإبل حتى يرى الله خليفة رسوله والمهاجرين امرا يعذرونكم به، فعرض أبو بكر ما قال على القوم، فقام عمر بن الخطاب فقال قد رأيت رأيا، وسنشير عليك.

أما ما ذكرت من الحرب المجلية والسلم المخزية، فنعم ما ذكرت.

وأما ما ذكرت « يدون قتلانا ويكون قتلاهم في النار » فإن قتلانا قاتلت فقتلت على أمر الله، أجورها على الله، ليس لها ديات، فتتابع القوم على ما قال عمر، فهذا هو الحديث الذي في بعض ألفاظه: قد رأيت رأيا، ورأينا لرأيك تبع » فأي مستراح في هذه لفرقة التقليد اهـ.

سورة النجم

الباب الأول

قوله تعالى: ﴿ فَأَعۡرِضۡ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكۡرِنَا وَلَمۡ يُرِدۡ إِلَّا ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبۡلَغُهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱهۡتَدَىٰ ﴾ [النجم:٢٩، ٣٠].

قال (ك) أي أعرض عن الذي أعرض عن الحق وهجره، وقوله **﴿ وَلَمْ يُرِدْ إِلاَّ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾**. أي وإنما أكثر همه ومبلغ علمه الدنيا فذاك هو غاية ما لا خير فيه ولهذا قال تعالى **﴿ ذَلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ ﴾**. أي طلب الدنيا والسعي لها هو غاية ما وصلوا إليه، وقد روى الإمام أحمد عن أم المؤمنين عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: « الدنيا دار من لا دار له، ومال من لا مال له، ولها يجمع من لا عقل له وفي الدعاء المأثور: اللهم لا تجعل الدنيا أكبر همنا، ولا مبلغ علمنا » وقوله تعالى **﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى ﴾** أي هو الخالق لجميع المخلوقات والعالم بمصالح عباده وهو الذي يهدي من يشاء ويضل من يشاء وذلك كله عن قدرته وعلمه وحكمته وهو العادل الذي لا يجور أبدا لا في شرعه ولا في قدره.

فصل

قال محمد تقي الدين: من أعرض عن ذكر الله ضل ومن اتبعه اهتدى والذين ضلوا عن الذكر مختلفون بعضهم بلغه فلم يؤمن به فهو من الضالين الهالكين وبعضهم بلغه فادعى أنه آمن به ولم يتخذه إماما وحكما لأن الشيطان لبس عليه وزين له التقليد وإتباع الطرائق وإن خالف ذلك القرآن والسنة فهؤلاء أيضا من الضالين.

قال صاحب الدين الخالص ج٤ ص ٣٣٦ – ما نصه:

الوجه الثامن والثلاثون: – قولهم: – إن ابن مسعود كان يأخذ بقول عمر، فخلاف ابن مسعود لعمر أشهر من أن يتكلف إيراده، وإنما كان يوافقه كما يوافق العالم العالم،

وحتى لو أخذ بقوله تقليدا، فإنما ذلك في نحو أربع مسائل نعدها، وكان من عماله، وكان عمر أمير المؤمنين، وأما مخالفته ففي نحو مائة مسألة.

منها: أن ابن مسعود صح عنه أن أم الولد تعتق من نصيب ولدها.

ومنها: أنه كان يطبق في الصلاة إلى أن مات، وعمر كان يضع يديه على ركبتيه.

ومنها: أن ابن مسعود كان يقول في « الحرام » هي يمين وعمر يقول طلقة واحدة.

ومنها: أن ابن مسعود كان يحرم نكاح الزانية على الزاني أبدا، وعمر يتوبهما وينكح أحدهما الآخر ؟

والعجب أن المحتجين بهذا، لا يرون تقليد بن مسعود، ولا تقليد عمر.

وتقليد مالك، وأبي حنيفة، والشافعي أحب إليهم وآثر عندهم ثم كيف ينسب إلى ابن مسعود تقليد الرجال وهو يقول: لقد علم أصحاب رسول الله ﷺ أني أعلمهم بكتاب الله ! ولو أعلم أن أحدا أعلم مني، لرحلت إليه.

قال شقيق: فجلت في حلقة من أصحاب رسول ﷺ فما سمعت أحدا يرد ذلك.

وكان يقول: والذي لا إله إلا هو، ما في كتاب الله سورة إلا أنا أعلم حيث نزلت وما من آية إلا أنا أعلم فيما أنزلت، ولو أعلم أحدا أعلم بكتاب الله مني، تبلغه الإبل، لركبت إليه.

وقال أبو موسى الأشعري: كنا جئنا، وما نرى ابن مسعود وأمه إلا من أهل بيت النبي ﷺ، من كثرة دخولهما ولزومهما له.

وقال أبو مسعود البدري:- وقد قال عبد الله بن مسعود:- ما أعلم رسول الله ﷺ ترك بعده أعلم بما أنزل الله من هذا القائم، فقال: أبو موسى: لقد كان يشهد إذا ما غبنا ويؤذن له إذا حجبنا، وكتب عمر إلى أهل الكوفة: أني بعثت إليكم عمارا أميرا، وعبد الله معلما ووزيرا وهما من النجباء، من أصحاب محمد ﷺ من أهل بدر، فخذوا عنهما، واقتدوا بهما، فإني آثرتكم بعبد الله على نفسي.

وقد صح عن ابن عمر أنه استفتى ابن مسعود في « البتة » وأخذ بقوله، ولم يكن ذلك تقليدا له، بل لما سمع قوله فيها تبين له أنه الصواب.

فهذا هو الذي كان يأخذ به الصحابة من أقوال بعضهم بعضا.

وقد صح عن ابن مسعود أنه قال: « أغد عالما، أو متعلما، ولا تكونن إمعة » فأخرج الإمعة — وهو المقلد — من زمرة العلماء والمتعلمين.

وهو كما قال، فإنه لا مع العلماء، ولا مع المتعلمين للعلم والحجة كما هو معروف ظاهر لمن تأمله.

الباب الثاني

قوله تعالى: ﴿ أَزِفَتِ ٱلْأَازِفَةُ ۝٥٧ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ۝٥٨ أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ۝٥٩ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ۝٦٠ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ۝٦١ فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ﴾ [النجم:٥٧-٦٢].

قال (ك): وقوله تعالى ﴿ **أَزِفَتْ الآزِفَةُ** ﴾ اقتربت القريبة وهي القيامة ﴿ **لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ** ﴾. أي لا يدفعها من دون الله أحد ولا يطلع على علمها سواه، والنذير الحذر لما يعاين من الشر الذي يخشى وقوعه فيمن أنذرهم، كما قال: ﴿ **إِنِّي نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ** ﴾. ثم قال تعالى: منكرا على المشركين في استماعهم القرآن وإعراضهم عنه ﴿ **تَعْجَبُونَ** ﴾. من أن يكون صحيحا ﴿ **وَتَضْحَكُونَ** ﴾. استهزاء وسخرية ﴿ **وَلا تَبْكُونَ** ﴾. أي كما يفعل الموقنون به كما أخبر عنهم ﴿ **وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا** ﴾. وقوله تعالى: ﴿ **وَأَنتُمْ سَامِدُونَ** ﴾. أي مستكبرون معرضون ثم قال تعالى آمرا عباده بالسجود له والعبادة المتابعة لرسول الله ﷺ والتوحيد والإخلاص ﴿ **فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا** ﴾. أي فاخضعوا له واخلصوا ووحدوه.

روى البخاري عن ابن عباس قال: « سجد النبي ﷺ وسجد معه المسلمون والمشركون والجن والإنس وروي الإمام أحمد والنسائي عن المطلب بن أبي وداعة قال قرأ رسول الله ﷺ بمكة سورة النجم فسجد وسجد من عنده فرفعت رأسي فأبيت أن أسجد، ولم يكن أسلم يومئذ المطلب فكان بعد ذلك لا يسمع أحدًا يقرؤها إلا سجد معه ».

فصل

قال محمد تقي الدين: القرآن كلام الله لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد أشرق نوره في قلوب المؤمنين فنالوا به سعادة الدارين وعمي عنه الأشقياء الكافرون والمنافقون سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون، والمقلدون وإن كانوا لا يعجبون ولا يضحكون فإنهم عن القرآن والسنة سامدون والمنتسبون للمذهب المالكي منهم لا يسجدون هذه السجدة التي سجدها النبي ﷺ وسجدها معه الإنس والجن والمسلمون والكافرون تركوا سنة خليل الله نسيا منسيا واتبعوا أمر خليلهم فإن لم يتوبوا فسيقولون يوم القيامة: ﴿ **يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً (٢٧) يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلانًا خَلِيلاً (٢٨) لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنسَانِ خَذُولاً (٢٩) وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا** ﴾.

الوجه التاسع والثلاثون: قولهم: إن عبد الله كان يدع قوله لقول عمر، وأبو موسى كان يدع قوله لقول علي، وزيد كان يدع قوله لقول أبي بن كعب.

فجوابه أنهم لم يكونوا يدعون ما يعرفون من السنة تقليدًا لهؤلاء الثلاثة، كما تفعله فرقة التقليد.

بل تأمل سيرة القوم، رأى أنهم كانوا إذا ظهر لهم السنة لم يكونوا يدعونها لقول أحد، كائنًا من كان.

وكان ابن عمر يدع قول عمر إذا ظهرت له السنة، وابن عباس ينكر على من يعارض ما بلغه من السنة بقوله: قال أبو بكر، وعمر، ويقول: يوشك أن تنزل عليكم حجارة من السماء أقول: قال رسول الله وتقولون قال: أبو بكر وعمر ؟

فرحم الله ابن عباس ورضي عنه، فوالله لو شاهد خلفنا هؤلاء الذين إذا قيل لهم: قال رسول الله قالوا: قال فلان وفلان، لمن لا يداني الصحابة، ولا قريبًا من قريب، وإنما كانوا يدعون أقوالهم لأقوال هؤلاء، لأنهم يقولون القول، ويقول هؤلاء، فيكون الدليل معهم، فيرجعون إليهم، ويدعون أقوالهم، كما يفعل أهل العلم الذين هو أحب إليهم مما سواه.

وهذا عكس طريقة فرقة أهل التقليد من كل وجه، وهذا هو الجواب عن قول مسروق، ما كنت أدع قول ابن مسعود لقول أحد من الناس.

سورة القمر

الباب الأول

قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ۝٤ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ﴾ [القمر:٤،٥].

﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ [القمر:١٧].

تفسير الآيتين

قال (ك): ﴿ **وَلَقَدْ جَاءهُم مِّنَ الأَنبَاء** ﴾ أي من الأخبار عن قصص الأمم المكذبة بالرسل وما حل بهم من العقاب والنكال والعذاب مما يتلى عليهم في هذا القرآن ﴿ **مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ** ﴾ أي ما فيه واعظ لهم عن الشرك والتمادي على التكذيب، وقوله تعالى: ﴿ **حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ** ﴾ أي في هدايته تعالى لمن هداه وإضلاله لمن أضله ﴿ **فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ** ﴾ يعني أي شيء تغني النذر عمن كتب الله عليه الشقاوة وختم على قلبه ؟ فمن الذي يهديه من بعد الله ؟ وهذه الآية كقوله تعالى ﴿ **قُلْ فَللهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَو شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ** ﴾ وكذا قوله تعالى ﴿ **فَمَا تُغْنِ الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لاَ يُؤْمِنُونَ** ﴾.

تفسير الآية المفردة

قال (ك): أي سهلنا لفظه ويسرنا معناه لمن أراده ليتذكر الناس كما قال: ﴿ **كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ** ﴾ وقال تعالى: ﴿ **فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا** ﴾. قال مجاهد: ﴿ **وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ** ﴾ يعني هونا قراءته وقال السدى يسرنا تلاوته على الألسن وقال الضحاك عن ابن عباس لولا أن الله يسره على لسان الآدميين ما استطاع أحد من الخلق أن يتكلم بكلام الله عز وجل « قلت » ومن تيسيره تعالى على الناس تلاوة القرآن ما تقدم عن النبي ﷺ أنه قال: « إن هذا القرآن أنزل

على سبعة أحرف » وأوردنا الحديث بطرقه وألفاظه بما أغنى عن إعادته ههنا ولله الحمد والمنة وقوله: ﴿ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ أي فهل من متذكر بهذا القرآن الذي قد يسر الله حفظه ومعناه ؟ وقال محمد بن كعب القرظي فهل منزجر عن المعاصي، وقال ابن أبي حاتم بسنده عن مطر هو الوراق في قوله تعالى: ﴿ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ هل من طالب علم فيعان عليه وكذا علقه البخاري بصيغة الجزم عن مطر الوراق ورواه ابن جرير.

فصل

قال محمد تقي الدين: أن في كتاب الله من الأخبار والقصص والأمثال ما يفتح القلوب المقفلة الغلف والعيون العمى والآذان الصم ولكن لا يحصل ذلك إلا لمن طلب الحق بإخلاص وتجرد من هوى نفسه الأمارة بالسوء فهذا هو الذي ينتفع بالنذر والمقلد المتعصب الذي اتخذ إلهه هواه لا ينتفع بذلك وقد يسر النطق به فترى التركي والهندي كلاهما يقرآنه بغاية التجويد مع بعد لغاتهما عن اللغة العربية ويسر حفظه حتى أنه يوجد في البلدان التي تحبه وتعتني به كثير من الصبيان يحفظونه في سن مبكرة فمنهم من يحفظه وهو ابن سبع سنين يومًا من الأيام كنت أسير ومعي رفيق في شارع من شوارع « لكنو » مدينة مشهورة بالهند فمررت على باب قرأت في أعلاه ما نصه:

في هذا البيت طفلة لا يتجاوز عمرها خمس سنين تحفظ القرآن كله فمن أراد أن يشاهدها فليدخل فدخلنا وصعدنا درجًا انتهى بنا إلى غرفة كبيرة وجدنا فيها رجلاً ذا لحية سوداء جالسًا على حصير ورأينا طفلة تلعب بلعب مختلفة في ناحية من الغرفة فسلمنا عليه فرد علينا السلام ودعانا إلى الجلوس فجلسنا فقال: لنا أي جزء من القرآن تريدان أن تقرأ لكما منه هذه الطفلة فقلت أنا: من قوله تعالى في سورة هود: ﴿ وَقَالَ ارْكَبُواْ فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا ﴾ فلم ينادها ولم يأمرها بالقراءة بل بدأ هو يقرأ بعد الاستعاذة مبتدأ بالآية التي طلبت أنا فتركت الطفلة اللعب وأقبلت عليه وجلست أمامه وبدأت تقرأ في الموضع نفسه فسكت هو وتركها وحدها فاستمرت كالسهم بدون تلكؤ ولا تعتعة حتى قلنا لها حسبك وكانت قراءتها فصيحة ومنظرها يدل على أنها إن لم تكن بنت خمس كما هو في الإعلان لا تزيد على سبع وهذا برهان يفسر لنا هذه الآية وأنا أعتقد أن هذه الطفلة

لو وجدت من يعلمها معنى القرآن ولغة القرآن والسنة التي تبين معناه لتعلمت ذلك في أقرب وقت فيا أسفا على هؤلاء الذين وهبهم الله القرآن يقرأ عندهم صباح ومساء وهم في ظلماتهم يتخبطون لا يتدبرونه ولا يتعظون به ولا يتأدبون بأدبه ولا يستضيؤون بنوره أولئك هم الخاسرون، وأعطينا ذلك الرجل شيئًا من الدراهم وقد سررنا غاية السرور ولم ينقض عجبنا مما رأينا وسمعنا.

قال صاحب الدين الخالص ج٤ ص٣٣٩ ما نصه:

الوجه الأربعون: قولهم: أن النبي ﷺ قال: « قد سن لكم معاذ فاتبعوه ».

فعجبا لمحتج بهذا على تقليد الرجال في دين الله: وهل صار ما سنه معاذ سنة إلا بقوله: « فاتبعوه » كما صار الأذان سنة بقوله وإقراره وشرعه، لا بمجرد المنام ؟

فإن قيل فما معنى الحديث ؟

قيل: معناه أن معاذًا فعل فعلاً جعله الله لكم سنة ؛ وإنما صار سنة لنا، حين أمر به النبي ﷺ لا لأن معاذًا فعله فقط.

وقد صح عن معاذ أنه قال: كيف تصنعون بثلاث: (١) دنيا تقطع أعناقكم. (٢) وزلة عالم. (٣) وجدال منافق بالقرآن.

فأمال العالم، فإن اهتدى فلا تقلدوه دينكم، وإن افتتن فلا تقطعوا منه إياسكم، فإن المؤمن يفتتن ثم يتوب.

وأما القرآن فإن له منارًا كمنار الطريق، لا يخفى على أحد، فما علمتم منه فلا تسألوا عنه أحدًا، وما لم تعلموه، فكلوه إلى عالمه.

وأما الدنيا فمن جعل الله غناه في قلبه فقد أفلح، ومن لا، فليست بنافعته دنياه.

فصدع ط بالحق، ونهى عن التقليد في كل شيء، وأمر بإتباع ظاهر القرآن، وأن لا يبالي بمن خالف فيه، وأمر بالتوقف فيما أشكل، وهذا كله، خلاف طريقة المقلدين، وبالله التوفيق.

سورة الواقعة

الباب الأول

قوله تعالى: ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴾ [الواقعة:٧٥-٨٢].

قال الإمام المحقق معين الدين في تفسيره جامع البيان ما نصه:

﴿ **فَلا أُقْسِمُ** ﴾ لا مزيدة لتأكيد القسم وردًا لقول الكفار أنه سحر وشعر ثم استأنف القسم ﴿ **بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ** ﴾ أي نجوم القرآن ومواقعها أوقات نزولها أو بمغارب نجوم السماء أو منازلها أو انتشارها يوم القيامة ﴿ **وَإِنَّهُ** ﴾ هذا القسم الذي أقسمت به ﴿ **لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ** ﴾ كثير النفع ﴿ **فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ** ﴾ مصون من الشياطين وهو اللوح ﴿ **لاَّ يَمَسُّهُ** ﴾ أي الكتاب ﴿ **إلاَّ الْمُطَهَّرُونَ** ﴾ أي الملائكة وعن بعض زعمت قريش أن القرآن تنزلت به الشياطين فردهم الله تعالى بقوله ﴿ **لاَّ يَمَسُّهُ إلاَّ الْمُطَهَّرُونَ** ﴾ كما قال تعالى: ﴿ **وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ** ﴾. ﴿ **تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ** ﴾ صفة أخرى للقرآن ﴿ **أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ** ﴾ أي القرآن ﴿ **أَنتُم مُّدْهِنُونَ** ﴾ متهاونون مكذبون ﴿ **وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ** ﴾ الرزق بمعنى الشكر في لغة أو شكر رزقكم الذي هو المطر ﴿ **أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ** ﴾ بمعطيه وتقولون مطرنا بنوء كذا وتجعلون حظكم ونصيبكم من القرآن تكذيبكم به.

فصل

قال محمد تقي الدين: هذا القرآن الكريم صنع المعجزات واعترف بها العدو والصديق حتى أعداء الدين الملاحدة ومنهم المؤرخ المشهور جوزيف ماك كيب. في الكتاب الذي ترجمته له: « مدينة المغاربة في أسبانيا » (The Moorich Civilization in Spain)

لا توجد حضارة مبنية على الدين لأن الدين لا يثمر الحضارة أبدًا ولكن لا شك أن القرآن وتعاليم محمد نفخت في العرب روح الحياة فاجتمعوا وتعاونوا وبذلك تمت لهم الفتوحات العظيمة وورثوا حضارات الأمم السابقة كالفرس واليونانيين وعلموها الأوربيين، فهذا الرجل يعادي الأديان كلها ومع ذلك لم يجد بدًا أن يعترف أن القرآن ودعوة محمد رسول الله سبب قوة العرب والدول الإسلامية فيا أسفا على هؤلاء المنتسبين إلى الإسلام الذين أعرضوا عن الكتاب والسنة ونبذوهما وراء ظهورهم فماتوا موتًا معنويًا تامًا وكذلك المقلدون وأصحاب الطرائق بإعراضهم عن الكتاب والسنة جعلوا الدين جسمًا بلا روح فكان ذلك سبب شقائهم وحرمانهم.

قال صاحب الدين الخالص ج٤ ص٣٤٠ ما نصه:

الوجه الحادي والأربعون: قولكم: إن الله سبحانه أمر بطاعة أولي الأمر وهم العلماء، وطاعتهم تقليدهم فيما يفتون به.

فجوابه: أن أولي الأمر قد قيل: هم الأمراء، وقيل: هم العلماء، وهما روايتان عن الإمام أحمد.

والتحقيق: أن الآية تتناول الطائفتين، وطاعتهم من طاعة الرسول، لكن خفي على المقلدين أنهم إنما يطاعون في طاعة الله، إذا أمروا بأمر الله ورسوله، فكان العلماء مبلغين لأمر الرسول، والأمراء منفذين له، فحينئذ تجب طاعتهم تبعًا لطاعة الله ورسوله ؟

فأين في الآية تقديم آراء الرجال على سنة رسول الله ﷺ وإيثار التقليد عليها ؟

سورة الحديد

الباب الأول

قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحديد:٩].

قال (ك): حججًا واضحات ودلائل باهرات، وبراهين قاطعات ﴿ **لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ** أي من ظلمات الجهل والكفر والآراء المتضادة إلى نور الهدى واليقين

﴿ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ أي في إنزاله الكتاب وإرساله الرسل لهداية الناس وإزاحة العلل وإزالة الشبه.

فصل

قال محمد تقي الدين: لا يرتاب أحد لا مسلم ولا كافر كما قدمنا من كلام جزيف ماك كيب عدو الأديان أن القرآن أخرج العرب من الظلمات إلى النور وأخرج جميع الدول الإسلامية السابقة من ظلمات الجهل والفقر والذلة والتشتت والضعف إلى أضدادها وفي قتال المسلمين لجميع دول أوربا بملوكها وجيوشها مدة مائة وتسعين سنة على أرض فلسطين وما حولها وانتصار المسلمين عليهم شاهد من أعظم الشواهد للمقارنة مع استيلاء ثلاثة ملايين من غرباء الآفاق من اليهود على المسجد الأقصى أحد المساجد الثلاثة المقدسة عند المسلمين ويقابل هذه الملايين الثلاثة مائة مليون من العرب وستمائة مليون من المسلمين غير العرب وقد حارب العرب اليهود مرارًا وتكرارًا فلم يحصلوا على طائل فكل من اتبع القرآن والسنة من الشعوب والدول والأفراد يخرجه الله من الظلمات إلى النور وكل من خالفهما بعد المعرفة يخرجه الله من النور إلى الظلمات ومن المخالفين لهما المقلدون وأصحاب الطرائق الذين فرقوا دينهم وصاروا شيعًا.

قال صاحب الدين الخالص ج٤، ص٣٤٠ ما نصه:

الوجه الثاني والأربعون: أن هذه الآية من أكبر الحجج عليهم وأعظمها إبطالاً للتقليد، وذلك من وجوه:

أحدها: الأمر بطاعة الله التي هي امتثال أمره واجتناب نهيه.

الثاني: طاعة رسوله، ولا يكون العبد مطيعًا لله ورسوله حتى يكون عالمًا بأمر الله.

ومن أقر على نفسه بأنه ليس من أهل العلم بأوامر الله ورسوله، وإنما هو مقلد فيها لأهل العلم، لم يمكنه تحقيق طاعة الله ورسوله البتة.

الثالث: أن أولي الأمر قد نهوا عن تقليدهم كما صح ذلك عن معاذ بن جبل، وعبد الله بن مسعود، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن عباس، وغيرهم من الصحابة، وذكرناه نصًا عن الأئمة الأربعة وغيرهم.

وحينئذ فطاعتهم في – ذلك إن كانت واجبة – بطل التقليد، وإن لم تكن واجبة، بطل الاستدلال.

الرابع: أنه سبحانه قال في الآية نفسها ﴿ **فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ** ﴾. وهذا صريح في إبطال التقليد، والمنع من رد المتنازع فيه إلى رأي، أو مذهب، أو تقليد، فإن قيل: فما هي طاعتهم المختصة بهم ؟ إذ لو كانوا إنما يطاعون فيما يخبرون به عن الله ورسوله، كانت الطاعة لله ورسوله لا لهم.

قيل: وهذا هو الحق، وطاعتهم إنما هي تبع لا استقلال، ولهذا قرنها بطاعة الرسول، ولم يعد العامل.

وأفرد طاعة الرسول، وأعاد العامل، لئلا يتوهم أنه إنما يطاع تبعًا، كما يطاع أولو الأمر تبعًا، وليس كذلك.

بل طاعته واجبة استقلالاً، كان ما أمر به ونهى عنه في القرآن، أو لم يكن.

الباب الثاني

قوله تعالى: ﴿ أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلۡحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلُ فَطَالَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَمَدُ فَقَسَتۡ قُلُوبُهُمۡۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ ﴾ [الحديد:١٦].

قال (ك): يقول تعالى: ﴿ **أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ** ﴾ أي أما آن أن تلين قلوبهم عند الذكر والموعظة وسماع القرآن فتفهمه وتنقاد له، وتسمع له وتطيعه، قال ابن عباس: أن الله استبطأ قلوب المؤمنين فعاتبهم على رأس ثلاث عشرة سنة من نزول القرآن فنزلت هذه الآية رواه ابن أبي حاتم ثم روي هو ومسلم عن ابن عباس قال: ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية إلا أربع سنين كذا رواه مسلم في آخر الكتاب وأخرجه النسائي وابن ماجه والبزار عن ابن مسعود.

وقوله تعالى: ﴿ **وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ** ﴾ نهى الله تعالى: المؤمنين أن يتشبهوا بالذين حملوا الكتاب من قبلهم من اليهود

والنصارى، لما تطاول عليهم الأمد بدلوا كتاب الله الذي بأيديهم واشتروا به ثمنًا قليلاً، ونبذوه وراء ظهورهم وأقبلوا على الآراء المختلفة، وقلدوا الرجال في دين الله واتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله فعند ذلك قست قلوبهم فلا يقبلون موعظة ولا تلين قلوبهم بوعد ولا وعيد ﴿ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ أي في الأعمال فقلوبهم فاسدة وأعمالهم باطلة كما قال تعالى: ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِ ﴾ ولهذا نهى الله المؤمنين أن يتشبهوا بهم في شيء من الأمور الأصلية والفرعية.

فصل

قال محمد تقي الدين: من قرأ القرآن لوجه الله على الطريقة التي قرأه عليها أصحاب رسول الله ﷺ لابد أن يخشع عند سماعه وأن يعمل به وأن يتحاكم إليه ويحكمه ويتأدب بأدبه ويستضيء بنوره أما الذي لم يؤمن به ولم يقرأه لله ولا على طريقة أصحاب رسول الله الذين كانوا إذا تعلموا عشر آيات لم يتجاوزوهن حتى يعرفوا معناهن والعمل بهن بل قرأه ليأكل به أو ليفخر به فهو جدير أن لا يتدبر آياته ولا يخشع ولا يتذكر ولا يتأثر وهذه حال أكثر قرائه في هذا الزمان لأكثرهم الله فإن كثرتهم تجلب غضب الله وتكثر من معصية الله وتبعد عن طاعة الله والمقلدون لا ينتفعون بالقرآن ولو فهموا معناه لأنهم لا يعملون به إلا إذا وافق مقلدهم ومذهبهم.

قال صاحب الدين الخالص ج٤ ص٣٤١ ما نصه:

الوجه الثالث والأربعون: قولهم: إن الله سبحانه وتعالى أثنى على السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، والذين اتبعوهم بإحسان، وتقليدهم ليس إتباعهم بإحسان، فما أصدق المقدمة الأولى وما أكذب الثانية.

بل الآية من أعظم الأدلة ردًا على فرقة التقليد، فإن إتباعهم هو سلوك سبيلهم ومنهاجهم، وقد نهوا عن التقليد، وكون الرجل أمعة وأخبروا أنه ليس من أهل البصيرة.

ولم يكن فيهم – ولله الحمد – رجل واحد على مذهب هؤلاء المقلدين، وقد أعاذهم الله وعافاهم، مما ابتلي به من يرد النصوص لآراء الرجال وتقليدهم، فهذا ضد متابعتهم وهو نفس مخالفتهم.

فالتابعون لهم بإحسان حقًا. هم أولوا العلم والبصائر، الذين لا يقدمون على كتاب الله وسنة رسوله، رأيًا ولا قياسًا، ولا معقولاً، ولا قول أحد من العالمين ولا يجعلون مذهب أحد عيارًا على القرآن والسنة، فهؤلاء أتباعهم حقًا، جعلنا الله منهم بفضله ورحمته.

الباب الثالث

قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٢٨﴾ لِّئَلَّا يَعۡلَمَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ أَلَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلۡفَضۡلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴾ [الحديد:٢٨،٢٩].

قال (ك): قد تقدم أنه ورد في الصحيحين عن أبي موسى الأشعري أن مؤمني أهل الكتاب يؤتون أجرهم مرتين كما في الآية من سورة القصص ٤٥ – قال سعيد بن جبير لما افتخر أهل الكتاب بأنهم يؤتون أجرهم مرتين أنزل الله تعالى هذه الآية في حق هذه الأمة: **﴿ أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ ﴾** أي ضعفين **﴿ مِن رَّحْمَتِهِ ﴾** وزادهم **﴿ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ ﴾** يعني هدى يتبصر به من العمى والجهالة ويغفر لكم، ففضلهم بالنور والمغفرة، رواه ابن جرير، وهذه الآية كقوله تعالى: **﴿ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إَن تَتَّقُواْ اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَاناً وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾** روي أحمد عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «مثلكم ومثل اليهود والنصارى كمثل رجل استعمل عمالاً فقال: من يعمل لي من صلاة الصبح إلى نصف النهار على قيراط ؟ فعملت اليهود، ثم قال: من يعمل لي من صلاة الظهر إلى صلاة العصر على قيراط ؟ فعملت النصارى، ثم قال: من يعمل لي من صلاة العصر إلى غروب الشمس على قيراطين قيراطين ؟ إلا فأنتم الذين عملتم، فغضبت النصارى واليهود وقالوا:

نحن أكثر عملاً وأقل عطاء: قال: هل ظلمتكم من أجركم شيئًا ؟ قالوا: لا قال: فإنما هو فضلي أوتيه من أشاء». رواه البخاري، قال ابن جرير: ﴿ لِئَلاَّ يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ ﴾ أي ليعلم، وقد ذكر عن ابن مسعود أنه قرأها: لكي يعلم وكذا عطاء بن عبد الله وسعيد ابن جبير.

فصل

قال محمد تقي الدين: كل من اتقى الله بامتثال الأوامر واجتناب المنهيات لابد أن يتبع كتاب الله وسنة رسوله وحينئذ يجعل الله له نورًا يمشي به في الناس ويبارك في رزقه وعمله وعلمه وفي كل شيء من أمر دينه ودنياه كما قال تعالى: ﴿ **وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ** ﴾ أي يفرج عنه كل كربة ويأتيه الرزق الحسي والمعنوي من الجهات التي لا يظن أنه يأتيه منها والمقلد وصاحب الطريقة والحزبي والمتعصب للوطن أو الجنس يمنعه ذلك من إتباع كتاب الله وسنة رسوله فلا يحصل على شيء من تلك الفضائل.

قال المحقق القنوجي في الدين الخالص ص٣٤٢ ج٤ ما نصه:

الوجه الرابع والأربعون: أن إتباعهم لو كانوا هم المقلدين الذين هم مقرون على أنفسهم، وجميع أهل العلم على أنهم ليسوا من أولي الأمر، لكان سادات العلماء الدائرين مع الحجة ليسوا من أتباعهم، والجهال أسعد باتباعهم منهم، وهذا عين المحال، بل من خالف واحدًا منهم للحجة، فهو المتبع له، دون من أخذ قوله بغير حجة، وهكذا القول في إتباع الأئمة.

معاذ الله أن يكونوا هم المقلدين لهم الذين ينزلون آراءهم منزلة النصوص، بل يتركون لها النصوص، فهؤلاء ليسوا من أتباعهم.

وإنما أتباعهم من كان على طريقهم، واقتفى منهاجهم.

ولقد أنكر بعض المقلدين على شيخ الإسلام (ابن تيمية) في تدريسه بمدرسة ابن الحنبلي، وهي وقف على الحنابلة، والمجتهد ليس منهم.

فقال: إنما أتناول ما أتناوله منها على معرفتي بمذهب أحمد، لا على تقليدي له، ومن المحال أن يكون هؤلاء المتأخرون على مذهب الأئمة دون أصحابهم الذين لم يكونوا يقلدونهم.

فأتبع الناس لـ « مالك » ابن وهب وطبقته، ممن يحكم بالحجة، وينقاد للدليل أين كان.

وكذلك أبو يوسف ومحمد، اتبع لأبي حنيفة من المقلدين له مع مخالفتهما له.

كذلك البخاري، ومسلم، وأبو داوود، والأثرم، وهذه الطبقة من أصحاب أحمد، اتبع له من المقلدين المحض في المنتسبين إليه.

وعلى هذا، فالوقف على إتباع الأئمة، أهل الحجة والعلم أحق به من المقلدين في نفس الأمر.

سورة المجادلة

الباب الأول

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ [المجادلة:٢٠،٢١].

قال (ك): يخبر تعالى عن الكفار المعاندين المعادين لله ورسوله، يعني الذين هم في حد، والشرع في حد آخر، أي مجانبون للحق مشاقون له ﴿ **أُوْلَئِكَ فِي الأَذَلِّينَ** ﴾ أي في الأشقياء الأذلين في الدنيا والآخرة ﴿ **كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي** ﴾ أي قد حكم وكتب وقدر بأن النصرة لله ولكتبه ورسله وعباده المؤمنين في الدنيا والآخرة، وأن العاقبة للمتقين وأن النصر للمؤمنين، كما قال تعالى: ﴿ **إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ** ﴾.

فصل

قال محمد تقي الدين: كل من بلغته دعوة محمد ﷺ على وجهها وعرفها حق المعرفة ثم تنكر لها ونبذها وراءه واستبدلها بالقوانين والأعراف والعادات التي لم تنزل من السماء وإنما جاءت من الأرض فهو محاد لله ولرسوله ولابد أن يكون من الأذلين لا من الأذلاء فقط بل من الأذلين أي أذل أهل عصره وأنت إذا تأملت حال المسلمين في الوقت الحاضر وعددهم سبعمائة مليون تجدهم أذل الناس وتمت كلمة ربك صدقًا وعدلاً لا مبدل لكلماته وهو السميع العليم. وكل من بلغته سنة النبي ﷺ وعرف صحتها وخالفها لتقليد ومذهب

أو طريقة أو الانتماء إلى حزب أو قومية كان مستحقًا هذا الوعيد فيا أيها المسلمون اتقوا الله وارجعوا إلى سنة نبيكم ودعوا التفرقة والتحزب وكونوا أمة واحدة إلهها واحد ونبيها واحد وكتابها واحد وشريعتها واحدة ودينها واحد اللهم اهدنا وإياهم يارب العالمين إلى إتباع صراطك المستقيم.

قال صاحب الدين الخالص ج٤ ص٣٤٣ ما نصه:

الوجه الخامس والأربعون: قولهم: يكفي في صحة التقليد الحديث المشهور « أصحابي كالنجوم، بأيهم اقتديتم اهتديتم » جوابه من وجوه:

أحدها: أن هذا الحديث قد روي من طريق الأعمش، عن أبي سفيان عن جابر، ومن حديث سعيد بن المسيب، عن ابن عمر، ومن طريق حمزة الحريري، عن نافع عن ابن عمر، لا يثبت شيء منها.

قال ابن عبد البر: وذكر سنده إلى البزار أنه قال: وأما ما يروى عن النبي ﷺ: « أصحابي كالنجوم، بأيهم اقتديتم اهتديتم » فهذا الكلام لا يصح عن النبي ﷺ.

الثاني: أن يقال لهؤلاء المقلدين: فكيف استجرتم ترك تقليد النجوم التي يهتدي بها، وقلدتم من هو دونهم بمراتب كثيرة ؟

فكان تقليد مالك، والشافعي، وأبي حنيفة، وأحمد، آثر عندكم من تقليد أبي بكر، وعمر، وعثمان، وعلى، فما دل عليه الحديث خالفتموه صريحًا، واستدللتم به على تقليد من لم يتعرض له بوجه.

الثالث: أن هذا يوجب عليكم تقليد من ورث الجد مع الأخوة منهم، ومن أسقط الأخوة به معًا، وتقليد من قال: الحرام يمين ومن قال: هو طلاق، وتقليد من حرم الجمع بين الأختين بملك اليمين ومن أباحه.

وتقليد من جوز للصائم أكل البرد، ومن منع منه، وتقليد من قال، تعتد المتوفى عنها زوجها بأقصى الأجلين، ومن قال بوضع الحمل.

وتقليد من قال: يحرم على المحرم استدامة الطيب، وتقليد من أباحه.

وتقليد من جوز بيع الدرهم بالدرهمين، وتقليد من حرمه.

وتقليد من أوجب الغسل من الإكسال، وتقليد من أسقطه.

وتقليد من ورث ذوي الأرحام، ومن أسقطهم.

وتقليد من رأى التحريم برضاع الكبير، ومن لم يره.

وتقليد من منع تيمم الجنب، ومن أوجبه.

وتقليد من أباح لحوم الحمر الأهلية، ومن منع منها.

وتقليد من رأى النقض بمس الذكر ومن لم يره.

وتقليد من رأى بيع الأمة طلاقها، ومن لم يره.

وتقليد من وقف المولى عند الأجل، ومن لم يقفه.

وأضعاف أضعاف ذلك مما اختلف فيه أصحاب رسول الله ﷺ فإن سوغتم هذا، فلا تحتجوا بقول على قول، ومذهب على مذهب، بل اجعلوا الرجل مخيرًا في الأخذ بأي قول شاء من أقوالهم، ولا تنكروا على من خالف مذاهبكم، واتبع قول أحدهم، وإن لم تسوغوه، فأنتم أول مبطل لهذا الحديث، ومخالف له، وقائل بمقتضاه، وهذا مما لا انفكاك لكم منه.

الرابع: أن الاقتداء بهم، يحرم عليكم التقليد، ويوجب الاستدلال، وتحكيم الدليل كما كان عليه القوم رضي الله عنهم، وحينئذ فالحديث من أقوى الحجج عليكم وبالله التوفيق.

سورة الحشر

الباب الأول

قوله تعالى: ﴿ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ [الحشر:٧].

قال (ك): أي جميع البلدان التي تفتح هكذا فحكمها حكم أموال بني النضير، ولهذا قال تعالى: ﴿ **فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ** ﴾ إلى آخرها والتي بعدها فهذه مصارف أموال الفيء ووجوهه، روى الإمام أحمد عن عمر بن الخطاب قال: «كانت أموال بني النضير مما أفاء الله على رسوله مما لم يوجف المسلمون عليه بخيل

ولا ركاب فكانت لرسول الله خالصة، فكان ينفق على أهله منها نفقة سنته، وقال مرة قوت سنته وما بقي جعله في الكراع والسلاح في سبيل الله عز وجل» هكذا أخرجه أحمد هاهنا مختصرا وقد أخرجه الجماعة في كتبهم إلا ابن ماجه، والمعلوم أن ما تركه رسول الله ﷺ بعد وفاته فهو صدقة لا يرثه أحد لقوله « لا نورث ما تركنا صدقة » ولهذا فقد منع أبو بكر الصديق فاطمة مما ترك رسول الله ﷺ مستندا إلى هذا الحديث وكان أبو بكر على حق في ذلك فلما توفي أبو بكر وتولى من بعده الخلافة عمر بن الخطاب جاء بعد زمن من خلافته العباس وعلى ودخلا عليه فقال العباس: يا أمير المؤمنين (اقض بيني وبين هذا فاقبل عليهما عمر وقال: أنشدكما بالله الذي بإذنه تقوم السماء والأرض هل تعلمان أن رسول الله قال: « لا نورث ما تركنا صدقة » فقالا نعم.. ثم قال: فلما توفي رسول الله ﷺ قال أبو بكر: أنا ولي رسول الله ﷺ فجئت أنت وهذا إلى أبي بكر تطلب أنت ميراثك من ابن أخيك، ويطلب هذا ميراث امرأته من أبيها فقال أبو بكر: قال رسول الله ﷺ « لا نورث ما تركنا صدقة » والله يعلم أنه لصادق بار راشد تابع للحق فوليها أبو بكر، فلما توفي قلت أنا ولي رسول الله وولي أبي بكر فوليتها ما شاء الله أن أليها، فجئت أنت وهذا وأنتما جميع وأمركما واحد فسألتمانيها فقلت إن شئتما فأنا أدفعها إليكما على أن عليكما عهد الله أن تلياها بالذي كان رسول الله ﷺ يليها، فأخذتماها مني على ذلك ثم جئتماني لأقضي بينكما بغير ذلك، والله لا أقضي بينكما بغير ذلك حتى تقوم الساعة فإن عجزتما عنها فرداها إلي) أخرجوه من حديث الزهري به وكان اللذان سألاه أي العباس وعليا: أموال بني النظير التي كانت خالصة لرسول الله والله تعالى أعلم، وقوله تعالى: ﴿ كَيْ لا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ ﴾ أي جعلنا هذه المصارف لمال الفيء كيلا يبقى مأكلة يتغلب عليها الأغنياء ويتصرفون فيها بمحض الشهوات والآراء ولا يصرفون منه شيئا إلى الفقراء.

وقوله تعالى: ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا ﴾ أي مهما أمركم به فافعلوه، ومهما نهاكم عنه فاجتنبوه، فإنه إنما يأمر بخير وإنما ينهى عن شر.

روى ابن أبي حاتم عن مسروق قال: (جاءت امرأة إلى ابن مسعود فقالت: بلغني أنك تنهى عن الواشمة والواصلة، أشيء وجدته في كتاب الله تعالى، أو عن رسول الله ﷺ ؟

قال: بلى شيء وجدته في كتاب الله وعن رسول الله: قالت: والله لقد تصفحت ما بين دفتي المصحف فما وجدت فيه الذي تقول قال: فما وجدت فيه ﴿ **وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا** ﴾ ؟ قالت بلى قال فإني سمعت رسول الله ﷺ ينهى عن الواصلة والواشمة والنامصة قالت فلعله في بعض أهلك، قال فادخلي فانظري فدخلت فنظرت ثم خرجت قالت: ما رأيت بأسا فقال لها: أما حفظت وصية العبد الصالح ﴿ **وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ** ﴾ وقوله تعالى ﴿ **وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ** ﴾ أي اتقوه في امتثال أوامره وترك زواجره فإنه شديد العقاب لمن عصاه، وخالف أمره وأباه، وارتكب ما عنه زجره ونهاه.

فصل

قال محمد تقي الدين: قوله تعالى ﴿ **وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا** ﴾ من أعظم الحجج على إبطال التقليد فإن جميع الأحكام يجب أن نأخذها من الرسول ﷺ وكل من عداه من العلماء من عصر الصحابة إلى يوم القيامة ليس لهم إلا التبليغ ومن جعل لهم الحكم فقد اتخذهم أربابا من دون الله ؟

قال صاحب الدين الخالص ج٤ ص ٣٤٤ ما نصه:

الوجه السادس والأربعون: قولكم: قال عبد الله بن مسعود: « من كان مستنا، فليستن بمن قد مات، أولئك أصحاب محمد ».

فهذا من أكبر الحجج عليكم من وجوه:- فإنه نهي عن الاستنان بالأحياء وأنتم تقلدون الأحياء والأموات.

والثاني: أنه عين المستن بهم، بأنهم خير الخلق، وأبر الأمة، وأعلمهم، وهم الصحابة.

وأنتم معاشر المقلدين – لا ترون تقليدهم، ولا الاستنان بهم، وإنما ترون تقليد فلان وفلان، ممن هو دونهم بكثير.

الثالث: أن الاستنان بهم هو الإقتداء بهم، وهو بأن يأتي المقتدي بمثل ما أتوا به، ويفعل كما فعلوا، وهذا يبطل قبول قول أحد بغير حجة كما كان الصحابة عليه.

الرابع: أن ابن مسعود قد صح عنه النهي عن التقليد، وأن لا يكون، الرجل إمعة لا بصيرة له، فعلم أن الاستنان عنده غير التقليد.

الباب الثاني

قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١٩﴾ لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الحشر:١٨-٢١].

قال (ك)، قوله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ** ﴾ أمر بتقواه وهو يشمل ما به أمر وترك ما عنه زجر، وقوله تعالى: ﴿ **وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ** ﴾ أي حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وانظروا ماذا ادخرتم لأنفسكم من الأعمال الصالحة ليوم معادكم وعرضكم على ربكم، ﴿ **وَاتَّقُوا اللَّهَ** ﴾ تأكيد ثان ﴿ **إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ** ﴾ أي اعلموا أنه سبحانه عالم بجميع أعمالكم وأحوالكم، لا تخفي عليه منكم خافية، ولا يغيب من أموركم جليل ولا حقير وقوله تعالى: ﴿ **وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ** ﴾ أي لا تنسوا ذكر الله تعالى فينسيكم العمل لمصالح أنفسكم التي تنفعكم في معادكم، فإن الجزاء من نوع العمل، ولهذا قال تعالى: ﴿ **أُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ** ﴾ أي الخارجون عن طاعة الله الهالكون يوم القيامة الخاسرون يوم معادهم، كما قال تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ** ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ **لا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ** ﴾ أي لا يستوي هؤلاء وهؤلاء في حكم الله تعالى يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿ **أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاء مَّحْيَاهُم وَمَمَاتُهُمْ سَاء مَا يَحْكُمُونَ** ﴾ وقال تعالى: ﴿ **وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلا الْمُسِيءُ قَلِيلاً مَّا**

﴿تَذَكَّرُونَ﴾. وكثيرة الآيات الدالة على أن الله تعالى يكرم الأبرار ويهين الفجار، ولهذا قال تعالى ههنا: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ أي الناجون المسلمون من عذاب الله عز وجل. وقوله تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ﴾ الآية.

قال (ك) يقول تعالى معظما لأمر القرآن، ومبيِّنًا علو قدره، وأنه ينبغي أن تخشع له القلوب وتتصدع عند سماعه، لما فيه من الوعد الحق، والوعيد الأكيد: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ أي إذا كان الجبل مع قساوته وغلظته وصممه لو سمع وفهم هذا القرآن فتدبر بما فيه لخشع وتصدع من ثقله ومن خوف الله وخشيته، فكيف بكم وقد سمعتم وفهمتم آياته ؟ وكيف يليق بكم يا أيها البشر أن لا تلين قلوبكم وتخشع وتتصدع من خشيته تبارك وتعالى ؟ ولهذا قال جلت عظمته ﴿وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ وقد ذكر في الحديث المتواتر (أن رسول الله ﷺ لما عمل له المنبر، وقد كان يوم الخطبة يقف إلى جانب جذع من جذوع المسجد، فلما وضع المنبر أول ما وضع وجاء النبي ﷺ ليخطب فجاوز الجذع إلى نحو المنبر، فعند ذلك حن الجذع وجعل يئن كما يئن الصبي الذي يسكت لما كان يسمع من الذكر والوحي عنده ففي بعض روايات هذا الحديث قال الحسن البصري بعد إيراده: فأنتم أحق أن تشتاقوا إلى رسول الله من الجذع.

فصل

قال محمد تقي الدين: كل من أعرض عن كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ فقد نسي الله وجزاؤه أن ينسيه الله مصالح نفسه أي يمهله ولا يعجل عقابه فيزداد اطمئنانًا إلى ضلاله حتى يأتيه العذاب بغتة كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُواْ بِمَا أُوتُواْ أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ (٤٤) فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُواْ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وهذا القرآن الذي وصفه الله تعالى بهذه الصفة وهي أنه لو أنزل على جبل وأعطى ذلك الجبل العقل والفهم لتصدع أي تشقق وتباينت أجزاؤه خوفا من الله تعالى فالذي لا يؤثر فيه القرآن قلبه أقسى من الجبل ولا يعود وبال ذلك

إلا عليه ومن أعرض عن الكتاب والسنة بسبب تقليد الآباء والشيوخ فقد عرض نفسه للهلاك في العاجل والآجل.

قال صاحب الدين الخالص ج٤ ص ٣٤٥ ما نصه:

الوجه السابع والأربعون: قولكم قد صح عن النبي ﷺ أنه قال: « عليكم بسنتي، وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي » وقال: « اقتدوا باللذين من بعدي ».

فهذا من أكبر حججنا عليكم، في بطلان ما أنتم عليه من التقليد، فإنه خلاف سنتهم.

ومن المعلوم بالضرورة أن أحدا منهم لم يكن يدع السنة – إذا ظهرت – لقول غيره، كائنا من كان، ولم يكن له معها قول البتة، وطريقة فرقة التقليد خلاف ذلك.

سورة الجمعة

الباب الأول

قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ۝ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ۝ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ [الجمعة:٢-٥].

قال (ك) وقوله تعالى: ﴿ **هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ** ﴾ الأميون هم العرب وتخصيص الأميين بالذكر لا ينفي من عداهم، ولكن المنة عليهم أبلغ وأكثر، كما قال تعالى: ﴿ **وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ** ﴾ وهو كذلك ذكر لغيرهم يتذكرون به، وكقوله تعالى: ﴿ **وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ** ﴾ وهذا وأمثاله لا ينافي قوله تعالى: ﴿ **قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا** ﴾ إلى غير ذلك من الآيات الدالة على عموم بعثته، صلوات الله وسلامه عليه إلى جميع الخلق، أحمرهم وأسودهم وقد تقدن تفسير ذلك في سورة الأعراف بالآيات والأحاديث الصحيحة، وهذه الآية هي مصداق إجابة دعوة إبراهيم عليه السلام: ﴿ **رَبَّنَا**

وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ فبعثه الله سبحانه وتعالى وله الحمد والمنة على حين فترة من الرسل وطموس من السبل، وقد اشتدت الحاجة إليه، ولهذا قال تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴾ وذلك أن العرب كانوا متمسكين بدين إبراهيم عليه السلام فبدلوه وغيروه وقلبوه وخالفوه واستبدلوا بالتوحيد شركا وباليقين شكا، وابتدعوا أشياء لم يأذن بها الله تعالى كما فعل أهل الكتاب الذين بدلوا كتبهم وحرفوها وأولوها. فبعث الله محمدا ﷺ بشرع كامل شامل يدعو الجميع إلى ما يقربهم إلى الجنة وما يبعدهم عن النار.

وقوله تعالى: ﴿ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ روى الإمام أبو عبد الله البخاري رحمه الله تعالى عن أبي هريرة قال كنا جلوسا عند النبي ﷺ، فأنزلت عليه سورة الجمعة ﴿ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ ﴾ قالوا: من هم يا رسول الله ؟ فلم يراجعهم حتى سئل ثلاثاً، وفينا سلمان الفارسي فوضع رسول الله يده على سلمان الفارسي، ثم قال: لو كان الإيمان عند الثريا لناله رجال – أو رجل – من هؤلاء.

ورواه مسلم والترمذي والنسائي وابن أبي حاتم وابن جرير من طرق بالسند إلى أبي هريرة به ففي هذا دليل على أن هذه السورة مدنية وعلى عموم بعثته ﷺ إلى جميع الناس ولهذا كتب كتبه إلى فارس والروم وغيرهم من الأمم يدعوهم الله عز وجل، وقال مجاهد وغيره في قوله تعالى: ﴿ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ ﴾ قال هم الأعاجم وكل من صدق النبي من غير العرب، وقوله تعالى: ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ أي ذو العزة والحكمة في شرعه وقدره.

وقوله تعالى: ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ﴾ الآية.

قال (ك): يقول تعالى ذاما لليهود الذين أعطوا التوارة وحملوها للعمل بها ثم لم يعملوا بها، مثلهم في ذلك كمثل الحمار يحمل أسفارا، أي إذا حمل كتبا لا يدري ما فيها فهو يحملها حملا حسيا لا يدري ما عليه، وكذلك اليهود في حملهم التوراة التي أوتوها حفظوها لفظا ولم يفهموها ولا عملوا بمقتضاها، بل أولوها وصرفوها وبدلوها فهم أسوأ حالا من الحمير لأن

الحمار لا فهم له، وهؤلاء لهم فهوم لم يستعملوها، ولهذا قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿ أُولَـئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَـئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ وقال تعالى هاهنا: ﴿ بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ روى الإمام أحمد عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: « من تكلم يوم الجمعة والإمام يخطب فهو كمثل الحمار يحمل أسفارا والذي يقول له أنصت ليس له جمعة ».

فصل

قال محمد تقي الدين: أخبرنا الله تعالى أن الرسول ﷺ جاء إلى الناس ليقرأ عليهم القرآن ويشرحه لهم بأقواله وأفعاله وتروكه ويزكيهم ويطهرهم بذلك من الشرك والمعاصي إذا عملوا به ويعلمهم الكتاب والحكمة: الكتاب هو القرآن. والحكمة هي السنة كما يدل عليه قوله تعالى في سورة الأحزاب ﴿ وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ ﴾ فمن تلقى الكتاب والحكمة بإيمان وإخلاص من الجماعات والأفراد أسعده الله بهما سعادة كاملة في روحه وجسمه وعاجله وآجله ومن أعرض عنهما ولم يقبلهما ولم يعمل بهما شقي شقاء تاما ومن الذين يشقون بهما المقلدون وأصحاب الطرائق والأحزاب المؤسسة على إتباع الهوى والذين غووا بالعصبية القومية والوطنية واتبعوا قول هتلر (جرمانية فوق الجميع) ومنعي ذلك أنه يسعى هو ومن اتبعه لتقوية قومه وإسعاد قومه ولا يهمه أن يشقى جميع الناس وهذه عقيدة كل مستعمر وكل ظالم.

قال صاحب الدين الخالص ج٤ ص٣٤٥ ما نصه:

الوجه الثامن والأربعون: أنه ﷺ قرن سنتهم بسنة الخلفاء الراشدين، في وجوب الإتباع، والأخذ بسنتهم ليس تقليدا لهم، بل إتباعا لرسول الله ﷺ كما أن الأخذ بالأذان لم يكن تقليدا لمن رآه في المنام، والأخذ بقضاء ما فات المسبوق من صلاته بعد سلام الإمام، لم يكن تقليدًا لمعاذ، بل إتباعا لمن أمرنا بالأخذ بذلك، فأين التقليد الذي أنتم عليه من هذا ؟

يوضحه الوجه التاسع والأربعون: أنكم أول مخالف لهذين الحديثين، فإنكم لا ترون الأخذ بسنتهم والإقتداء بهم واجبا، وليس قولهم عندكم حجة وقد صرح بعض علمائكم

أنه لا يجوز تقليدهم ويجب تقليد الشافعي، فمن العجائب احتجاجكم بشيء أنتم أشد الناس خلافا له. وبالله التوفيق.

سورة التغابن

الباب الأول

قوله تعالى: ﴿ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلۡنَاۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ﴿٨﴾ يَوۡمَ يَجۡمَعُكُمۡ لِيَوۡمِ ٱلۡجَمۡعِۖ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلتَّغَابُنِۗ وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴾ [التغابن:٨-١٠].

قال (ك) ﴿ **فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا** ﴾ يعني القرآن ﴿ **وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ** ﴾ أي فلا تخفي عليه من أعمالكم خافية، وقوله تعالى: ﴿ **يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ** ﴾ وهو يوم القيامة، سمي بذلك لأنه يجمع فيه الأولون والآخرون في صعيد واحد يسمعهم الداعي وينفدهم البصر، كما قال تعالى: ﴿ **قُلْ إِنَّ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ** ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ **ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ** ﴾ قال ابن عباس: هو اسم من أسماء يوم القيامة، وذلك أن أهل الجنة يغبنون أهل النار، وقد فسر بقوله تعالى: ﴿ **وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ** ﴾ وقد تقدم تفسير مثل هذه غير مرة.

فصل

قال محمد تقي الدين: قوله تعالى: ﴿ **فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا** ﴾ في هذا الزمان يقول الجهال الأغمار المتأثرون بالدعاية الاستعمارية استعمارا روحيا وهو شر

من الاستعمار المادي ما فائدة الإيمان بالله ورسوله أين النور الذي أنزله الله بزعمكم أيها المؤمنون فنقول لهم: اقرؤوا التاريخ العالمي لا الإسلامي وحده لأنكم لا تؤمنون بالإسلام تتيقنوا أن الإيمان بالله ورسوله والنور الذي أنزله الله وهو القرآن والسنة التي تشرحه أحدث انقلابا في جزيرة العرب لم ير الناس مثله في التاريخ فقد كان العرب ثلاثة أقسام.

القسم الشرقي: يحكمه الفرس، والقسم الغربي يحكمه البزنطيون اليونانيون والقسم الأوسط كان أهله فوضى كل قبيلة لها شيخ يتقاتلون فيما بينهم بالقتل والنهب والسبي فما الذي غير حالهم وجعلهم أمة واحدة خرجت من الشتات إلى الاجتماع ومن الجهل إلى العلم ومن الضعف إلى القوة ومن مساوئ الأخلاق إلى مكارم الأخلاق ومن كونها محكومة إلى كونها حاكمة ومن التوحش إلى أعلى درجات المدنية وسبب ذلك هو الإيمان بالله ورسوله والنور الذي انزله الله وقد تقدم نقل الكلام الملحد الكبير الذي هو عدو جميع الأديان، جوزيف ماك كيب الذي ترجمت كتابه وقد تقدم ذكر قريبا اعترف بأن دعوة محمد والقرآن هو الذي نفخ في العرب روح الحياة وفتح بصائرهم لتحصيل المدنية وقد نقل هذا الرأي عن جميع العلماء الأحرار من الأوروبيين والأمريكيين وهو واضح ومن أراد اليقين فليقرأ كتابي مدنية المغربية في أسبانيا فأنتم ترون الأوروبيين الذين تحاولون تقليدهم كما يقلد القرد الإنسان والصبيان الرجال بلا علم ولا عقل اعترفوا بهذا النور فجحدكم له أنتم جهل وتأثر بالدعاية الكاذبة وإذا اعترفت الرؤوس فلا عبرة بالأذناب هكذا نقول للمتملحدين ولا نسميهم ملاحدة لأن الملحد الحقيقي هو الذي يدرس التاريخ العالمي ويدرس المعتقدات والنحل حتى يقتلها بحثًا ولا يستطيع عقله أن يقبل شيئًا منها أما الجاهل المتأثر بالدعاية الكاذبة بلا دراسة ولا علم فإنه كاذب في ادعاء الإلحاد وإنما يسمى متملحدا كما يقال للشباب الذي يتظاهر بأنه شيخ تمشيخ قال الشاعر:

اعوذ بالله من أناس	تمشيخوا قبل أن يشيخوا
تقوسوا وانحنوا رياء	فاحذرهم أنهم فخوخ

وأما المقلدون وأصحاب الطرائق القدد فنقول لهم: أنتم معترفون بأن القرآن والسنة نور

وزعمتم أنكم تؤمنون بهما ولكن تقليدكم لشيوخكم أعمى بصائركم وأبطل تفكيركم فاتخذتم شيوخكم أربابا من دون الله تعرضون آيات الكتاب وسنن الرسول على آرائهم فما وافق قبلتموه وما خالف تحيلتم في رده فتقليدكم هو سبب شقائكم وعن قريب تندمون حين لا ينفع الندم إذا وضعتم في قبوركم وأهيل عليكم التراب وغاب عنكم الأحباب وبقيتم مستوحشين تجيئكم ملائكة الله تعالى فيقول لكم الملك: ما علمك بهذا الرجل يعني محمدا رسول صلوات الله وسلامه عليه فماذا تجيبون ؟ تجيبون بما أخبر به الرسول ﷺ هاه هاه لا أدري سمعت الناس يقولون شيئا فقلته فتجيبكم ملائكة السؤال: لا دريت ولا تليت وتعذبون في قبوركم وفي البرزخ وفي المحشر ومأواكم جهنم وبئس المصير وهذا شيء من معنى الحديث الصحيح الذي رواه البخاري من حديث أسماء بنت أبي بكر الصديق م قالت سمع رسول الله ﷺ يقول في خطبة الاستسقاء: وأوحى إلى أنكم تفتنون في قبوركم مثل أو قريبا من فتنة المسيح الدجال يقال ما علمك بهذا الرجل فأما المؤمن أو الموقن قال الراوي لا أدري أيهما قالت أسماء فيقول هو محمد جاءنا بالبينات فآمنا به واتبعناه هو محمد هو محمد هو محمد: فيقال له نم صالحا قد علمنا إن كنت لموقنا به وأما المنافق أو المرتاب قال الراوي لا أدري أيهما قالت أسماء، فيقول: هاه هاه لا أدري سمعت الناس يقولون شيئا فقلته الحديث » وهذا هو المقلد بعينه.

قال صاحب الدين الخالص ج٤ ص ٣٤٦ ما نصه:

الوجه الخمسون: إن الحديث – بجملته – حجة عليكم من كل وجه، فإنه أمر – عند كثرة الاختلاف – بسنته، وسنة خلفائه، وأمرتم – أنتم – برأي فلان ومذهب فلان – الثاني: أنه حذر من محدثات الأمور، وأخبر أن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة.

ومن المعلوم بالاضطرار أن ما أنتم عليه من التقليد الذي ترك له كتاب الله وسنة رسوله، ويعرض القرآن والسنة عليه، ويجعل معيارا عليهما، من أعظم المحدثات والبدع، التي برأ الله سبحانه القرون التي فضلها، وخيرها على غيرها، منها، وبالجملة فما سنه الخلفاء الراشدون أو أحدهم للأمة. فهو حجة لا يجوز العدول عنها، فأين هذا من قول فرقة التقليد: ليست سنتهم حجة، ولا يجوز تقليدهم فيها، بوجه الحادي والخمسون: أنه ﷺ قال في نفس

هذا الحديث: « فإنه من يعيش من بعدي، فسيرى اختلافا كثيرا ». وهذا ذم للمختلفين، وتحذير من سلوك سبيلهم، وإنما كثر الاختلاف، وتفاقم أمره بسبب التقليد وأهله، الذين فرقوا الدين، وصيروا أهله شيعا، كل فرقة تنصر متبوعها، وتدعو إليه وتذم من خالفها، ولا يرون العمل بقولهم، حتى كأنهم ملة أخرى سواهم، يدأبون ويكدحون في الرد عليهم، ويقولون: كتبهم وكتبنا، وأئمتهم وأئمتنا، ومذهبهم ومذهبنا.

هذا والنبي واحد، والقرآن واحد والدين واحد، والرب واحد فالواجب على الجميع أن ينقادوا إلى كلمة سواء بينهم كلهم، وإن لا يطيعوا إلا الرسول، ولا يجعلوا معه من يكون أقواله كنصوصه، ولا يتخذ بعضهم بعضا أربابا، فلو اتفقت كلمتهم على ذلك، وانقاد كل واحد منهم لمن دعاه إلى الله ورسوله، وتحاكموا كلهم إلى السنة، وآثار الصحابة، لقل الاختلاف، وإن لم ينعدم من الأرض.

ولهذا تجد أقل الناس اختلافا، أهل السنة والحديث، فليس على وجه الأرض طائفة أكثر اتفاقاً، وأقل اختلافا منهم، لما بنوا على هذا الأصل، وكلما كانت الفرقة عن الحديث أبعد، كان اختلافهم في أنفسهم أشد وأكثر، فإن من رد الحق، مرج عليه أمره واختلط عليه، والتبس عليه وجه الصواب فلم يدر أين يذهب، كما قال تعالى: ﴿ **بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيجٍ** ﴾.

سورة الطلاق

الباب الأول

قوله تعالى: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ

خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۖ قَدۡ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزۡقًا ﴾ [الطلاق:٨-١١].

قال (ك) يتوعد الله تعالى من يخالف أمره ويكذب رسله ويسلك غير ما شرعه. ومخبرا عما حل بالأمم السالفة بسبب ذلك فقال تعالى: ﴿ **وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ** ﴾ أي تمردت على إتباع أمر الله تعالى ومتابعة رسله ﷺ ﴿ **فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُكْرًا** ﴾ أي منكرًا فظيعًا ﴿ **فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا** ﴾ بعد مخالفتها وندموا حيث لا ينفع الندم ﴿ **وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا** ﴾ أي في الدار الآخرة مع ما حل بهم من العذاب في الدنيا ثم قال تعالى بعدما قص من خبر هؤلاء ﴿ **فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ** ﴾ أي الأفهام المستقيمة لا تكونوا مثلهم فيصيبكم ما أصابهم يا أولى الألباب ﴿ **الَّذِينَ آمَنُوا** ﴾ أي صدقوا بالله ورسله.

وقوله تعالى: ﴿ **قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا** ﴾ يعني القرآن وقوله تعالى: ﴿ **رَّسُولاً يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ** ﴾ أي الرسول ترجمة عن الذكر أي واضحة ﴿ **لِّيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ** ﴾ كقوله تعالى: ﴿ **اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّوُرِ** ﴾ أي من ظلمات الكفر والجهل، إلى نور الإيمان والعلم، وقد سمى الله تعالى الوحي الذي أنزله نورا، لما يحصل به من الهدى كما سماه روحا، لما يحصل به حياة القلوب، وقوله تعالى: ﴿ **وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا** ﴾ قد تقدم تفسير مثل هذا أكثر من مرة بما أغنى عن إعادته ولله الحمد والمنة.

فصل

قال محمد تقي الدين: أعيد وأكرر أن كل شعب أو امة أو فرد بلغه أمر ربه بواسطة رسل الله تعالى فعصى أمره وكذب رسله يعذبه الله في هذه الدنيا عذابا أليما ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون ولا يفلح أبدا فإن قلت هذه الأمم الأوربية نراها تعيش في سعادة دنيوية عزيزة منصورة موسعا عليها في الرزق مع أنها عتت عن أمر ربها فالجواب من بلغها الإسلام على وجهه ونحن نعلم أن ارتقاءها بدأ عند انحطاط المسلمين ورجوعهم إلى الوراء

أقرأ المدنية المغربية في أسبانيا ترجمة مصنف هذا الكتاب وقد تقدم ذكره وقوله تعالى ﴿ **فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا رَّسُولاً يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ** ﴾ الذكر هو التذكرة والتبصرة والذي جاء بها هو الرسول ﷺ ومعه كتاب الله فمن اتبع الكتاب والسنة خرج من الظلمات إلى النور ومن أعرض عنهما بعد أن قامت عليه حجة الله خرج من النور إلى الظلمات ومن الحياة إلى الموت إن كان قبل ذلك حيا والمقلد الذي يرد نصوص الوحي تعصبا لمن قلده أو يتحيل في ردها بادعاء النسخ أو يقول إمامي أعلم بها ما تركها إلا لعلة تارك للنور متخبط في الظلمات.

قال صاحب الدين الخالص ج ٤ ص٣٤٧ ما نصه:

الوجه الثاني والخمسون: قولكم: إن عمر كتب إلى شريح: أن أقض بما في كتاب الله، فإن لم يكن في كتاب الله فبما في سنة رسول الله، فإن لم يكن في سنة رسول الله، فبما قضى به الصالحون ؟

فهذا من أظهر الحجج على بطلان التقليد، فإنه أمر أن يقدم الحكم بالكتاب على كل ما سواه، فإن لم يجده في الكتاب، ووجده في السنة لم يلتفت إلى غيرها، فإن لم يجده في السنة، قضى بما قضى به الصحابة.

ونحن نناشد الله فرقة التقليد، هل هم كذلك، أو قريب من ذلك ؟ وهل إذا نزلت بهم نازلة حدث أحد منهم نفسه، أن يأخذ حكمها من كتاب الله ثم ينفذه، فإن لم يجدها في كتاب الله، أخذها من سنة رسول الله ﷺ فإن لم يجدها في السنة، أفتى فيها بما أفتى به الصحابة ؟

والله يشهد عليهم وملائكته، وهم شاهدون على أنفسهم بأنهم إنما يأخذون حكمها من قول من قلدوه.

وإن استبان لهم في الكتاب، أو السنة، أو أقوال الصحابة، خلاف ذلك، لم يلتفتوا إليه، ولم يأخذوا بشيء منه إلا بقول من قلدوه.

فكتاب عمر من أشد الأشياء إبطالا وكسرا لقولهم. وهكذا كان سير السلف المستقيم، وهديهم القويم.

سورة التحريم

الباب الأول

قوله: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَـٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [التحريم:٦].

قال (ك) يقول تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا** ﴾ أي تأمر نفسك وأهلك من زوجة وولد وإخوان وقرابة وإماء وعبيد بطاعة الله، وتنهي نفسك وجميع من تعول، عن معصية الله تعالى، وتعلمهم وتؤدبهم، وأن تقوم عليهم بأمر الله، وتأمرهم به وتساعدهم عليه فإذا رأيت معصية، قذعتهم وزجرتهم عنها وهذا حق على كل مسلم أن يعلم من هم تحت إمرته وما فرض الله عليهم وما نهاهم الله عنه، وفي معنى هذه الآية الحديث الذي رواه أحمد وأبو داوود عن الربيع بن سبرة قال: قال رسول الله ﷺ: « مروا الصبي بالصلاة إذا بلغ سبع سنين فإذا بلغ عشر سنين فاضربوه عليها» وهذا لفظ أبي داوود وقال الترمذي هذا حديث حسن، قال: الفقهاء: وهكذا في الصوم ليكون ذلك تمرنًا له على العبادات لكي يبلغ وهو مستمر على العبادة والطاعة، ومجانبة المعصية وترك المنكر، والله الموفق وقوله تعالى: ﴿ **وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ** ﴾ أي حطبها الذي يلقي فيه جثث بني آدم ﴿ **وَالْحِجَارَةُ** ﴾ قيل الأصنام وقال ابن مسعود وغيره: حجارة من كبريت زاد مجاهد: أنتن من الجيفة، رواه ابن أبي حاتم.

وقوله تعالى: ﴿ **عَلَيْهَا مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدَادٌ** ﴾ أي غلاظ الطباع، نزع الله من قلوبهم الرحمة بالكافرين ﴿ **شِدَادٌ** ﴾ أي تركيبهم في غاية الشدة والكثافة والمنظر المزعج مظلمة وجوههم كالحة أنيابهم ليس في قلب واحد منهم مثقال ذرة من الرحمة ؟

وقوله تعالى: ﴿ **لا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ** ﴾ أي لا يتأخرون عن أمر الله طرفة عين وهم قادرون على ذلك ما بهم عجز عنه وهؤلاء الزبانية – عياذًا بالله منهم.

فصل

قال محمد تقي الدين: أمرنا الله تعالى أن نحفظ أنفسنا وأهلنا من النار بطاعة الله ورسوله

بالنسبة إلى أنفسنا وبأمر أهلنا بذلك وقد قال النبي ﷺ كلكم راع وكل راع مسؤول عن رعيته. الرجل راع في أهل بيته وهو مسؤول عن رعيته والمرأة راعية وفي بيت زوجها وهي مسؤولة عن رعيتها والعبد راع في مال سيده وهو مسؤول عن رعيته فواجب الرعاية يقضي علينا أن نأمر أهل بيتنا بطاعة الله تعالى وطاعة رسوله ﷺ فإذا أهملناهم استحققنا العذاب وهذا هو الواقع في هذا الزمان في أكثر الناس حتى علماء الدين قل أن تجد عالمًا قد ربى أبناءه وبناته على طاعة الله ورسوله وهذا من أسباب شقاء المسلمين وطاعة الله ورسوله تقتضي العمل بكتاب الله وبما صح عن نبيه ﷺ فمن رد شيئًا من ذلك فهو عاص لله تعالى ولرسوله ومن يعص الله ورسوله فإن له نار جهنم خالدين فيها أبدًا والمقلد وصاحب الطريقة والمنتسب إلى الحزب السياسي والمتعصب لوطنه أو قومه لابد أن يرد شيئًا من الكتاب والسنة لأن متبوعه غير معصوم من الخطأ والجهل ببعض الأحكام وهو قد التزم طاعته وإن خالف رأيه الكتاب والسنة فنحمدك اللهم على العافية يارب زدنا إيمانًا واتباعًا لكتابك وسنة نبيك الكريم.

قال صاحب الدين الخالص ج٤ ص٣٥٢ ما نصه:

الوجه الثالث والخمسون: قولكم: منع عمر من بيع أمهات الأولاد، وتبعه الصحابة وألزم بطلاق الثلاث وتبعوه أيضًا، جوابه من وجوه:

أحدها: أنهم لم يتبعوه كلهم، فهذا ابن مسعود يخالفه في أمهات الأولاد، وهذا ابن عباس يخالفه في الإلزام بالطلاق الثلاث، وإذا اختلف الصحابة وغيرهم، فالحاكم هو الحجة.

الثالث: أنه ليس في إتباع قول عمر في هاتين المسألتين وتقليد الصحابة – لو فرضنا له في ذلك – ما يسوغ تقليد من هو دونه بكثير، في كل ما يقوله، وترك قول ما هو مثله، ومن هو فوقه، وأعلم منه، فهذا من أبطل الاستدلال وهو تعلق ببيت العنكبوت ؟ فقلدوا عمر، واتركوا تقليد فلان وفلان.

فأما أنتم تصرحون بأن عمر لا يقلد، وأبو حنيفة، والشافعي، ومالك يقلدون، فلا يمكنكم الاستدلال بما أنتم مخالفون له، فكيف يجوز للرجل أن يحتج بما لا يقول به ؟

الوجه الرابع والخمسون: قولكم: أن عمرو بن العاص قال لعمر – لما احتلم – خذ ثوبًا غير ثوبك، فقال: لو فعلت صارت سنة، فأين في هذا من الأذن من عمر في تقليده، والإعراض عن كتاب الله وسنة رسوله.

وغاية هذا أنه تركه لئلا يقتدي به من يراه يفعل ذلك ويقول: لولا أن هذا سنة رسول الله ﷺ ما فعله عمر.

فهذا هو الذي خشيه عمر، والناس مقتدون بعلمائهم شاؤوا أو أبوا، فهذا هو الواقع، وإن كان الواجب فيه تفصيل.

سورة الملك

الباب الأول

قوله تعالى: ﴿ إِذَآ أُلۡقُواْ فِيهَا سَمِعُواْ لَهَا شَهِيقٗا وَهِيَ تَفُورُ ۝٧ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلۡغَيۡظِۖ كُلَّمَآ أُلۡقِيَ فِيهَا فَوۡجٞ سَأَلَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَذِيرٞ ۝٨ قَالُواْ بَلَىٰ قَدۡ جَآءَنَا نَذِيرٞ فَكَذَّبۡنَا وَقُلۡنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ كَبِيرٖ ۝٩ وَقَالُواْ لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ [الملك:٧-١٠].

قال (ك): يقول تعالى: ﴿ **إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا** ﴾ يعني صياحًا ﴿ **وَهِيَ تَفُورُ** ﴾ تغلي بهم وقوله تعالى: ﴿ **تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ** ﴾ أي يكاد ينفصل بعضها من بعض من شدة غيظها عليهم ﴿ **كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ فِي ضَلالٍ كَبِيرٍ** ﴾ يذكر تعالى عدله في خلقه وأنه لا يعذب أحدًا إلا بعد قيام الحجة عليه وإرسال الرسول إليه كما قال تعالى: ﴿ **وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً** ﴾ وهكذا عادوا على أنفسهم بالملامة وندموا حيث لا تنفعهم الندامة فقالوا: ﴿ **لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ** ﴾ روي الإمام أحمد بسنده إلى من سمعه من رسول الله ﷺ: « لا يدخل أحد النار إلا وهو يعلم النار أولى به من الجنة ».

فصل

قال محمد تقي الدين: فهمنا من هذا الكلام أن خزنة جهنم يقولون لكل جماعة تدخل النار ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴾ ألم تبلغكم دعوة رسول من الرسل فيجيبون بقولهم: بلى، قد جاءنا نذير فكذبناه وقلنا له ما أنزل الله عليك من شيء بل أنت ضال كاذب وفرق التقليد وأصحاب الطرائق يقولون للرسول بلسان الحال وهو أبلغ من لسان المقال: أنت صادق آمنّا بأن الله أنزل عليك كتابه وبعثك إلينا رسولاً وجعلك علينا حجة ولكننا قد اتخذنا إمامًا من أمتك نعترف أنه يجوز عليه الخطأ والنسيان والجهل ويجوز كذلك عليه أن يزل فنحن نعرض ما جئت به على مذهب إمامنا فما وافقه قبلناه وما خالفه تحيلنا في رده وعادينا من يأخذ به وحاربناهم وسميناهم وهابية وأصحاب مذهب خامس فلا جرم أن هؤلاء أيضًا إذا لم يتوبوا وبقوا على اعتقادهم إلى الممات يدخلون جهنم ويجري عليهم ما جرى على المكذبين راجع تفسير قوله تعالى: ﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ ﴾ في آخر سورة النور من هذا الكتاب.

قال صاحب الدين الخالص ج٤ ص٣٥٣ ما نصه:

الوجه الخامس والخمسون: قولكم قد قال أبي: وما اشتبه عليك فكله إلى عالمه، فهذا حق. وهو الواجب على من سوى الرسول. فإن كل أحد بعد الرسول لابد أن يشتبه بعض ما جاء به، وكلما اشتبه عليه شيء، وجب عليه أن يكله إلى من هو أعلم منه فإن تبين له، صار عالمًا مثله وإلا وكله إليه ولم يتكلف ما لا علم له به فهذا هو الواجب علينا في كتاب ربنا وسنة نبينا، وأقوال أصحابه، وقد جعل الله، سبحانه، فوق كل ذي علم عليما.

فمن خفي عليه بعض الحق فوكله إلى من هو أعلم منه، فقد أصاب، فأي شيء في هذا من الإعراض عن القرآن، والسنن، وآثار الصحابة واتخاذ رجل بعينه معيارًا على ذلك، وترك النصوص لقوله، وعرضها عليه، وقبول كل ما أفتى به، ورد كل ما خالفه !.

وهذا الأثر نفسه، من أكبر الحجج على بطلان التقليد، فإن أوله: « ما استبان لك فاعمل به، وما اشتبه عليك فكله إلى عالمه ».

ونحن نناشدكم الله إذا استبانت لكم السنة، هل تتركون قول من قلدتموه لها، وتعملون بها، وتفتون أو تقضون بموجبها، أم تتركونها وتعدلون عنها إلى قوله، وتقولون: هو أعلم بها

منا ؟ فأبى مع سائر الصحابة على هذه الوصية، وهي مبطلة للتقليد قطعًا، وبالله التوفيق.

ثم نقول: هلا وكلتم ما اشتبه عليكم من المسائل إلى عالمها من أصحاب رسول الله ﷺ إذ هم أعلم الأمة وأفضلها ؟ ثم تركتم أقوالهم وعدلتم عنها ؟ فإن كان من قلدتموه ممن يوكل ذلك إليه، فالصحابة أحق أن يوكل ذلك إليهم ؟

سورة القلم

الباب الأول

قوله تعالى: ﴿ فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ ۖ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ۝ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴾ [القلم:٤٤، ٤٥].

قال (ك): وقوله تعالى: ﴿ **فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ** ﴾ يعني القرآن، وهذا تهديد شديد، أي دعني وإياه أنا أعلم به منه كيف استدرجه وأمده في غيه وأنظره ثم آخذه أخذ عزيز مقتدر، ولهذا قال سبحانه ﴿ **سنستدرجهم مِّنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ** ﴾ أي وهم لا يشعرون، بل يعتقدون أن ذلك كرامة من الله، وهو في حقيقة الأمر إهانة، كما قال تعالى: ﴿ **فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُواْ بِمَا أُوتُواْ أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ** ﴾ ولهذا قال هاهنا ﴿ **وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ** ﴾ أي وأؤخرهم وأمدهم وذلك من كيدي ومكري بهم ولهذا قال تعالى: ﴿ **إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ** ﴾ أي عظيم لمن خالف أمري وكذب رسلي واجترأ على معصيتي: وفي الصحيحين: عن رسول الله ﷺ أنه قال: « إن الله تعالى ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته » ثم قرأ: ﴿ **وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ** ﴾.

فصل

قال محمد تقي الدين: تقدم أن المقلدين وأصحاب الطرائق القدد لا يصرحون بتكذيب الكتاب والسنة ولكنهم في الواقع يعاملونهما معاملة المكذبين ولابد أن يعذبهم الله في الدنيا والآخرة إن لم يتوبوا قبل الموت فالمقلد يقول إمامي إمامي. مذهبي مذهبي لا أحيد عنه قيد

شعرة كنت أصلي في المسجد النبوي قبل ثلاث سنين تقريبًا وكان إلى جانبي شخص يصلي النافلة فأقيمت الصلاة الفريضة وبقي مستمرًا في نفله حتى أكمله بعد ركوع الإمام ورفعه من الركوع فقلت له بلطف. يا أخي، كان ينبغي لك أن تسلم وتدخل مع الإمام وبعبارة أخرى أن تقطع النافلة قال رسول الله ﷺ: « إذا أقيمت الصلاة فلا صلاة إلا المكتوبة » وفي حديث آخر: « فلا صلاة إلا التي أقيمت » فقال لي بغضب مذهب أبي حنيفة سيد المذاهب والمغاربة جهال وصلاتهم وفاسدة فقلت له أنا لا أدافع عن المغاربة وإنما أدافع عن سنة النبي ﷺ فازداد لجاجًا فأعرضت عنه وأما صاحب الطريقة فيؤمن بما يقوله شيوخه أن علماء الرسوم والأوراق والروايات إنما يعلمون قشور الشريعة ونحن نعرف الحقيقة التي هي لباب الشريعة فإذا قال لك. علماء الظاهر: حدثني أبي عن جدي فقل لهم حدثني قلبي عن ربي ومراده بحدثني أبي عن جدي مثلاً حديث على بن الحسين عن أبيه الحسين عن جده على بن أبي طالب عن النبي ﷺ وعليهم ومعنى هذا أن غلاة المتصوفة يزعمون أنهم يأخذون العلم عن الله بدون وساطة الرسول ﷺ أعني علم الشريعة وهذا كفر بإجماع المسلمين.

قال صاحب الدين الخالص ج٤ ص٣٥٤ ما نصه:

الوجه السادس والخمسون: قولكم: كان الصحابة يفتون ورسول الله ﷺ بين أظهرهم، وهذا تقليد للمستفتين لهم.

فجوابه أن فتواهم إنما كانت تبليغًا عن الله ورسوله، وكانوا بمنزلة المخبرين فقط، لم تكن فتواهم تقليدًا لرأي فلان وفلان، وإن خالفت النصوص فهم لم يكونوا يقلدون فتواهم ولا يفتون بغير النصوص، ولم يكن المستفتي لهم يعتمد إلا على ما يبلغونه إياه عن نبيهم، فيقولون: أمر بكذا، وفعل كذا، ونهى عن كذا.

هكذا كانت فتواهم، فهي حجة على المستفتين. كما هي حجة عليهم، ولا فرق بينهم، وبين المستفتين لهم في ذلك إلا في الواسطة بينهم وبين الرسول وعدمها، والله ورسوله وسائر أهل العلم يعلمون أنهم وأن مستفتيهم لم يعلموه إلا بما علموه عن نبيهم، وشاهدوه، وسمعوه منه، هؤلاء بواسطة، وهؤلاء بغير واسطة.

ولم يكن فيهم من يأخذ قول واحد من الأمة، يحلل ما حلله، ويحرم ما حرمه، ويستبيح ما أباحه.

وقد أنكر النبي ﷺ على من أفتى بغير السنة منهم، كما أنكر على ابن أبي السنابل وكذبه، وأنكر على من أفتى برجم الزاني البكر.

وأنكر على من أفتى باغتسال الجريح حتى مات، وأنكر على من أفتى بغير علم، كمن يفتي بما لم يعلم صحته، وأخبر أن إثم المستفتي عليه.

فإفتاء الصحابة في حياته نوعان:

أحدهما: كان يبلغه، ويقرهم عليه، فهو حجة بإقراره، لا بمجرد إفتائهم.

الثاني: ما كانوا يفتون به، مبلغين له عن نبيهم، فهم فيه رواة لا مقلدون ولا مقلدون.

سورة الحاقة

الباب الأول

قوله تعالى: ﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَاعِرٍۚ قَلِيلًا مَّا تُؤۡمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوۡلِ كَاهِنٍۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوۡ تَقَوَّلَ عَلَيۡنَا بَعۡضَ ٱلۡأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذۡنَا مِنۡهُ بِٱلۡيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعۡنَا مِنۡهُ ٱلۡوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ عَنۡهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِنَّهُۥ لَتَذۡكِرَةٞ لِّلۡمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَعۡلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَسۡرَةٌ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلۡيَقِينِ ﴿٥١﴾ فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ ﴾ [الحاقة:٣٨-٥٢].

قال (ك): يقول تعالى مقسمًا لخلقه بما يشاهدونه من آياته في مخلوقاته الدالة على كماله في أسمائه وصفاته، وما غاب عنهم مما لا يشاهدونه من المغيبات عنهم: أن القرآن كلامه ووحيه وتنزيله على عبده ورسوله الذي اصطفاه لتبليغ الرسالة وأداء الأمانة، فقال تعالى: **﴿ فلا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ وَمَا لا تُبْصِرُونَ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾** يعني محمدًا ﷺ إضافة إليه على معنى التبليغ، لأن الرسول من شأنه أن يبلغ عن المرسل. **﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً**

﴿ مَا تُؤْمِنُونَ وَلا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ ﴾ روي الإمام أحمد بسنده إلى عمر بن الخطاب قال: « خرجت أتعرض لرسول الله ﷺ قبل أن أسلم فوجدته قد سبقني إلى المسجد فقمت خلفه فاستفتح سورة الحاقة فجعلت أعجب من تأليف القرآن قال: فقلت: هذا والله شاعر كما قالت قريش، قال فقرأ: ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَا تُؤْمِنُونَ ﴾ قال فقلت كاهن قال: فقرأ: ﴿ وَلا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴾ إلى آخر السورة قال فوقع الإسلام في قلبي كل موقع » فهذه جملة الأسباب التي جعلها الله تعالى مؤثرة في هداية عمر بن الخطاب كما أوردنا كيفية إسلامه في سيرته المفردة، ولله الحمد والمنة.

وقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ ﴾ إلى آخر السورة.

قال (ك) يقول تعالى: ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا ﴾ أي محمد ﷺ لو كان كما يزعمون مفتريًا علينا فزاد في الرسالة أو نقص منها، أو قال شيئًا من عنده فنسبه إلينا وليس كذلك لعاجلناه بالعقوبة، ولهذا قال تعالى: ﴿ لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴾ لانتقمنا منه باليمين لأنها أشد في البطش ﴿ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴾ وهو نياط القلب أي العرق المعلق فيه القلب، وقوله تعالى: ﴿ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴾ أي فما يستطيع أحد منكم أن يحجز بيننا وبينه، والمعنى: بل هو صادق بار راشد لأن الله عز وجل مقرر له ما يبلغه عنه ومؤيد له بالمعجزات الباهرات.

ثم قال تعالى: ﴿ وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ يعني القرآن كما قال تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ﴾ ثم قال: ﴿ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴾ أي مع هذا البيان والوضوح سيوجد منكم من يكذب بالقرآن ثم قال تعالى: ﴿ وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ أي أن القرآن والإيمان به لحسرة في نفس الأمر على الكافرين ﴿ وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ ﴾ أي أنه الخبر الصدق الحق الذي لا شك فيه ثم قال: ﴿ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾ أي الذي أنزل القرآن العظيم.

فصل

قال محمد تقي الدين: برأ الله نبيه ﷺ مما اتهمه به الكفار من زعمهم أنه شاعر أو كاهن وأخبر أن هذا القرآن ليس شعرًا ولا كهانة وإنما هو تذكرة أي موعظة بليغة ولكن لا ينتفع بها إلا المتقون الذين لم يمنعهم الحسد ولا الهوى من إتباع الحق واجتناب الباطل فالكبر والحسد وإتباع الهوى هذه الصفات الخبيثة منعت الناس في كل زمان ومكان من إتباع القرآن والاهتداء به وهذه الصفات نفسها هي التي منعت المقلدين وأصحاب الطرائق الجهال والشيوخ المحتالين من إتباع القرآن الذي هو حبل الله المتين من تركه تجبرًا قصمه الله ومن ابتغى الهدي في غيره أضله الله وأي عاقل يقدم مختصر خليل المالكي وكتاب الهداية الحنفي وكتاب المنهاج الشافعي على كتاب الله وسنة رسوله إلا شقي ضال مضل.

قال صاحب الدين الخالص ج٤ ص٣٥٥ ما نصه:

الوجه السابع والخمسون: قولكم: وقال قال تعالى ﴿ **فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ** ﴾ فأوجب قبول نذارتهم، وذلك تقليد لهم.

جوابه من وجوه:

أحدها: أن الله سبحانه إنما أوجب عليهم قبول ما أنذروهم به من الوحي، الذي ينزل في غيبتهم على النبي ﷺ في الجهاد.

فأين في هذا حجة فرقة التقليد على تقديم آراء الرجال على الوحي ؟

الثاني: أن الآية حجة عليهم ظاهرة، فإنه سبحانه نوع عبوديتهم وقيامهم بأمره إلى نوعين:

أحدهما: نفير الجهاد، والثاني: التفقه في الدين.

وجعل قيام الدين بهذين الفريقين، وهم الأمراء والعلماء، أهل الجهاد، وأهل العلم.

فالنافرون يجاهدون عن القاعدين، والقاعدون، يحفظون العلم للنافرين، فإذا رجعوا من نفيرهم استدركوا ما فاتهم من العلم بإخبار من سمعه من رسول الله ﷺ، وهنا للناس في الآية قولان:

أحدهما: أن المعنى: فهلا نفر من كل فرقة طائفة تتفقه وتنذر القاعدة، فيكون المعنى في طلب العلم، وهذا قول الشافعي وجماعة من المفسرين واحتجوا به على قبول خبر الواحد، لأن الطائفة لا يجب أن تكون عدد التواتر.

والثاني: أن المعنى: فلولا نفر من كل فرقة طائفة تجاهد لتتفقه القاعدة، وتنذر النافرة للجهاد إذا رجعوا إليهم، ويخبروهم بما نزل بعدهم من الوحي، وهذا قول الأكثرين، وهو الصحيح، لأن النفير إنما هو الخروج للجهاد، كما قال النبي ﷺ: « وإذا استنفرتم فانفروا ».

وعلى كلا القولين، فليس في الآية ما يقتضي صحة القول بالتقليد المذموم، بل هي حجة على فساده وبطلانه، فإن الإنذار إنما يقوم بالحجة، فمن لم يقم الحجة، لم يكن قد أنذر، كما أن النذير من أقام الحجة فمن لم يأت بحجة فليس بنذير، فإن سميتم ذلك تقليدًا، فليس الشأن في الأسماء.

ونحن لا ننكر التقليد بهذا المعنى، فسموه ما شئتم، وإنما ننكر نصب رجل معين، يجعل قوله عيارًا على القرآن والسنن، فما وافق قوله منها قبل، وما خالفه لم يقبل، ويقبل قوله بغير حجة: ويرد قول نظيره أو أعلم منه والحجة معه، فهذا الذي أنكرناه، وكل عالم على وجه الأرض يعلن بإنكاره وذم أهله.

سورة المعارج

الباب الأول

قوله تعالى: ﴿ فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ﴿٣٦﴾ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ﴿٣٧﴾ أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴿٣٨﴾ كَلَّآ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٤١﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُواْ وَيَلْعَبُواْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴾ [المعارج:٣٦-٤٤].

قال (ك): ينكر الله على الكفار الذين تفرقوا عن رسول الله ﷺ، فرقًا فرقا مع أنهم كانوا في زمانه وشاهدوه وما أيده الله به من المعجزات الباهرات. فيقول الله: ﴿ **فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ** ﴾ أي نافرين منك منطلقين بسرعة ﴿ **عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ** ﴾ معرضين متفرقين يمينًا وشمالاً يقولون: ما قال هذا الرجل ؟ وعن جابر بن سمرة أن رسول الله ﷺ خرج عليهم وهم حلق فقال: « مالي أراكم عزين » - أي متفرقين حلقًا حلقا - رواه أحمد ومسلم وأبو داوود وغيرهم.

وقوله تعالى: ﴿ **أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ كَلاَّ** ﴾ أي أيطمع هؤلاء، والحالة هذه من فرارهم عن رسول الله ﷺ، ونفارهم عن الحق أن يدخلوا جنة النعيم ؟ كلا بل مأواهم جهنم، ثم قال تعالى مقررًا وقوع المعاد والعذاب بهم الذي أنكروه واستبعدوا وجوده، مستدلاً عليهم بالبداءة التي الإعادة أهون منها، وهم معترفون بها، فقال تعالى: ﴿ **إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ** ﴾ أي من المني الضعيف كما قال تعالى: ﴿ **أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاء مَّهِينٍ** ﴾ ثم قال: ﴿ **فَلا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ** ﴾ أي بخالق السموات والأرض والنجوم التي تبدوا من مشارقها وتغيب في مغاربها تقدير الكلام أن البعث والنشور والحساب كل ذلك واقع لا محالة ولا يمنعه إنكارهم ولهذا أتى: « بلا » في ابتداء القسم ليدل على أن المقسم عليه نفي أي: لا.. ليس الأمر كما تزعمون: « أقسم » وقد شاهدوا من عظيم قدرة الله تعالى ما هو أبلغ من إقامة القيامة: ولهذا قال: ﴿ **لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ** ﴾ وقال تعالى: ﴿ **أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَى وَهُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ** ﴾. وقال ههنا: ﴿ **فَلا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ عَلَى أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ** ﴾ أي يوم القيامة بأبدان خير من هذه ﴿ **وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ** ﴾ أي بعاجزين، كما قال تعالى: ﴿ **أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَلَّن نَجْمَعَ عِظَامَهُ بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ** ﴾ ثم قال تعالى: ﴿ **فَذَرْهُمْ** ﴾ أي يا محمد ﴿ **يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا** ﴾ أي دعهم ﴿ **يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا** ﴾ أي دعهم في تكذيبهم وكفرهم وعنادهم ﴿ **حَتَّى يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ** ﴾ أي فسيعلمون نتائج ذلك ويذوقون الوبال ﴿ **يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ**

يُوفِضُونَ ﴾ أي يقومون من القبور إذا دعاهم الرب تبارك وتعالى لموقف الحساب، ينهضون سراعًا كأنهم إلى أصنامهم يسرعون أي كأنهم في إسراعهم إلى الموقف كما كانوا في الدنيا يهرولون إلى أصنامهم يبتدرون أيهم يستلمه أول ؟

وهذا مروي عن مجاهد وغيره، وقوله تعالى: ﴿ خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ ﴾ أي خاضعة ﴿ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ﴾ في مقابلة ما استكبروا في الدنيا عن الطاعة ﴿ ذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴾.

فصل

قال محمد تقي الدين: عاب الله تعالى على الكفار إعراضهم عن النبي ﷺ وتفرقهم فرقًا مع اتفاقهم على الكفر به وتوعدهم بالعذاب في الدنيا والآخرة. والإعراض عما جاء به الرسول ﷺ كله شر سواء أكان مع ادعاء الإيمان به أم مع التصريح بالكفر فمن ادعى الإيمان به صلوات الله عليه ولم يتبعه فقد حرم الخير كله ويخشى عليه الكفر كما تقدم عن أحمد بن حنبل رحمه الله في تفسير قوله تعالى في آخر سورة النور: ﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ ﴾ الآية.

قال صاحب الدين الخالص ج٤ ص٣٥٧ ما نصه:

الوجه الثامن والخمسون: قولكم: إن ابن الزبير سئل عن الجد والأخوة فقال: أما الذي قال رسول الله ﷺ: « لو كنت متخذًا من أهل الأرض خليلاً لاتخذته خليلاً » يريد أبا بكر، فإنه أنزله أبًا.

فأي شيء في هذا مما يدل على التقليد بوجه من الوجوه ؟ وقد تقدم من الأدلة الشافية التي لا مطمع في دفعها مما يدل على أن قول الصديق في الجد أصح الأقوال على الإطلاق.

وابن الزبير لم يخبر بذلك تقليدًا، بل أضاف المذهب إلى الصديق، لينبه على جلالة قائله، وإنه ممن لا يقاس غيره به، لا ليقبل قوله بغير حجة، ويترك الحجة من القرآن، والسنة لقوله.

فابن الزبير وغيره من الصحابة، كانوا أتقى لله، وحجج الله وبيناته أحب إليهم من أن يتركوها لآراء الرجال ولقول أحد كائنًا من كان.

وقول ابن الزبير: « إن الصديق أنزله أبًا » متضمن للحكم والدليل معًا.

سورة المزمل

الباب الأول

قوله تعالى: ﴿ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ۝ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ۝ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا ۝ إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلٗا ثَقِيلًا ﴾ [المزمل:٢-٥].

قال (ك): أي أمرناك أن تقوم نصف الليل بزيادة قليلة، أو نقصان قليل لا حرج عليك في ذلك ﴿ **وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً** ﴾ أي اقرأه على تمهل فإنه يكون عونًا على فهم القرآن وتدبره وكذلك كان يقرأ صلوات الله وسلامه عليه وفي صحيح البخاري عن أنس: « أنه سئل عن قراءة رسول الله فقال: كانت مدًا ثم قرأ « بسم الله الرحمن الرحيم » يمد: « بسم الله » ويمد « الرحمن » ويمد « الرحيم ». وعن أم سلمة أنها سئلت عن قراءة رسول الله فقالت: « كان يقطع قراءته آية آية « بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين » رواه أحمد وأبو داوود والترمذي وفي الحديث: « زينوا القرآن بأصواتكم » و « ليس منا من لم يتغن بالقرآن » و « لقد أوتي هذا... مزمارًا من مزامير آل داوود » يعني أبا موسى الأشعري.

وقوله تعالى: ﴿ **إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً** ﴾ أي ثقيل وقت نزوله من عظمته، كما قال زيد بن ثابت: « أنزل على رسول الله وفخذه على فخذي فكادت ترض فخذي ».

في صحيح البخاري عن عائشة رضي الله عنها: « أن الحارث بن هشام سأل رسول الله كيف يأتيك الوحي ؟ فقال: « أحيانًا يأتي في مثل صلصلة الجرس وهو أشده علي فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال، وأحيانًا يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول » قالت عائشة: ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقًا » هذا لفظه ؟ ».

فصل

قال محمد تقي الدين: القرآن كنز عظيم جاءنا به النبي الكريم فاستغله سلف هذه الأمة أحسن استغلال وبلغوا به أوج العلا في سعادة الروح والجسد وحكموا به مشارق الأرض

ومغاربها وملأوا الدنيا علمًا وعدلاً ثم خلف من بعدهم خلوف نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم فردوا إلى أسفل سافلين وهم في ظلماتهم يعمهون وقد تعلقوا بالسراب يظنون أنه شراب ولن يجدوا لدائهم دواء ولا لمشاكلهم حلاً إلا بالرجوع إلى القرآن درسًا وتعليمًا وتحكيمًا ويتخذونه سراجًا لهم يضيء ظلمات الحياة الدنيا ويسعدهم في الأخرى.

قال صاحب الدين الخالص ج٤ ص٣٥٧ ما نصه:

الوجه التاسع والخمسون: قولكم: وقد أمر الله بقبول شهادة الشاهد، وذلك تقليدًا له، فلو لم يكن في آفاق التقليد غير هذا الاستدلال، لكفى به بطلانًا، وهل قبلنا قول الشاهد إلا بنص كتاب ربنا، وسنة نبينا، وإجماع الأمة على قبول قوله ؟ فإن الله سبحانه نصبها حجة يحكم الحاكم بها، كما يحكم بالإقرار، وكذلك قول المقر أيضًا، حجة شرعية، وقبوله تقليدًا له كما سميتم قبول شهادة الشاهد تقليدًا.

فسموه ما شئتم، فإن الله سبحانه أمرنا بالحكم بذلك، وجعله دليلاً على الأحكام، فالحاكم وبالشهادة والإقرار، منفذ لأمر الله ورسوله، وقد كان النبي ﷺ يقضي بالشاهد وبالإقرار، وذلك حكم بنفس ما أنزل الله لا بالتقليد، فالاستدلال بذلك على التقليد المتضمن للإعراض عن الكتاب والسنة وأقوال الصحابة وتقديم آراء الرجال عليها وتقديم قول الرجل على من هو أعلم منه، وإطراح قول من عداه جملة، من باب قلب الحقائق، وانتكاس العقول والأفهام، بالجملة، فنحن إذا قبلنا قول الشاهد، لم نقبله لمجرد كونه شهد به، بل لأن الله سبحانه أمرنا بقبول قوله.

فأنتم – معاشر المقلدين – إذا قبلتم قول من قلدتموه، قبلتموه بمجرد كونه قاله، لا لأن الله أمركم بقبول قوله، وطرح قول من سواه.

سورة المدثر

الباب الأول

قوله تعالى: ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالاً مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّآ إِنَّهُۥ كَانَ لِأَيَـٰتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾

سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴾ [المدثر:١١-٢٦].

قال (ك): يقول تعالى متوعدًا للوليد بن المغيرة المخزومي أحد رؤساء قريش لعنه الله، وقد روي ابن عباس قال: دخل الوليد بن المغيرة على أبي بكر بن أبي قحافة فسأله عن القرآن، فلما أخبره خرج على قريش فقال: يا عجبا لما يقول ابن أبي كبشة، فوالله ما هو بشعر ولا بسحر ولا بهذي من الجنون وأن قوله لمن كلام الله، فلما سمع بذلك النفر من قريش ائتمروا وقالوا: والله لئن صبأ الوليد لتصبأ قريش فلما سمع بذلك أبو جهل بن هشام قال: أنا والله أكفيكم شأنه، فانطلق حتى دخل عليه بيته فقال للوليد: ألم تر قومك قد جمعوا لك الصدقة ؟ فقال: ألست أكثرهم مالاً وولدًا ؟ فقال أبو جهل يتحدثون أنك إنما تدخل على ابن أبي قحافة لتصيب من طعامه، فقال الوليد: أقد تحدث به عشيرتي ! فلا والله لا أقرب ابن أبي قحافة ولا عمر ولا ابن أبي كبشة، وما قوله إلا سحر يؤثر فأنزل الله تعالى على رسوله ﴿ **ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا** ﴾ إلى قوله ﴿ **لا تُبْقِي وَلا تَذَرُ** ﴾ وقال قتادة زعموا أنه قال: والله لقد نظرت فيما قال الرجل، فإذا هو ليس بشعر، وإن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة، وإنه يعلو وما يعلى عليه، وما أشك أنه سحر.. ! فأنزل الله ﴿ **قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ** ﴾ فيقول تعالى متوعدًا لهذا الخبيث الذي أنعم الله عليه بنعم الدنيا فكفر بأنعم الله وبدلها كفرًا، وقابلها بالجحد بآيات الله والافتراء عليها، وجعلها من قول البشر، وقد عدد الله عليه نعمه حيث قال: ﴿ **ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا** ﴾ أي خرج من بطن أمه وحيدًا، وحده لا مال له ولا ولد ثم رزقه الله تعالى رزقًا عظيمًا فقال ﴿ **وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَّمْدُودًا** ﴾ أي واسعًا كثيرًا قيل مائة ألف دينار وقيل يستغلها، وجعل له ﴿ **وَبَنِينَ شُهُودًا** ﴾ أي حضورًا عنده لا يسافرون بالتجارة بل مواليهم وأجراؤهم يتولون ذلك عنهم، وهم قعود عند أبيهم يتمتع بهم ويتحلى بهم وكانوا فيما ذكر السدي وأبو مالك وعاصم بن عمر وقتادة ثلاثة عشر.. وهذا أبلغ في النعمة ﴿ **وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا** ﴾ أي مكنته من صنوف المال والأثاث وغير ذلك

﴿ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ كَلاَّ إِنَّهُ كَانَ لآيَاتِنَا عَنِيدًا ﴾ أي معاندًا وهو الكفر بعد العلم، قال الله تعالى: ﴿ سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا ﴾ روي الإمام أحمد بسنده إلى أبي سعيد عن رسول الله قال: « ويل: واد في جهنم يهوى به الكافر أربعين خريفًا قبل أن يبلغ قعره، والصعود: جبل من نار يتصعد فيه الكافر سبعين خريفًا ثم يهوى به كذلك فيه أبدًا». وقوله تعالى: ﴿ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴾ أي تروى ﴿ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴾ دعاء عليه ﴿ ثُمَّ نَظَرَ ﴾ أي أعاد النظرة والتروي ﴿ ثُمَّ عَبَسَ ﴾ أي قبض بين عينيه وقطب ﴿ وَبَسَرَ ﴾ أي كلح، وقوله ﴿ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴾ أي صرف عن الحق ورجع القهقري مستكبرًا عن الانقياد للقرآن ﴿ فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴾ أي هذا سحر ينقله محمد عن غيره ممن قبله ويحكيه عنهم، ولهذا قال: ﴿ إِنْ هَذَا إِلاَّ قَوْلُ الْبَشَرِ ﴾ أي ليس بكلام الله، قال تعالى: ﴿ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴾ أي سأغمره فيها.

فصل

قال محمد تقي الدين: قوله تعالى: ﴿ كَلاَّ إِنَّهُ كَانَ لآيَاتِنَا عَنِيدًا ﴾ كان عناده بالتكذيب وهو يعلم أن القرآن حق والمقلدون وأصحاب الطرائق يقولون آمنا بالقرآن وبالرسول ﷺ، وبكل ما جاء به ولكنهم لا يعلمون بسنته ولا بكتاب الله إلا إذا وافق مذهبهم أو طريقتهم فأصحاب الطرائق يقدسون ابن عربي الحاتمي ويسمونه الشيخ الأكبر وهو يكذب كتاب الله والله تعالى يقول: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُواْ الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ وابن عربي يقول: إن الذين عبدوا العجل ما عبدوا إلا الله لأن كل شيء عنده هو الله ويقول في قوله تعالى في قوم نوح: ﴿ مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا ﴾ يقول أغرقوا في بحار العلم بالله فادخلوا نار المحبة في الله ويزعم أن فرعون كان مؤمنًا وأنه كان من العارفين وأصحاب المذاهب يأبون أن يتبعوا رسول الله ﷺ، أن يصلوا صلاته وأن يحجوا كما حج وأن يعتمروا كما اعتمر فيعرضون عباداته على مذاهبهم ويتبعونها وإن خالفت سنة الرسول ﷺ أليس هذا عنادًا للكتاب والسنة ومن لم يتب منهم فجزاؤه أن يصلى سقر نسأل الله أن يهدينا وإياهم صراطه المستقيم ويبعدنا جميعًا من طريق أصحاب الجحيم.

قال صاحب الدين الخالص ج٤ ص٣٥٨ ما نصه:

الوجه الستون: قولكم: وقد جاءت الشريعة بقبول قول القائف، والخارص، والقاسم، والمقوم، والحاكمين بالمثل في جزاء الصيد، وذلك تقليد محض، أتعنون به أنه تقليد لبعض العلماء في قبول أقوالهم،وتقليد لهم فيما يخبرون به ؟ فإن عنيتم الأول فهو باطل، وإن عنيتم الثاني فليس فيه ما تستريحون إليه من التقليد الذي قام الدليل على بطلانه.

وقبول قول هؤلاء من باب قبول خبر المخبر والشاهد، لا من باب قبول الفتيا في الدين بغير قيام دليل على صحتها، بل بمجرد إحسان الظن، بقائلها مع تجويز الخطأ عليه، فأين قبول الأخبار، والشهادات والأقارير، إلى التقليد في الفتوى ؟ والمخبر بهذه الأمور يخبر عن أمر حسي، طريق العلم به إدراكه بالحواس، والمشاعر الظاهرة والباطنة، وقد أمر الله سبحانه بقبول خبر المخبر به، إذا كان ظاهر الصدق والعدالة، أطرد هذا.

ونظيره قبول خبر المخبر عن رسول الله ﷺ، بأنه قال، وفعل، وقبول خبر المخبر عمن أخبر عنه بذلك وهلم جرا، فهذا حق لا ينازع فيه أحد.

وأما تقليد الرجل فيما يخبر به عن ظنه، فليس فيه أكثر من العلم بأن ذلك ظنه واجتهاده، أفتقليدنا له في ذلك، بمنزلة تقليدنا له فيما يخبر به عن رؤيته وسماعه، وإدراكه، فأين في هذا ما يوجب علينا أو يسوغ لنا، أن نفتي بذلك أو نحكم به، وندين الله به، ونقول: هذا هو الحق، وما خالفه باطل، ونترك له نصوص القرآن والسنة، وآثار الصحابة، وأقوال من عداه من جميع أهل العلم ؟ ومن هذا الباب تقليد الأعمى في القبلة، ودخول الوقت، لغيره، وقد كان ابن أم مكتوم لا يؤذن حتى يقلد غيره في طلوع الفجر، ويقال له: « أصبحت أصبحت » وكذلك تقليد الناس للمؤذن في دخول الوقت: وتقليد من في المطمورة لمن يعلمه بأوقات الصلاة، والفطر والصوم، وأمثال ذلك.

ومن ذلك، التقليد في قبول الترجمة والرسالة والتعريف والتعديل والجرح، كل هذا من باب الإخبار التي أمر الله بقبول المخبر بها، إذا كان عدلاً صادقًا، وقد أجمع الناس على قبول خبر الواحد في الهدية، وإدخال الزوجة على زوجها، وقبول خبر المرأة، ذمية كانت أو مسلمة، في انقطاع دم حيضها لوقته، وجواز وطئها، وإنكاحها بذلك.

وليس هذا تقليدًا في الفتيا والحكم، وإذا كان لها، فالله سبحانه شرع لنا أن نقبل قولها ونقلدها فيه، ولم يشرع لنا تلقي أحكامه عن غير رسوله، فضلاً عن ترك سنة رسوله، لقول واحد من أهل العلم، وتقديم قوله على قول من عداه من الأمة.

الباب الثاني

قوله تعالى: ﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْآخِرَةَ ﴿٥٣﴾ كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴾ [المدثر:٤٩-٥٦].

قال (ك): أي فما لهؤلاء الكفرة الذين قبلك عما تدعوهم إليه وتذكرهم به معرضين ﴿ **كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ** ﴾ أي كأنهم في نفارهم عن الحق، وإعراضهم عنه، حمر من حمر الوحش إذا فرت ممن يريد صيدها من أسد، وقوله تعالى: ﴿ **كَلاَّ إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ** ﴾ أي حقًا إن القرآن تذكرة ﴿ **فَمَن شَاء ذَكَرَهُ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلاَّ أَن يَشَاء اللَّهُ** ﴾ كقوله: ﴿ **وَمَا تَشَاؤُونَ إِلاَّ أَن يَشَاء اللَّهُ** ﴾ وقوله تعالى: ﴿ **هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ** ﴾ أي هو أهل أن يخاف منه، وهو أهل أن يغفر ذنب من تاب إليه وأناب، قاله قتادة.

وعن أنس بن مالك قال: « قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿ **هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ** ﴾ وقال: قال ربكم أنا أهل أن أتقي فلا يجعل معي إله فمن اتقى أن يجعل معي إلهًا كان أهلاً أن أغفر له » رواه أحمد وغيره.

فصل

قال محمد تقي الدين: إن كفار العرب وغيرهم نفروا من دعوة النبي ﷺ، كما تنفر حمر الوحش من الأسد إذا أحست به وكل من اتخذ وليجة من دون الله ورسوله فإنه يفر من إتباع الكتاب والسنة وينفر منهما أعظم النفور وإذا شئت أن تعلم ذلك يقينًا فإنه عباد القبور عن الذبح والنذر لها والتمسح والطواف بها ودعائها والدعاء عندها وأمر مقلدًا

حنيفًا يجهر بالتأمين أو يرفع يده عند الركوع والرفع منه. وقد ألف البخاري رحمه الله كتابًا خاصًا في رفع اليدين روي فيه أحاديث كالشمس وكان عبد الله بن عمر يحصب من لا يفعله أي يرميه بالحصباء فإنهم لا يفعلون ذلك ولو قطعت أيديهم أي هددتهم بقطعها. وأمر المقلد المالكي أن يضع يده اليمنى على اليسرى في حال القيام في الصلاة فإنه ينفر أعظم النفور ولا يقبل كلام النبي ﷺ، الذي رواه مالك الذي هو إمامه بزعمه فيرد حديث النبي ﷺ، وعمل مالك وجميع أصحابه إلا رجلا واحدًا وهو ابن القاسم الذي روي عن مالك رواية معتلة مختلة في ترك وضع اليمنى على اليسرى في الفريضة فنسأل الله العافية ؟

قال صاحب الدين الخالص ج٤ ص٣٦٠ ما نصه:

الوجه الحادي والستون: قولكم: وأجمعوا على جواز شراء اللحمان والأطعمة والثياب، وغيرها من غير سؤال عن حلها، إكتفاء بتقليد أربابها.

جوابه: أن هذا ليس تقليدًا في حكم من أحكام الله ورسوله من غير دليل، بل هو اكتفاء بقبول قول الذابح والبائع، وهو اقتداء وإتباع لأمر الله ورسوله.

حتى لو كان الذابح والبائع يهوديًا، أو نصرانيًا، أو فاجرًا، اكتفينا بقوله في ذلك، ولم نسأله عن أسباب الحل كما قالت عائشة، رضي الله عنها: « يا رسول الله إن ناسًا يأتوننا باللحمان، لا ندري، أذكروا اسم الله عليها أم لا ؟ فقال: سموا أنتم وكلوا » فهل يسوغ لكم تقليد الكفار والفساق في الدين، كما تقلدونهم في الذبائح والأطعمة.

فدعوا هذه الاحتجاجات الباردة، وأدخلوا معنا في الأدلة الفارقة بين الحق والباطل، لنعقد معكم عقد الصلح اللازم، على تحكيم كتاب الله وسنة رسوله، والتحاكم إليهما وترك أقوال الرجال لهما، وأن ندور مع الحق حيث كان، ولا نتحيز إلى شخص معين غير الرسول نقبل قوله كله ونرد قول من خالفه كله، وإلا فاشهدوا بأنا أول منكر لهذه الطريقة، وراغب عنها، داع إلى خلافها والله المستعان.

سورة القيامة

الباب الأول

قوله تعالى: ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴾ [القيامة:١٦-١٩].

قال (ك): هذا تعليم من الله عز وجل لرسوله ﷺ في كيفية تلقيه الوحي من الملك، فإنه كان يبادره إلى أخذه ويسابق الملك في قراءته فأمره الله عز وجل إذا جاءه الملك بالوحي أن يستمع له، وتكفل الله أن يجمعه في صدره، وأن ييسره لأدائه على الوجه الذي ألقاه إليه، وأن يبينه له ويفسره ويوضحه، فالحالة الأولى، جمعه في صدره. والثانية: تلاوته. والثالثة: تفسيره وإيضاح معناه. ولهذا قال: ﴿ **لا تُحَرِّكْ به لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ** ﴾ أي بالقرآن كما قال تعالى: ﴿ **وَلا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا** ﴾. ثم قال تعالى: ﴿ **إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ** ﴾ أي في صدرك ﴿ **وَقُرْآنَهُ** ﴾ أي أن تقرأه ﴿ **فَإِذَا قَرَأْنَاهُ** ﴾ أي إذا تلاه عليك الملك عن الله تعالى ﴿ **فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ** ﴾ أي فاستمع له، ثم اقرأه كما أقرأك ﴿ **ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ** ﴾ أي بعد حفظه وتلاوته، نبينه لك ونوضحه، ونلهمك معناه على ما أردنا وشرعنا.

فصل

قال محمد تقي الدين: تكفل الله تعالى ببيان القرآن لنبيه محمد ﷺ، وبينه للناس هذا النبي الكريم وأمر الله ورسوله باتباع القرآن وبيانه فسنة النبي بيان للقرآن فيجب على الأمة الإسلامية أن تتبع القرآن وبيانه بل يجب على كل من بلغه القرآن بلاغًا كافيًا شافيًا أن يتبعه ومن لم يتبعه كان من الخاسرين فيا أيها المسلم اتبع كتاب الله وكن حنيفًا لا تتعصب لطريقة ولا لمذهب ولا لحزب ولا لوطنية واقطع كل علاقة تمنعك من إتباع الوحي وكن كما كان أصحاب رسول الله ﷺ، والتابعون والأئمة المجتهدون.

دعوا كل قول غير قول محمد   فما آمن في دينه كمخاطر

وقال غيره:

فإن أنتم لم تقنعوا بمقاله فإني بما قال النبي لقانع

وقال آخر:

وهل ترك الإنسان في الدين غاية إذا قال قلدت النبي محمدًا

قال صاحب الدين الخالص ج٤ ص٣٦١ ما نصه:

الوجه الثاني والستون: قولكم لو كلف الناس كلهم الاجتهاد، وأن يكونوا علماء، ضاعت مصالح العباد، وتعطلت الصنائع والمتاجر، وهذا مما لا سبيل إليه شرعًا وقدرًا، فجوابه من وجوه:

أحدها: أن من رحمة الله سبحانه بنا ورأفته، أنه لم يكلفنا بالتقليد، فلو كلفنا به، لضاعت أمورنا، وفسدت مصالحنا، لأنا لم نكن ندري من نقلد من المفتين والفقهاء، وهم عدد فوق المئين، ولا يدري عددهم – في الحقيقة – إلا الله.

فإن المسلمين قد ملؤوا الأرض، شرقًا وغربًا، وجنوبًا وشمالاً، وانتشر الإسلام – بحمد الله وفضله – وبلغ مبلغ الليل.

فلو كلفنا التقليد، لوقعنا في أعظم العنت والفساد، وتكلفنا بتحليل الشيء وتحريمه، وإيجاب الشيء، وإسقاطه معًا، إن كلفنا بتقليد كل عالم، وإن كلفنا بتقليد الأعلم فالأعلم، فمعرفة ما دل عليه القرآن والسنن من الأحكام، أسهل بكثير من معرفة الأعلم الذي اجتمعت فيه شروط التقليد.

وفي معرفة ذلك مشقة على العالم الراسخ فضلاً عن المقلد الذي هو كالأعمى، وإن كلفنا بتقليد البعض، وكان جعل ذلك إلى شهوتنا واختيارنا، صار دين الله تبعًا لإرادتنا واختيارنا وشهواتنا، وهو عين المحال.

فلابد أن يكون ذلك راجعًا إلى أمر الله بإتباع قوله، وتلقي الدين منه وذلك « محمد بن عبد الله بن عبد المطلب رسول الله » وأمينه على وحيه، وحجته على خلقه، ولم يجعل الله هذا المنصب لسواه بعده أبدًا.

الثاني: أن بالنظر إلى الاستدلال، صلاح الأمور لا ضياعها، وبإهماله ذلك وتقليد من يخطئ ويصيب، إضاعتها وفسادها، كما أن الواقع شاهد به.

الثالث: أن كل واحد منها مأمور بأن يصدق الرسول فيما أخبر، ويطيعه فيما أمر، وذلك لا يكون إلا بعد معرفة أمره وخبره.

ولم يوجب الله سبحانه من ذلك على الأمة إلا ما فيه حفظ دينها ودنياها، وصلاحها في معاشها ومعادها، وبإهمال ذلك تضيع مصالحها، وتفسد أمورها، فما خراب العالم إلا بالجهل ولا عمارته إلا بالعلم.

وإذا ظهر العلم في بلد أو محلة، قل الشر في أهلها، وإذا خفي العلم هناك ظهر الشر والفساد ومن لم يعرف هذا فهو ممن لم يجعل الله له نورًا.

قال الإمام أحمد: لولا العلم، كان الناس كالبهائم.

وقال: الناس أحوج إلى العلم منهم إلى الطعام والشراب، لأن الطعام والشراب محتاج إليه في اليوم مرتين أو ثلاثًا، والعلم يحتاج إليه في كل وقت.

الرابع: أن الواجب على كل عبد أن يعرف ما يخصه من الأحكام، ولا يجب عليه أن يعرف ما لا تدعوه الحاجة إلى معرفته، وليس في ذلك إضاعة لمصالح الخلق، ولا تعطيل لمعاشهم، فقد كان الصحابة قائمين لمصالحهم ومعاشهم وعمارة حروثهم، والقيام على مواشيهم، والضرب في الأرض لمتاجرهم، والصفق بالأسواق، وهم أهدى العلماء الذين لا يشق غبارهم.

الخامس: أن العلم النافع هو الذي جاء به الرسول، دون مقدرات الأذهان، ومسائل الخرص والألغاز، وذلك – بحمد الله – أيسر شيء على النفوس، تحصيله وحفظه وفهمه، فإنه كتاب الله الذي يسره للذكر، كما قال تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ** ﴾؟.

قال البخاري في صحيحه: قال مطر الوراق: هل من طالب علم فيعان عليه، ولم يقل: فتضيع عليه مصالحه، وتتعطل عليه معايشة.

وسنة رسوله وهي بحمد الله – مضبوطة، محفوظة. أصول الأحكام التي يدور عليها خمسمائة حديث، وفروعها وتفاصيلها، نحو أربعة آلاف وإنما الذي هو في غاية الصعوبة والمشقة مقدرات الأذهان. وأغلوطات المسائل والفروع والأصول، التي ما أنزل الله بها من سلطان، التي كل مالها في نمو وزيادة وتوليد، والدين لا يزال في غربة ونقصان، والله المستعان (١).

سورة الدهر

الباب الأول

قوله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلاً ﴿٢٣﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴿٢٥﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلاً طَوِيلاً ﴿٢٦﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلاً ﴿٢٧﴾ نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ ۖ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلاً ﴿٢٨﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلاً ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾ يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [الإنسان:٢٣-٣١].

قال (ك): يمتن الله سبحانه على رسوله بما أنزله عليه من القرآن العظيم تنزيلاً ﴿ **فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ** ﴾ أي فاصبر على قضائه وقدره وأنه سيدبرك بحسن تدبيره ﴿ **وَلا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا** ﴾ أي لا تطع من أرادوا صدك عما أنزل إليك، بل بلغ ما أنزل إليك من ربك وتوكل على الله فإنه يعصمك من الناس الفاجرين في أعمالهم، والكافرين في قلوبهم ﴿ **وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلاً** ﴾ أي أول النهار وآخره ﴿ **وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلاً طَوِيلاً** ﴾ كقوله تعالى: ﴿ **وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا**

---

(١) يضاف إلى ذلك أننا لم نأمر جميع الناس أن يكونوا علماء بل نقول كما قال الله تعالى: « فسئلوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون » فمن لم يكن له علم بمسألة ترجع إلى الأحكام الخمسة فليسأل أهل العلم الذين يتبعون لا يقلدون.

مَّحْمُودًا ﴾ ثم قال تعالى: ﴿ إِنَّ هَؤُلاء يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءهُمْ يَوْمًا ثَقِيلاً ﴾ أي هؤلاء الكفار يحبون الدنيا وبهرجها ويذرون الآخرة ثم قال تعالى: ﴿ نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ ﴾ قال ابن عباس أي خلقهم ﴿ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلاً ﴾ أي أتينا بقوم آخرين غيرهم. ثم قال تعالى: ﴿ إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ ﴾ يعني السورة تذكرة ﴿ فَمَن شَاء اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً ﴾ أي من شاء اهتدى بالقرآن ﴿ وَمَا تَشَاؤُونَ إِلاَّ أَن يَشَاء اللَّهُ ﴾ أي لا يستطيع أحد أن يهدي نفسه ﴿ إِلاَّ أَن يَشَاء اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ أي عليم بمن يستحق الهداية فييسرها له ومن يستحق الغواية فيصرفه عن الهدى وله الحجة البالغة ولهذا قال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ ثم قال تعالى: ﴿ يُدْخِلُ مَن يَشَاء فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ أي يهدي من يشاء ويضل من يشاء فمن يهده فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له.

فصل

قال محمد تقي الدين: قوله تعالى ﴿ إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ ﴾ أنزل الله تعالى القرآن تذكرة وإنما يتذكر أولوا الألباب فمن نفعه الله به واتبعه سعد في دنياه وأخراه ومن أعرض عنه بعد أن عرفه فإن له معيشة ضنكًا في هذه الدنيا كلها شقاء ويحشره الله يوم القيامة أعمى ويسلكه عذابًا صعدًا والمقلدون وأصحاب الطرائق أعرضوا عنه فلابد أن يصيبهم الوعيد الذي ذكره الله تعالى وقد أصابهم فمتى يتوبون إلى الله ويرجعون عن غيهم ويمتثلون أمر ربهم.

قال صاحب الدين الخالص ج٣ ص٣٦٣ ما نصه:

الوجه الثالث والستون: قد أجمع الناس على تقليد الزوج لمن يهدي إليه زوجته ليلة الدخول، وعلى تقليد الأعمى في القبلة والوقت، وتقليد المؤذنين وتقليد الأئمة في الطهارة وقراءة الفاتحة، وتقليد الزوجة في انقطاع دمها ووطئها وتزويجها.

فجوابه ما تقدم، أن استدلالكم بهذا من باب المغاليط، وليس هذا من التقليد المذموم – على لسان السلف والخلف – في شيء.

ونحن لم نرجع إلى أقوال هؤلاء، لكونهم أخبروا بها، بل لأن الله ورسوله أمر بقبول قولهم، وجعله دليلاً على ترتيب الأحكام، فأخبارهم بمنزلة الشهادة والإقرار.

فأين في هذا، ما يسوغ التقليد في أحكام الدين، والإعراض عن القرآن والسنن، ونصب رجل بعينه ميزانًا على كتاب الله، وسنة رسوله.

سورة المرسلات

الباب الأول

قوله تعالى: ﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴾ [المرسلات:٥٠].

قال ابن كثير: يقول تعالى: ﴿ **فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ الله وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ** ﴾ أي إذا لم يؤمنوا بهذا القرآن فبأي كلام يؤمنون به.

روي ابن أبي حاتم بسنده إلى أبي هريرة: « أنه إذا قرأ والمرسلات عرفا - فقرأ - ﴿ **فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ** ﴾ فليقول: « آمنت بالله وبما أنزل ».

فصل

قال محمد تقي الدين: من ادعى الإيمان بالقرآن ولم يعمل به في مسجده وبيته وسوقه ومحكمته وسلمه وحربه فإيمانه دعوى تكذبها سيرته والمقلد وصاحب الطريقة كذلك فهو كالمريض الذي عنده دواء ولا يستعمله فكأنه لا دواء عنده أو يستعمله بغير ما وصفه الطبيب والطبيب هنا هو رسول الله ﷺ، فلا ينفعه ذلك الدواء بل يضره ؟

سورة التكوير

الباب الأول

قوله تعالى: ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ

بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿٢٥﴾ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [التكوير:١٥-٢٩].

قال (ك): روي عن علي: ﴿ **فَلا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ الْجَوَارِ الْكُنَّسِ** ﴾ هي النجوم تخنس بالنهار وتكنس بالليل، ﴿ **وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ** ﴾ أي إذا اشتد ظلامه والمراد: إذا أقبل كأنه أقسم بالليل وظلامه إذا أقبل، وبالفجر وضيائه إذا أشرق، كما قال تعالى: ﴿ **وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى** ﴾ ﴿ **وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ** ﴾ أي إذا طلع وأضاء وأقبل وقوله تعالى: ﴿ **إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ** ﴾يعني أن هذا القرآن لتبليغ رسول كريم أي ملك شريف وهو: جبريل عليه الصلاة والسلام، ﴿ **ذِي قُوَّةٍ** ﴾ كقوله تعالى: ﴿ **عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى ذُو مِرَّةٍ** ﴾ أي شديد الخلق شديد البطش والفعل ﴿ **عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ** ﴾ أي له مكانة عند الله عز وجل، ومنزلة رفيعة ﴿ **مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ** ﴾ أي في السموات وهو مسموع القول مطاع في الملأ الأعلى وليس هو من أفناد[1] الملائكة، بل هو من السادة والأشراف، معتنى به، انتخب لهذه الرسالة العظيمة، وقوله تعالى: « أمين » صفة لجبريل بالأمانة، وهذا عظيم جدًا أن الرب عز وجل يزكي عبده ورسوله الملكي جبريل كما زكى عبده ورسوله البشرى محمدًا ﷺ بقوله تعالى: ﴿ **وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ** ﴾ يعني محمدًا ﷺ، وقوله تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ رَآهُ بِالأُفُقِ الْمُبِينِ** ﴾ يعني ولقد رأى محمد جبريل الذي يأتيه بالرسالة عن الله عز وجل، على الصورة الملكية التي خلقه الله عليها له ستمائة جناح ﴿ **بِالأُفُقِ الْمُبِينِ** ﴾ وهي الرؤية الأولى المذكورة في قوله تعالى: ﴿ **وَهُوَ بِالأُفُقِ الأَعْلَى ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى** ﴾. والظاهر والله أعلم أن هذه السورة نزلت قبل الإسراء لأنه لم يذكر فيها إلا هذه الرؤية الأولى، أما الثانية فهي المذكورة في قوله تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى عِندَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى** ﴾ فتلك إنما ذكرت في سورة النجم وقد نزلت بعد سورة الإسراء، وقوله تعالى: ﴿ **وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ** ﴾ قرئ ضنين وقرئ ظنين وكلاهما متواتر، فعلى قراءة ظنين: أي وما محمد على ما أنزله الله

(١) أفناد: عامة الملائكة.

إليه بمتهم، وعلى قراءة ضنين: أي ما ضن بالقرآن على الناس بل نشره وبلغه وبذله للناس جميعًا.

وقوله تعالى: ﴿ **وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ** ﴾ أي وما هذا القرآن بقول شيطان رجيم أي لا يقدر على حمله ولا يريده ولا ينبغي له، كما قال تعالى: ﴿ **وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ وَمَا يَنبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ** ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ **فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ** ﴾ أي فأين تذهب عقولكم في تكذيبكم بهذا القرآن، مع ظهوره ووضوحه، وبيان كونه حقًا من عند الله تعالى: وقوله تعالى: ﴿ **إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ** ﴾ أي هذا القرآن ذكر لجميع الناس يتذكرون به ويتعظون، ﴿ **لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ** ﴾ أي من أراد الهداية، فعليه بهذا القرآن، ولا هداية فيما سواه، ﴿ **وَمَا تَشَاؤُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ** ﴾ أي ليست المشيئة موكولة لكم فمن شاء اهتدى ومن شاء ضل، بل ذلك كله تابع لمشيئته تعالى رب العالمين.

فصل

قال محمد تقي الدين: قوله تعالى إن هو إلا ذكر للعالمين لمن شاء منكم أن يستقيم معناه أن القرآن أنزله الله لتذكير جميع العالمين من الإنس والجن كما قال تعالى: ﴿ **تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا** ﴾ لمن شاء منكم والخطاب للعالمين أن يستقيم بإتباعه وإتباع السنة التي هي بيانه وهي أقوال النبي ﷺ، وأفعاله وأخلاقه وتروكه أي ما ترك من الأمور التي تنسب إلى الدين فلا يمكن أحدًا أن يستقيم إلا بذلك ولما كان المسلمون متبعين للكتاب والسنة كانوا مستقيمين سالكين الصراط المستقيم سعداء أقوياء ولما تركوا إتباعهما فقدوا سعادتهم وقوتهم وعزتهم ومن أسباب الإعراض عن الكتاب والسنة ظهور التقليد والطرائق التي فرقت المسلمين فإن أرادوا استرداد ما فقدوا فليرجعوا إلى الكتاب والسنة.

قال صاحب الدين الخالص ج٤ ص٣٧١ ما نصه:

الوجه السابع والستون: قولكم: وقد جعل الله سبحانه في فطر العباد تقليد المتعلمين للمعلمين والأستاذين، في جميع الصنائع والعلوم، إلى آخره.

فجوابه: أن هذا حق لا ينكره عاقل، ولكن كيف يستلزم ذلك صحة التقليد في دين الله، وقبول قول المتبوع بغير حجة توجب قبول قوله، وتقديم قوله على قول من هو أعلم منه، وترك الحجة لقوله، وترك أقوال أهل العلم جميعًا من السلف والخلف لقوله فهل جعل الله ذلك في فطرة أحد من العالمين ؟:

ثم يقال: بل الذي فطر الله عباده، طلب الحجة، والدليل المثبت لقول المدعى، فركز سبحانه في فطر الناس، أنهم لا يقبلون قول من لم يقم الدليل على صحة قوله.

ولأجل ذلك أقام الله سبحانه البراهين القاطعة، والحجج الساطعة، والأدلة الظاهرة، والآيات الباهرة على صدق رسله. إقامة للحجة وقطعاً للمعذرة، هذا وهم أصدق خلقه، وأعلمهم وأبرهم وأكملهم، فأتوا بالآيات والحجج والبراهين مع اعتراف أممهم لهم بأنهم أصدق الناس.

فكيف يقبل قول من عداهم بغير حجة توجب قبول قوله ؟

والله تعالى إنما أوجب قبول قولهم بعد قيام الحجة، وظهور الآيات المستلزمة لصحة دعواهم، لما جعل في فطر عباده من الانقياد للحجة، وقبول صاحبها، وهذا أمر مشترك بين جميع أهل الأرض، مؤمنهم وكافرهم، وبرهم وفاجرهم والانقياد للحجة، وتعظيم صاحبها، وإن خالفوه عنادًا وبغيًا، فلفوات أغراضهم بالانقياد ولقد أحسن القائل:

إذا غاب وجه الحق عن قلب سامع ودعه فنور الحق يسري ويشرق

سيؤنسه رشدًا وينسي نفاره كما نسي التوثيق من هو مطلق

ففطرة الله وشرعه من أكبر الحجج على فرقة التقليد.

سورة الانشقاق

الباب الأول

قوله تعالى: ﴿ فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ ۩ ۝ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ ۝ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ۝ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ [الانشقاق:٢٠-٢٥].

قال (ك) وقوله تعالى: فما لهم لا يؤمنون، وإذا قرئ عليهم القرآن لا يسجدون، أي فماذا يمنعهم من الإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر، وما لهم إذا قرئت عليهم آيات الله وكلامه وهو هذا القرآن لا يسجدون إعظامًا وإكرامًا واحترامًا، وقوله تعالى: ﴿ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ ﴾ أي من سجيتهم التكذيب والعناد والمخالفة للحق ﴿ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴾ أي يكتمون في صدورهم ﴿ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ أي فأخبرهم يا محمد بأن الله عز وجل قد أعد لهم عذابًا أليمًا.

وقوله تعالى: ﴿ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ ﴾ يعني لكن الذين آمنوا أي بقلوبهم وعملوا الصالحات أي بجوارحهم ﴿ لَهُمْ أَجْرٌ ﴾ أي في الدار الآخرة ﴿ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ أي غير مقطوع كما قال تعالى: ﴿ عَطَاء غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾.

إن الله عز وجل له المنة على أهل الجنة في كل حال وآن ولحظة وإنما دخلوها بفضله ورحمته لا بأعمالهم فله عليهم المنة دائمًا سرمدًا والحمد لله وحده أبدًا ولهذا يلهمون تسبيحه وتحميده كما يلهمون النفس وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين.

وعن أبي هريرة ﷺ قال سجدنا مع رسول الله ﷺ، في إذا السماء انشقت، واقرأ باسم ربك الذي خلق. رواه مسلم.

فصل

قال محمد تقي الدين: في هذه السورة سجدة من سجدات القرآن وقد نفاها المتسبون إلى المذهب المالكي ونفوا معها ثلاث سجدات أخرى ثابتة عن النبي ﷺ وهي السجدة الثانية من سورة الحج وسجدة آخر سورة النجم وسجدة آخر سورة اقرأ باسم ربك وليس لهم عذر في نفي هذه السجدات إلا الجهل أو العناد وإذا ثبت أن الإمام مالكًا رحمه الله لم يثبت هذه السجدات فعذره أن الحديث في زمانه لم يكن قد تكامل جمعه ولم يطف في الدنيا لطلب علم الحديث وقد عمل بما بلغه وقال: إنما أنا بشر أصيب وأخطئ وقال ما منا إلا راد ومردود عليه إلا صاحب هذا القبر وأشار إلى بيت النبي ﷺ، وتقدم أن عبد الله بن قعنب وهو من الرواة عنه دخل فوجده يبكي فسأله عن بكائه ما سببه فقال: إنا لله يا ابن قعنب على ما فرط مني وددت أني ضربت بكل فتوى أفتيتها برأي واجتهادي سوطًا ولم أسبق

إلى شيء تركه من هو خير مني يعني أصحاب رسول الله ﷺ، وهو فيما بكى عليه رحمه الله معذور ومأجور أما المنتسبون إليه فهم غير معذورين ولا مأجورين بل هم مأزورون لأن الحديث في زمانهم قد جمع وحقق وانتشر ونخل حتى تبين صحيحه من سقيمه وغثه من سمينه قال الآبي في شرحه لصحيح مسلم عند حديث إذا اجتهد الحاكم وأصاب فله أجران إلخ: أن الاجتهاد في زماننا أيسر منه في زمان مالك لأن من قرأ الأحكام الكبرى لعبد الحق الأشبيلي في مسألة وجد فيها من الأحاديث ما لا يكاد يحضر مالكًا والابي من أهل القرن الثامن للهجرة فرحمة الله فقد نصح وبلغ ولم يكتم وهذا شأن العلماء العالمين والأئمة المخلصين وقال شيخنا محمد بن العربي العلوي رحمة الله عليه إذا رأيت خليلاً يقول « لا » فإنه يرد على النبي ﷺ.

وقد قال خليل في مختصره في هذه السجدات الأربع ما نصه:

« لا ثانية الحج والنجم والانشقاق والعلق، ومختصر خليل هو عمدة المتأخرين من المنتسبين إلى المذهب المالكي قلدوه قلادة سوء وصار حجة عندهم يفتخرون به، ولله در من قال:

انظر فلا عجب يومًا لمعتبر   أشد من ذي عمي يسطو بقائده

ومعناه: أن الأعمى إذا افتخر بمن يقوده وادعى أنه أحد الناس بصرًا يكون كاذبًا لأنه مقلد أعمى لا يستطيع أن يعرف تفاوت الناس في الإبصار هذا إذا كان قائده مبصرًا أما إذا كان قائده أعمى أيضًا فذاك أشد عجبًا وأكثر ضلالاً وجهلاً. وخليل في مختصره لا يذكر الأدلة فهو أعمى يقود عميانًا فيقعون جميعًا في حفر الضلال وقد تقدم الكلام في هذا مستوفي فالحمد لله على العافية.

قال صاحب الدين الخالص ج٤ ص٣٧٢ ما نصه:

الوجه الثامن والستون: قولكم: إن الله سبحانه فاوت بين قوي الأذهان كما فاوت بين قوي الأبدان.

فلا يليق بحكمته وعدله. أن يفرض على كل أحد معرفة الحق بدليله في كل مسألة إلى آخره، فنحن لا ننكر ذلك ولا ندعي أن الله فرض على جميع خلقه معرفة الحق،

بدليله في كل مسألة من مسائل الدين دقه وجله.

وإنما أنكرنا ما أنكره الأئمة، ومن تقدمهم من الصحابة والتابعين، وما حدث في الإسلام بعد انقضاء القرون الفاضلة في القرن الرابع المذموم على لسان رسول الله ﷺ، من نصب رجل واحد، وجعل فتاواه بمنزلة نصوص الشارع، بل تقدم على أقواله ويقدم قوله على أقوال من بعد رسول الله ﷺ من جميع علماء أمته.

والاكتفاء بتقليده عن تلقي الأحكام من كتاب الله، وسنة رسوله.

وهذا مع تضمنه للشهادة بما لا يعلم الشاهد، والقول بلا علم، والأخبار عمن خالفه وإن كان منه أنه غير مصيب للكتاب والسنة، ومتبوعه هو المصيب أو يقول: كلاهما مصيب للكتاب، والسنة، وقد تعارضت أقوالهما فيجعل أدلة الكتاب والسنة متعارضة متناقضة، والله ورسوله يحكم بالشيء وضده في وقت واحد، ودينه تبع لآراء الرجال وليس له في نفس الأمر حكم معين.

فهو إما أن يسلك هذا المسلك أو يخفي من خالف متبوعه، ولابد له من واحد من الأمرين، وهذا من بركة التقليد عليه.

إذا عرفت هذا، فنحن نقول: إن الله تعالى أوجب على العباد أن يتقوه بحسب استطاعتهم، وأصل التقوى معرفة ما يتقي العمل به.

فالواجب على كل عبد أن يبذل جهده في معرفة ما يتقيه، مما أمر الله به ونهاه عنه، ثم يلتزم طاعة الله ورسوله وما خفي عليه فهو فيه أسوة أمثاله ممن عدا الرسول.

فكل أحد سواه، قد خفي عليه بعض ما جاء به ولم يخرجه ذلك عن كونه من أهل العلم، ولم يكلفه الله ما لا يطيق من معرفة الحق وأتباعه.

قال أبو عمر: وليس أحد – بعد رسول الله ﷺ – إلا وقد خفي عليه بعض أمره.

فإذا أوجب الله سبحانه على كل أحد ما استطاعه وبلغته قواه من معرفة الحق، وعذره فيما خفي عليه منه، فأخطأه أو قلد فيه غيره كان ذلك هو مقتضى حكمته وعدله ورحمته:

بخلاف ما لو فرض على العباد تقليد من شاؤوا من العلماء وأن يختار كل منهم رجلاً ينصبه معيارًا على وحيه، ويعرض عن أخذ الأحكام واقتباسها من مشكاة الوحي،

فإن هذا ينافي حكمته، ورحمته، وإحسانه، ويؤدي إلى ضياع دينه، وهجر كتابه، وسنة رسوله كما وقع فيه من وقع وبالله التوفيق.

سورة الأعلى

الباب الأول

قوله تعالى: ﴿ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ۝ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ۝ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ۝ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ۝ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴾ [الأعلى:٩-١٣].

قال (ك): وقوله تعالى: ﴿ **فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى** ﴾ أي ذكر حيث تنفع التذكرة ومن ههنا يؤخذ الأدب في نشر العلم فلا تضعه عند غير أهله... كما قال أمير المؤمنين على ﷺ ما أنت بمحدث قومًا حديثًا لا تبلغه عقولهم إلا كان فتنة لبعضهم، وقوله تعالى: ﴿ **سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَى** ﴾ أي سيتعظ بالرسالة من قلبه يخشى الله، ﴿ **وَيَتَجَنَّبُهَا الأَشْقَى الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى ثُمَّ لا يَمُوتُ فِيهَا وَلا يَحْيَى** ﴾ أي لا يموت فيستريح ولا يحيي حياة تنفعه، لأنه يعاقب فيها بأليم العذاب وأنواع النكال، وروي الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: « أما أهل النار الذين هم أهلها فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون ولكن أناس – أو كما قال – تصيبهم النار بذنوبهم أو قال بخطاياهم فيميتهم إماتة حتى إذا صاروا فحما أذن في الشفاعة فجيء بهم ضبائر [١] ضبائر فبثوا على أنهار الجنة فيقال: يا أهل الجنة أفيضوا عليهم فينبتون نبات الحبة تكون في حميل السيل » [٢] ورواه مسلم.

فصل

قال محمد تقي الدين: أمر الله نبيه الكريم أن يذكر عباده بأن يتلو عليهم آياته ويبينها لهم بأقواله وأفعاله فمن آمن به وصدقه قولاً وعملاً واعتقادًا فهو الفائز السعيد ومن رد قوله وعصي أمره فهو الخاسر البليد وإذا لم نهيء أنفسنا لتلقي كلام الله وكلام رسوله كله

---

(١) الضبائر جمع ضبارة وهي الحزمة من الحطب.

(٢) المراد بهذا من كان موحدًا لله متبعًا لرسول الله ﷺ ولكن مات على المعاصي والكبائر وعليه حقوق الناس لا الكفار.

بالقبول والرضى والتسليم والحب والعمل واعتذرنا بتقليد الآباء والأئمة والمذاهب والطرائق والأحزاب وما أشبه ذلك فإننا لن ننجو من عذاب الله لا في الدنيا ولا في الآخرة ولن نفوز برضوان الله ولطفه وتأييده ونصره لا في العاجل ولا في الآجل.

قال صاحب الدين الخالص ج٤ ص٣٧٣ ما نصه:

الوجه التاسع والستون: قولكم: أنكم في تقليدكم بمنزلة المأموم مع الإمام، والمتبوع مع التابع، والركب خلف الدليل.

جوابه: أنا – والله – حولها ندندن، ولكن الشأن في الإمام، والدليل، والمتبوع الذي فرض الله على الخلائق أن تأتم به، ويسير خلفه.

وأقسم سبحانه بعزته أن العباد لو أتوه من كل طريق، أو استفتحوا من كل باب، لم يفتح لهم حتى يدخلوا من بابه.

فهذا لعمر الله هو إمام الخلق ودليلهم وقائدهم حقًا، ولم يجعل الله منصب الإمامة بعده إلا لمن دعا إليه، ودل عليه، وأمر الناس أن يقتدوا به، ويأتموا به ويسيروا خلفه وأن لا ينصبوا لنفوسهم متبوعًا، ولا إمامًا، ولا دليلاً غيره، بل يكون العلماء مع الناس بمنزلة أئمة الصلاة مع المصلين، كل واحد يصلي طاعة لله وامتثالاً لأمره، وهم في الجماعة متعاونون متساعدون، وبمنزلة الوفد مع الدليل كلهم يتمسك بطاعة الله امتثالاً لأمره.

لا إن المأموم يصلي لأجل كون الإمام يصلي، بل هو يصلي كما صلى إمامه أولاً، بخلاف المقلد، فإنه إنما ذهب إلى قول متبوعه، لأنه قاله، لا لأن الرسول قاله.

ولو كان كذلك، لدار مع الرسول أين كان، ولم يكن مقلدًا.

فاحتجاجهم بإمام الصلاة، ودليل الحاج، من أظهر الحجج عليهم، يوضحه الوجه السبعون: أن الإمام قد علم أن هذه الصلاة التي فرضها الله سبحانه على عباده، وأنه وإمامه في وجوبها سواء، وأن هذا البيت هو الذي فرض الله حجه على كل من استطاع إليه سبيلا، وأنه هو والدليل في هذا الفرض سواء. فهو لم يحج تقليدًا للدليل، ولم يصل تقليدًا للإمام.

وقد استأجر النبي ﷺ، دليلاً يدله على طريق المدينة لما هاجر الهجرة التي فرضها الله عليه.

وصلى خلف « عبد الرحمن بن عوف » مأمومًا، والعالم يصلي خلف مثله، ومن هو دونه، بل خلف من ليس بعالم، وليس من تقليده في شيء.

يوضحه الوجه الحادي والسبعون: أن المأموم يأتي بمثل ما يأتي به الإمام سواء، والركب يأتي بمثل ما أتوا به سواء من معرفة الدليل، وتقديم الحجة وتحكيمها حيث كانت، ومع من كانت، فهذا يكون متبعًا لهم.

وأما من أعرض عن الأصل الذي قامت عليه إمامتهم ويسلك غير سبيلهم ثم يدعي أنه مؤتم بهم، فتلك أمانيهم، ويقال لهم: ﴿ هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾.

سورة الغاشية

الباب الأول

قوله تعالى: ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ۝ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ۝ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ۝ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴾ [الغاشية:٢١-٢٤].

قال (ك) وقوله تعالى: ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴾ أي فذكر يا محمد الناس بما أرسلت به إليهم ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴾ ولهذا قال ﴿ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴾ أي لست تخلق الإيمان في قلوبهم، وعن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله عز وجل » ثم قرأ: ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴾ وهذا الحديث مخرج في الصحيحين بدون ذكر هذه الآية، وقوله تعالى: ﴿ إِلاَّ مَن تَوَلَّى وَكَفَرَ ﴾ أي تولى عن العمل بأركانه، وكفر بالحق بجنانه ولسانه، وهذا كقوله تعالى: ﴿ فَلا صَدَّقَ وَلا صَلَّى وَلَكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴾ ولهذا قال: ﴿ فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الأَكْبَرَ ﴾ وروي الإمام أحمد عن أبي أمامة الباهلي أنه مر على خالد بن يزيد بن معاوية فسأله عن ألين كلمة سمعها من رسول الله ﷺ فقال: « سمعت من رسول الله ﷺ يقول كلكم يدخل الجنة إلا من شرد على الله شراد البعير على أهله ».

فصل

قال محمد تقي الدين: هذه السورة مكية قبل أن يأمر الله رسوله بقتال المشركين من أهل جزيرة العرب حتى يسلموا فلم يكن عليه إلا البلاغ، وأخبر الله تعالى أن من أعرض عن تذكرة النبي ﷺ، وكفر بها يعذبه الله العذاب الأكبر في الدنيا والآخرة ومن ادعى أنه لم يكفر بها ولكنه امتنع من العمل بما جاء به الرسول ﷺ كأهل هذا الزمان الذين يحلون الربا وشرب الخمر والزنا وغير ذلك فادعاؤهم الإيمان لا ينفعهم مثقال ذرة وسيعذبهم الله العذاب الأكبر وقد فعل سبحانه فإن عجز ثمانمائة مليون عن مقاومة ثلاثة ملايين هو من العذاب الأكبر ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون وكذلك المقلد الذي يأمره النبي ﷺ أن يصلي على هيئة مخصوصة أو يتوضأ أو يحج أو يعقد النكاح أو يؤتي الزكاة أو يبيع ويشتري وما أشبه ذلك فيعصي أمر النبي ﷺ لأنه خالف مذهب إمامه أيضًا يعذبه الله العذاب الأكبر.

قال صاحب الدين الخالص ج٤ ص٣٧٥ ما نصه:

الوجه الثاني والسبعون: قولكم: أن أصحاب رسول الله ﷺ فتحوا البلاد، وكان الناس حديثي عهد بالإسلام وكانوا يفتونهم، ولم يقولوا لأحد منهم: عليك أن تطلب معرفة الحق في هذه الفتوى بالدليل.

جوابه: أنهم لم يفتوهم بآرائهم، وإنما بلغوهم ما قاله نبيهم، وفعله، وأمر به، فكان ما أفتوهم به هو الحكم، وهو الحجة، وقالوا لهم:

« هذا عهد نبينا إلينا، وهو عهدنا إليكم » فكان ما يخبرونهم به هو نفس الدليل، وهو الحكم.

فإن كلام رسول الله ﷺ هو الحكم، وهو دليل الحكم، وكذلك القرآن، وكان الناس إذ ذاك، إنما يحرصون على ما قاله نبيهم وفعله، وأمر به. وإنما يبلغهم الصحابة ذلك.

فأين هذا من زمان، إنما يحرص الناس فيه على ما قاله الآخر فالآخر، وكلما تأخر الرجل أخذوا كلامه، وهجروا، أو كادوا يهجرون، كلام من فوقه، حتى تجد أتباع الأئمة اشد الناس هجرًا لكلامهم.

وأهل كل عصر إنما يقضون ويفتون بقول الأدنى إليهم.

وكلما بعد العهد، ازداد كلام المتقدم هجرًا ورغبة عنه، حتى إن كتبه لا تكاد تجد فيهم منها شيئًا بحسب تقدم زمانه.

ولكن أين قال أصحاب رسول الله ﷺ للتابعين: « لينصب كل منكم لنفسه رجلاً يختاره ويقلده دينه ولا يلتفت إلى غيره، ولا يتلق الأحكام من الكتاب والسنة، بل من تقليد الرجال فإذا جاءكم عن الله ورسوله شيء، وعن من نصبتموه إمامًا تقلدونه، فخذوا بقوله، ودعوا ما بلغكم عن الله ورسوله ».

فوالله لو كشف الغطاء لكم، وحقت الحقائق، لرأيتم نفوسكم وطريقكم مع الصحابة كما قال: الأول:

نزلوا بمكة في قبائل هاشم ... ونزلت بالبيداء أبعد منزل
سارت مشرقة وسرت مغربا ... شتان بين مشرق ومغرب

وقال آخر:

أيها المنكح الثريا سهيلا ... عمرك الله كيف يلتقيان
هي شامية إذا ما استقلت ... وسهيل إذا استقل يماني

الوجه الثاني والسبعون: قولكم: أن التقليد من لوازم الشرع والقدر.

والمنكرون له مضطرون إليه ولابد، كما تقدم بيانه من الأحكام.

جوابه: أن التقليد المنكر المذموم ليس من لوازم الشرع، وإن كان من لوازم القدر، بل بطلانه وفساده من لوازم الشرع، كما عرف بهذه الوجوه التي ذكرناها، وأضعافها، وإنما الذي من لوازم الشرع، المتابعة، وهذه المسائل التي ذكرتم إنها من لوازم الشرع، ليست تقليدًا، وإنما هي متابعة وامتثال للأمر، فإن أبيتم إلا تسميتها تقليدًا، فالتقليد بهذا الاعتبار حق وهو من الشرع ولا يلزم من ذلك أن يكون التقليد الذي وقع النزاع فيه من الشرع ولا من لوازمه، وإنما بطلانه من لوازمه.

سورة البلد

الباب الأول

قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۝ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ۝ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ۝ فَكُّ رَقَبَةٍ ۝ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ۝ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ۝ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ۝ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ۝ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ۝ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ۝ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌۢ ﴾ [البلد:٨-٢٠].

قال (ك): وقوله تعالى: ﴿ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ ﴾ أي يبصر بهما ﴿ وَلِسَانًا ﴾ ينطق به، فيعبر عما في ضميره، ﴿ وَشَفَتَيْنِ ﴾ يستعين بهما على الكلام، وأكل الطعام، وجمالاً لوجهه وفمه ؟ ويروي في بعض الأحاديث القدسية ما معناه « يا ابن آدم إن من نعمي عليك أن جعلت لك عينين تنظر بهما، وجعلت لهما غطاء فانظر بعينيك ما أحللت لك، وأطبق غطاءهما عما حرمت عليك، وخلقت لسانك وجعلت له غلافًا، فتكلم بما أمرتك، وأحللت لك وأغلقه عما حرمت عليك وجعلت لك فرجًا وجعلت لك سترًا، فأصب بفرجك ما أحللت لك وأبعده عما حرمت عليك، يا ابن آدم إنك لا تحمل سخطي ولا تطيق انتقامي » ﴿ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾ أي الطريقين الخير والشر، ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾.

﴿ الْعَقَبَةَ ﴾ جبل في جهنم قاله ابن عمر قال قتادة: إنها عقبة قحمة شديدة فاقتحموها بطاعة الله ثم قال: ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ﴾ ثم أخبر تعالى عن اقتحامها فقال: ﴿ فَكُّ رَقَبَةٍ أَوْ إِطْعَامٌ ﴾ قال ابن زيد ﴿ فَلا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ﴾ أي فلا سلك الطريق التي فيها النجاة والخير ثم بينها فقال تعالى: ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴾ الرقبة المملوك، وروي الإمام أحمد عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ من أعتق رقبة مؤمنة أعتق الله بكل أرب – أي عضو – منها، أربا منه من النار حتى أنه ليعتق باليد اليد وبالرجل الرجل وبالفرج الفرج.

قال على بن الحسين: « أنت سمعت هذا من أبي هريرة فقال سعيد: ثم فقال على بن الحسين لغلام له أفره [(١)] غلمانه ادع لي مطرفًا فلما قام بين يديه قال: اذهب فأنت حر لوجه الله ». رواه البخاري ومسلم.

وقوله تعالى: ﴿ أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ﴾ قال ابن عباس أي ذي مجاعة ﴿ أَوْ يَتِيمًا ﴾ أي أطعم في مثل هذا اليوم يتيمًا ﴿ ذَا مَقْرَبَةٍ ﴾ أي ذا قرابة من المطعم: كما جاء في الحديث الذي رواه أحمد عن سلمان بن عامر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « الصدقة على المسكين صدقة، وعلى ذي الرحم اثنتان صدقة وصلة » وقوله تعالى: ﴿ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴾ أي فقرًا مدقعًا لاصقًا بالتراب وهو الذي لا بيت له ولا شيء يقيه من التراب ولا أحد له، وقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ ثم هو أي المتصدق مع هذه الأوصاف الجميلة الطاهرة مؤمن بقلبه محتسب ثواب ذلك عند الله عز وجل، كما قال تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ وقوله تعالى: ﴿ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ﴾ أي كان من المؤمنين العاملين صالحًا، المتواصين بالصبر على أذى الناس وعلى الرحمة فهم كما جاء في الحديث: « الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء ». وقوله تعالى: ﴿ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ﴾ أي المتصفون بهذه الصفات من أصحاب اليمين، ثم قال: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ﴾ أي أصحاب الشمال ﴿ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌ ﴾ أي مطبقة عليهم فلا محيد عنها ولا خروج منها، ولا فرج إلى آخر الأبد فلا تستقر أقدامهم على قرار ولا ينظرون إلى أديم السماء أبدًا، ولا تلتقي جفون أعينهم على غمض نوم أبدًا، ولا يذوقون فيها بارد شراب أبدًا. رواه ابن أبي حاتم عن أبي عمران الجوني.

فصل

قال محمد تقي الدين: قوله تعالى: وهديناه النجدين أحد النجدين أتباع الرسول والتمسك بما جاء به والموالاة عليه والمعاداة عليه والحب فيه والبغض فيه والثاني: الكفر بما

(١) أفره غلمانه – أفضل غلمانه.

جاء به الرسول أو الإيمان الكاذب الذي لا عمل معه والمتبعون لهذا النجد خاسرون كلهم وأصحاب النجد الثاني مغالطون فكيف يجتمع الإيمان بالرسول مع معصية الرسول، وما أحسن قول الشاعر:

تعصي الرسول وأنت تظهر حبه ... هذا محال في القياس بديع

لو كان حبك صادقًا لأطعته ... إن المحب لمن يحب مطيع

فتصور في هذا الزمان رجلاً انتمى إلى حزب سياسي يوجه إليه مكتب الحزب الدعوة بعد الدعوة فلا يحضر ولا يعتذر ولا يدفع اشتراكًا ولم يدع أحدًا ليدخل في الحزب فهل يعقل أن رئيس الحزب يقبله عضوًا في حزبه ؟ كلا بل يتبرأ منه الحزب كل البراءة ويعاديه أشد العداوة.

قال صاحب الدين الخالص ج٤ ص٣٧٧ ما نصه:

الوجه الرابع والسبعون: أن ما كان من لوازم الشرع، فبطلان ضده من لوازم الشرع، فلو كان التقليد الذي وقع فيه النزاع من لوازم الشرع، لكان بطلان الاستدلال، وإتباع الحجة في موضع التقليد من لوازم الشرع، فإن ثبوت أحد النقيضين يقتضي انتفاء الآخر، وصحة أحد الضدين توجب بطلان الآخر.

ونحرره دليلاً فنقول: لو كان التقليد من الدين لم يجز العدول عنه إلى الاجتهاد والاستدلال، لأنه يتضمن بطلانه، فإن قيل: كلاهما من الدين، وأحدهما أكمل من الآخر، فيجوز العدول من المفضول إلى الفاضل قيل: إذا كان قد انسد باب الاجتهاد عندكم، وقطعت طريقته، وصار الفرض هو التقليد، فالعدول عنه إلى ما قد سد بابه، وقطعت طريقه، يكون: عندكم مصيبة، وفاعله آثم.

وفي هذا من قطع طريق العلم، وإبطال حجة الله وبيناته، وخلو الأرض من قائم لله بحججه، ما يبطل هذا القول ويدحضه.

وقد ضمن النبي ﷺ أنه: « لا تزال طائفة من أمته على الحق لا يضرهم من خذلهم، ولا من خالفهم حتى تقوم الساعة ».

وهؤلاء هم أولوا العلم والمعرفة بما بعث الله به رسوله، فإنهم على بصيرة من دينه بخلاف الأعمى الذي قد شهد على نفسه بأنه ليس من أولي العلم، والبصائر والمقصود أن الذي هو من لوازم الشرع.

فالمتابعة والاقتداء، وتقديم النصوص على آراء الرجال، وتحكيم الكتاب والسنة في كل ما تنازع فيه العلماء.

وأما الزهد في النصوص، والاستغناء عنها بآراء الرجال، وتقديمها عليها، والإنكار على من جعل كتاب الله وسنة رسوله، وأقوال الصحابة نصب عينيه، وعرض أقوال العلماء عليها، ولم يتخذ من دون الله، ولا رسوله وليجة، فبطلانه من لوازم الشرع، ولا يتم الدين إلا بإنكاره وإبطاله، فهذا لون، والاتباع لون والله الموفق.

الوجه السادس والسبعون: قولكم: منعتم من التقليد خشية وقوع المقلد في الخطأ، بأن يكون من قلده مخطئًا في فتواه، ثم أوجبتم عليه النظر والاستدلال في طلب الحق، ولا ريب أن جوابه في تقليده لمن هو أعلم منه أقرب من اجتهاده هو لنفسه كمن أراد شراء سلعة لا خبرة له بها، فإنه إذا قلد عالمًا بتلك السلعة، خبيرًا بها، أمينًا ناصحًا، كان صوابه وحصول غرضه أقرب من اجتهاده لنفسه.

جوابه: من وجوه:

أحدها: أنا منعنا التقليد طاعة لله ورسوله، والله منع منه وذم أهله في كتابه، وأمر بتحكيمه وتحكيم رسوله، ورد ما تنازعت فيه الأمة إليه وإلى رسوله، وأخبر أن الحكم له وحده، ونهى أن يتخذ من دونه أو دون رسوله وليجة، وأمر أن يعتصم بكتابه، ونهى أن يتخذ من دونه أولياء وأربابًا يحل من اتخذهم ما أحلوه ويحرم ما حرموه، وجعل من لا علم له بما أنزله على رسوله بمنزلة الأنعام، وأمر بطاعة أولي الأمر إذا كانت طاعتهم طاعة لرسوله، بأن يكونوا متبعين لأمره مخبرين به، وأقسم بنفسه — سبحانه — أنه لا نؤمن حتى نحكم الرسول خاصة فيما شجر بيننا، لا نحكم غيره، ثم لا نجد في أنفسنا حرجًا مما حكم به كما يجده المقلدون إذا جاء حكمه خلاف قول من قلدوه، وأن نسلم لحكمه تسليمًا. كما يسلم المقلدون لأقوال من قلدوه، تسليمًا أعظم من تسليمهم وأكمل والله المستعان، وذم من حاكم إلى غير الرسول.

وهذا كما أنه ثابت في حياته، فهو ثابت بعد مماته.

فلو كان حيًا بين أظهرنا وتحاكمنا إلى غيره، لكنا من أهل الذم والتقليد، والوعيد، فسنته، وما جاء به من الهدي ودين الحق لم يمت، وإن فقد بين الأمة شخصه الكريم، فلم يفقد من بيننا سنته ودعوته وهديه، والعلم والإيمان – بحمد الله – مكانهما، من ابتغاهما وجدهما.

وقد ضمن الله سبحانه حفظ الذكر الذي أنزله على رسوله، فلا يزال محفوظًا بحفظ الله، محميًا بحمايته يقيم حجة على العباد قرنًا بعد قرن. إ كان نبيهم آخر الأنبياء ولا نبي بعده.

فكان حفظه لدينه وما أنزله على رسوله مغنيًا عن رسول آخر بعد خاتم الرسل، والذي أوجبه الله سبحانه وفرضه على الصحابة، من تلقي العلم والهدي من القرآن والسنة دون غيرهما، هو – بعينه – واجب على من بعدهم، وهو محكم لم ينسخ ولا يتطرق إليه النسخ حتى ينسخ الله العالم ويطوي الدنيا، وقد ذم الله تعالى من إذا دعي إلى ما أنزل الله وإلى رسوله صد وأعرض، وحذره أن تصيبه مصيبة – بإعراضه عن ذلك – في قلبه ودينه ودنياه، وحذر من خالف عن أمره وأتبع غيره، أن تصيبه فتنة أو يصيبه عذاب أليم، فالفتنة في قلبه، والعذاب الأليم في بدنه وروحه، وهما متلازمان، فمن فتن في قلبه – بإعراضه عما جاء به ومخالفته له إلى غيره – أصيب بالعذاب الأليم ولابد.

وأخبر سبحانه أنه إذا قضى أمرًا على لسان رسوله، لم يكن لأحد من المؤمنين أن يختار من أمره غير ما قضاه، فلا خيرة بعد قضائه – لمؤمن البتة.

ونحن نسأل المقلدين: هل يمكن أن يخفي عليه ذلك الذي أنزلوه فوق منزلة أبي بكر وعمر وعثمان وعلي والصحابة كلهم، فليس أحد منهم إلا وقد خفي عليه بعض ما قضى الله ورسوله به.

فهذا الصديق أعلم الأمة به، خفي عليه ميراث الجدة، حتى أعلمه به محمد بن مسلمة، والمغيرة بن شعبة، وخفي عليه الشهيد لا دية له حتى أعلمه به عمر، فرجع إلى قوله.

ثم ذكر صاحب الدين الخالص مسائل عن عمر نذكر بعضها:

فمنها: أنه خفي على (عمر) تيمم الجنب فقال: لو بقي شهرًا لم يصل حتى يغتسل.

وخفي عليه دية الأصابع فقضى في الإبهام والتي تليها بخمس وعشرين، حتى أخبر أن في كتاب النبي إلى عمرو بن حزم أن رسول الله ﷺ، قضى فيها بعشر عشر فترك قوله ورجع إليه.

وخفي عليه شأن الاستئذان حتى أخبره به أبو موسى وأبو سعيد الخدري.

وخفي عليه توريث المرأة من دية زوجها، حتى كتب إليه الضحاك بن سفيان الكلابي وهو أعرابي من أهل البادية: « أن رسول الله ﷺ، أمره أن يورث امرأة أشيم الضبابي من دية زوجها ».

وخفي عليه حكم إملاص[1] المرأة حتى سأل عنه فوجده عند المغيرة بن شعبة وخفي عليه أمر المجوس في الجزية حتى أخبره عبد الرحمن بن عوف أن رسول الله ﷺ أخذها من مجوس هجر.

وخفي عليه سقوط طواف الوداع عن الحائض فكان يردهن حتى يطهرن ثم يطفن حتى بلغه عن النبي ﷺ خلاف ذلك فرجع عن قوله.

وخفي عليه شأن متعة الحج وكان ينهي عنها حتى وقف على أن النبي ﷺ أمر بها فترك قوله وأمر بها.

وخفي عليه جواز التسمي بأسماء الأنبياء فنهى عنه، حتى أخبره به طلحة أن النبي ﷺ كناه أبا محمد، فأمسك ولم يتمادى على النهي، هذا وأبو موسى، ومحمد بن مسلمة، وأبو أيوب من أشهر الصحابة ولم يمر بباله أمر هو بين يديه حتى نهى عنه.

وكما خفي عليه قوله تعالى: ﴿ **إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ** ﴾ وقوله: ﴿ **وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ** ﴾ حتى قال: والله كأني ما سمعتها قط قبل وقتي هذا.

فصل

قال محمد تقي الدين: ومقصود المصنف بسرد هذه المسائل أن يقيم الحجة على المقلدين الذين يزعمون أن إمامهم وأهل مذهبهم أحاطوا علمًا بجميع المسائل وعرفوا جميع

(١) أملصت المرأة ألقت ولدها ميتًا.

الأحاديث فإذا قيل لهم لماذا لم تعملوا بهذا الحديث أجابوا بقولهم إمامنا أعلم به ولا يمكن أن يخفى عليه وما ترك العمل به إلا لعلة أما إن يكون منسوخًا أو ضعيفًا عنده أو عنده حديث آخر يعارضه ولم نطلع عليه فإذا رأوا أن كبار الصحابة يخفى عليهم كثير من السنن ويفتون بخلافها حتى إذا ظهر الحق لهم ممن هو دونهم في العلم تركوا أقوالهم ورجعوا إليه وهذا هو الواجب على كل مسلم وإن كان أعلم الناس.

سورة الشمس

الباب الأول

قوله تعالى: ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴾ [الشمس:٨-١٠].

قال (ك): وقوله تعالى: ﴿ **فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا** ﴾ أي فأرشدها إلى فجورها وتقواها، وبين لها الخير والشر.

وقوله تعالى: ﴿ **قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا** ﴾ أي قد أفلح من زكى نفسه بطاعة الله عز وجل.

وروي ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول في قول الله عز وجل: ﴿ **قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا** ﴾ قال ﷺ: « أفلحت نفس زكاها الله عز وجل، وكان رسول الله ﷺ إذا مر بهذه الآية ﴿ **وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا** ﴾، وقف ثم قال: اللهم آت نفسي تقواها وزكها أنت خير من زكاها أنت وليها ومولاها.

فصل

قال محمد تقي الدين: قسم الله سبحانه الناس قسمين: قسم: مفلحون: فائزون بكل ما أملوا ناجون من كل ما خافوا سعداء في الدنيا والآخرة وقسم: خائبون. خاسرون أشقياء في الدنيا والآخرة: فالمفلحون هم الذين زكوا أنفسهم بإتباع كتاب الله وسنة رسوله إيمانًا واعتقادًا وعملاً والخائبون الخاسرون هم الذين خالفوهما أو كفروا بهما وتقليد المذاهب وإتباع الطرائق يفضيان إلى مخالفتهما لا محالة فيمنعان صاحبهما من تزكية نفسه ويوقعانه في الخيبة والخسران.

قال صاحب الدين الخالص ج٤ ص٣٨٥ ما نصه:

الوجه السابع والسبعون: أن نقول لطائفة المقلدين: هل تسوغون تقليد كل عالم من السلف والخلف، أم تقليد بعضهم دون بعض، فإن سوغتم تقليد الجميع، كان تسويغكم لتقليد من انتميتم إلى مذهبه، كتسويغكم لتقليد غيره سواء.

فكيف صارت أقوال هذا العالم مذهبًا لكم تفتون وتقضون بها وقد سوغتم من تقليد هذا ما سوغتم من تقليد الآخر ؟

فكيف صار هذا صاحب مذهبكم دون هذا، وكيف استجزتم أن تردوا أقوال هذا، وتقلدوا أقوال هذا، وكلاهما عالم يسوغ أتباعه ؟

فإن كانت أقواله من الدين فكيف ساغ لكم دفع الدين ؟ وإن لم تكن أقواله من الدين فكيف سوغتم تقليده ؟ وهذا لا جواب لكم عنه يوضحه، الوجه الثامن والسبعون: أن من قلدتموه إذا روي عنه روايتان، سوغتم العمل بهما، وقلدتم مجتهدًا له قولان، فقلتم: يسوغ لنا الأخذ بهذا وهذا.

وكان القولان جميعًا مذهبًا لكم، فهلا جعلتم قول نظيره من المجتهدين بمنزلة قوله الآخر، وجعلتم القولين جميعًا مذهبًا لكم، وربما كان قول نظيره، ومن هو أعلم منه، أرجح من قوله الآخر، وأقرب إلى الكتاب والسنة ؟ يوضحه.

الوجه التاسع والسبعون: أنكم – معاشر المقلدين – إذا قال بعض أصحابكم ممن قلدتموه قولاً خلاف قول المتبوع، أو خرجه على قول جعلتموه وجهًا وقضيتم، وأفتيتم به وألزمتم بمقتضاه، فإذا قال الإمام الذي هو نظير متبوعكم، أو فوقه، قولاً يخالفه، لم تلتفتوا إليه ولم تعدوه شيئًا.

ومعلوم أن واحدًا من الأئمة، الذين هم نظراء متبوعكم أجل من جميع أصحابه، من أولهم إلى آخرهم، فقدروا أسوأ التقادير أن يكون قوله بمنزلة وجه في مذهبكم.

فيالله للعجب، صار من أفتى أو حكم بقول واحد من مشايخ المذهب، أحق بالقبول ممن أفتى بقول الخلفاء الراشدين، وابن مسعود، وابن عباس، وأبي بن كعب، وأبي الدرداء، ومعاذ بن جبل ؟! ... وهذا من بركة التقليد عليكم.

سورة العصر

الباب الأخير

قوله تعالى: ﴿ وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴾ [العصر:١-٣].

قال (ك): ﴿ **وَالْعَصْرِ** ﴾ الزمان وقال زيد بن أسلم: صلاة العصر والمشهور الأول فأقسم تعالى بذلك على الإنسان لفي خسارة وهلاك ﴿ **إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ** ﴾ فاستثنى من جنس الإنسان من الخسران الذين آمنوا بقلوبهم وعملوا الصالحات بجوارحهم ﴿ **وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ** ﴾ أي على المصائب والأقدار وأذى من يؤذيهم ممن يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر.

ذكروا أن عمرو بن العاص وفد على مسيلمة الكذاب وذلك بعد ما بعث رسول الله ﷺ وقبل أن يسلم عمرو فقال له مسيلمة ماذا أنزل على صاحبكم في هذه المدة ؟ فقال: لقد أنزل عليه سورة وجيزة بليغة فقال وما هي فقال: ﴿ **وَالْعَصْرِ إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ** ﴾ ففكر مسيلمة هنيهة ثم قال: وقد أنزل على مثلها، فقال له عمرو وما هو ؟ فقال: يا وبر[١] يا وبر إنما أنت أذنان وصدر وحفر وسترك ونقر، ثم قال: كيف ترى يا عمرو؟ فقال عمرو: والله إنك لتعلم أني أعلم أنك تكذب، وقد رأيت أبا بكر الخرائطي أسند في كتابه المعروف « بمساوئ الأخلاق » في الجز الثاني منه شيئًا من هذا أو قريبا منه، والوبر دويبة تشبه الهر أعظم شيء فيه أذناه وصدره وباقية دميم فأراد مسيلمة أن يركب من هذا الهذيان ما يعارض به القرآن، فلم يرجع ذلك على عابد الأوثان في ذلك الزمان.

---

(١) الوبر: دويبة كالهر.

فصل

قال محمد تقي الدين: ختمت هذا الكتاب المبارك وأسأل الله أن ينفعنا به وينفع به كثيرا من خلقه بسورة العصر التي قال فيها الشافعي رحمه الله لو لم ينزل الله تعالى على عباده إلا هذه السورة لكفتهم ووجه الاستدلال بها على اتباع الكتاب والسنة وترك مخالفتهما لقول أحد من الناس كائنا من كان ظاهر مفهوم قوله تعالى في مدح عباده الصالحين « وتواصوا بالحق » لأن الذين يقلدون المذاهب تقليد أعمى دون أن يسألوهم عن دليل من الكتاب والسنة لم يتواصوا بالحق بل تواصوا بالباطل وابتدعوا في دين الله.

قال صاحب الدين الخالص ج٤ ص ٣٨٦ ما نصه:

الوجه الثمانون: أنكم إن رمتم التخلص من هذه الخلطة، وقلتم: بل سوغوا تقليد بعضهم دون بعض، وقالت كل فرقة منكم يسوغ أو يجب تقليد من قلدناه من الأئمة الذين هم مثله أو أعلم منه، كان أقل ما في ذلك معارضة قولكم بقول الفرقة الأخرى في ضرب هذه الأقوال بعضها ببعض.

ثم يقال: ما الذي جعل متبوعكم أولى بالتقليد من متبوع الفرقة الأخرى، بأي كتاب أم بأي سنة؟

وهل تقطعت الأمة أمرها بينها زبرا، وصار كل حزب بما لديهم فرحون إلا بهذا السبب؟! فكل طائفة تدعو إلى متبوعها، وتنأي عن غيره، وتنهي عنه، وذلك مفض إلى التفريق بين الأمة، وجعل دين الله تابعا للتشهي والأغراض، وعرضة للاضطراب والاختلاف، وهذا كله يدخل على أن التقليد ليس من عند الله، للاختلاف الكثير الذي فيه.

ويكفي في فساد هذا المذهب تناقض أصحابه، ومعارضة أقوالهم بعضها ببعض ولو لم يكن فيه من الشناعة إلا إيجابهم تقليد صاحبهم وتحريمهم تقليد الواحد من أكابر الصحابة كما صرحوا به في كتبهم لكان كافيا في الشناعة.

الوجه الحادي والثمانون: أن المقلدين حكموا على الله قدرا وشرعا، بالحكم الباطل جهارا، المخالف لما اخبر به رسوله، فأخلوا الأرض من القائمين لله بحججه، وقالوا: لم يبق في الأرض عالم منذ الأعصار المتقدمة، فقالت طائفة: ليس لأحد أن يختار بعد أبي حنيفة،

وأبي يوسف، وزفر بن الهذيل، ومحمد بن الحسن، والحسن بن زياد اللؤلؤي، وهذا قول كثير من الحنفية، وقال بكر بن العلاء القشيري المالكي: ليس لأحد أن يختار بعد المائتين من الهجرة، وقال آخرون: ليس لأحد أن يختار بعد الأوزاعي، وسفيان الثوري، ووكيع بن الجراح، وعبد الله بن المبارك.

وقالت طائفة: ليس لأحد أن يختار بعد الشافعي، واختلف المقلدون من أتباعه فيمن يؤخذ بقوله من المنتسبين إليه، ويكون له وجه يفتي ويحكم به، ومن ليس كذلك، وجعلوهم ثلاث مراتب.

١) طائفة أصحاب وجوه، كابن شريح، والقفال، وأبي حامد.

٢) وطائفة أصحاب احتمالات لا أصحاب وجوه. كأبي المعالي.

٣) وطائفة ليسوا أصحاب وجوه ولا احتمالات، كأبي حامد وغيره.

واختلفوا، متى أنسد باب الاجتهاد ؟ على أقوال كثيرة، ما أنزل الله بها من سلطان، وعند هؤلاء أن الأرض قد خلت من قائم لله بحججه ولم يبق فيها من يتكلم بالعلم ولن يحل لأحد بعد أن ينظر في كتاب الله ولا سنة رسوله لأخذ الأحكام منها، ولا يقضي ويفتي بما فيها، حتى يعرضه على قول مقلده ومتبوعه، فإن وافقه، حكم به وأفتى به، وإلا رده ولم يقبله، وهذه الأقوال – كما ترى – قد بلغت من الفساد والبطلان والتناقض والقول على الله بلا علم، وإبطال حججه، والزهد في كتابه وسنة رسوله وتلقي الأحكام منهما مبلغا في غاية الفساد ويأبى الله إلا أن يتم نوره، ويصدق قول رسوله: أنه لا تخلوا الأرض من قائم لله بحجته، ولن تزال طائفة من أمته على محض الحق الذي بعثه به ولا يزال الله يبعث على رأس كل مائة سنة لهذه الأمة من يجدد لها دينها ويكفي في فساد هذه الأقوال لأربابها، فإذا لم يكن لأحد أن يختار بعض من ذكرتم، فمن أين وقع لكم اختيار تقليدهم دون غيرهم ؟

وكيف حرمتم تقليد من سواه، ورجحتموه على تقليد من سواه ؟ فما الذي سوغ لكم هذا الاختيار الذي لا دليل عليه من كتاب ولا سنة، ولا إجماع ولا قياس، ولا قول صاحب، وحرمتهم اختيار ما عليه الدليل من الكتاب والسنة، وأقوال الصحابة ؟

ويقال لكم: فإذا كان لا يجوز الاختيار بعد المائتين عندك ولا عند غيرك، فمن أين يسوغ لك – وأنت لم تولد إلا بعد المائتين بنحو ستين سنة – أن تختار قول مالك، دون من هو أفضل منه من الصحابة والتابعين أو من هو مثله من فقهاء الأمصار، أو ممن جاء بعده ؟

وموجب هذا القول أن أشهب، وابن الماجشون. ومطرف بن عبد الله، واصبغ بن الفرج، وسحنون بن سعيد، وأحمد بن المعدل، ومن في طبقتهم من الفقهاء، كان لهم أن يختاروا إلى انسلاخ ذي الحجة من سنة مائتين، فلما استهل هلال المحرم من سنة إحدى ومائتين، وغابت الشمس من تلك الليلة، حرم عليهم في الوقت بلا مهلة، ما كان مطلقا لهم من الاختيار، ويقال للآخرين: أليس من المصائب، وعجائب الدنيا تجويزكم الاختيار والاجتهاد، والقول في دين الله بالرأي والقياس، لمن ذكرتم من أئمتكم، ثم لا تجيزون الاختيار والاجتهاد لحفاظ الإسلام، وأعلم الأمة بكتاب الله وسنة رسوله وأقوال الصحابة وفتاواهم كأحمد بن حنبل، والشافعي وإسحاق بن راهوية ومحمد بن إسماعيل البخاري، وداوود بن على، ونظرائهم على سعة علمهم بالسنن أو وقوفهم على الصحيح منها والسقيم وتحريهم في معرفه أقوال الصحابة والتابعين ودقة نظرهم، ولطف استخراجهم للدلائل، ومن قال منهم بالقياس فقياسه من أقرب القياس إلى الصواب وأبعده عن الفساد، وأقربه إلى النصوص، مع شدة ورعهم، وما منحهم الله من محبة المؤمنين لهم وتعظيم المسلمين علمائهم وعامتهم لهم.

فإن احتج كل فريق منهم بترجيح متبوعه بوجه من وجوه الترجيح، في تقدم زمان أو زهد أو ورع، أو لقاء شيوخ وأئمة، لم يلقهم من بعده أو فوقه، وأمكن غير هؤلاء كلهم أن يقولوا لهم جميع قولكم هذا إن لم تأنفوا من التناقض، يوجب عليكم أن تتركوا قول متبوعكم لقول من هو أقدم منه من الصحابة والتابعين، وأعلم وأورع وأزهد، وأكثر إتباعا وأجل، فأين أتباع ابن عباس، وابن مسعود، وزيد بن ثابت، ومعاذ بن جبل، بل أتباع عمر وعلى، من إتباع الأئمة المتأخرين في الكثرة والجلالة ؟!!

وهذا أبو هريرة: قال البخاري، حمل العلم عنه ثمانمائة رجل، ما بين صاحب وتابع، وهذا زيد بن ثابت من جملة أصحاب عبد الله بن عباس، وأين في إتباع الأئمة مثل عطاء وطاووس، ومجاهد، وعكرمة، وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة، وجابر بن زيد ؟!

وأين في إتباعهم مثل السعيدين، والشعبي، ومسروق، وعلقمة، والأسود وشريح ؟!

وأين في إتباعهم مثل نافع، وسالم، والقاسم، وعروة وخارجة بن زيد، وسليمان بن يسار، وأبي بكر بن عبد الرحمن ؟!

فما الذي جعل الأئمة بأتباعهم أسعد من هؤلاء بأتباعهم ؟!

ولكن أولئك وأتباعهم على قدر عصرهم فعظمتهم، وجلالهم، منع المتأخرين من الاقتداء بهم، وقالوا بلسان قالهم وحالهم: هؤلاء كبار علينا، لسنا من رسومهم، كما صرحوا وشهدوا على أنفسهم، فإن أقدارهم تتقاصر عن تلقي العلم من القرآن والسنة.

وقالوا: لسنا أهلا لذلك، لا لقصور الكتاب والسنة، ولكن لعجزنا – نحن – وقصورنا، فاكتفينا بمن هو أعلم بهما منا، فيقال لهم: فلم تنكرون على ما اقتدى بهما وحكمهما وتحاكم إليهما وعرض أقوال العلماء عليهما، فما وافقهما قبله، وما خالفهما رده، فهب أنكم لم تصلوا إلى هذا العنقود، فلم تنكرون على من وصل إليه وذاق حلاوته ؟

وكيف تحجرون الواسع من فضل الله، الذي ليس على عقول العالمين ولا اقتراحاتهم ؟ وهم وإن كانوا في عصركم ونشؤوا معكم، وبينكم وبينهم نسب قريب، فالله يمن على من يشاء من عباده.

وقد أنكر سبحانه على من رد النبوة بأن الله صرفها عن عظماء القرى وعن رؤسائها وأعطاها من ليس كذلك بقوله ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾.

وقد قال النبي ﷺ: « مثل أمتي كالمطر، لا يدري أوله خير أم آخره ».

وقد أخبر الله سبحانه عن السابقين بأنهم ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ الأَوَّلِينَ وَقَلِيلٌ مِّنَ الآخِرِينَ ﴾.

وأخبر سبحانه أنه ﴿ بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴾ ثم قال: ﴿ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ ثم أخبر ان ﴿ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾.

وقد أطلنا الكلام في القياس والتقليد، وذكرنا من مأخذهما وحجج أصحابهما، وما لهم وعليهم، من المنقول والمعقول، مالا يجده الناظر في كتاب من كتب القوم، من أولها إلى آخرها، ولا يظفر به في غير هذا الكتاب أبدا، وذلك بحول الله وقوته، ومعونته وفتحه فله الحمد والمنة.

وما كان فيه من صواب، فمن الله وهو المان به، وما كان فيه من خطأ، فمني ومن الشيطان، وليس الله ورسوله ودينه في شيء منه، وبالله التوفيق.

خاتمة نسأل الله حسنها

قال محمد تقي الدين: لقد من الله علي وأعانني على ختم هذا القسم وأسأله بأسمائه الحسنى وصفاته العليا وبمحبتنا وإتباعنا لحبيبه وخليله محمد رسول الله صلوات الله وسلامه عليه أن يعينني على القسم الثالث ويجعل هذا العمل خالصًا لوجهه الكريم ولما كنت أنقل كلام الأئمة كنت أمر بأشعار في الرد على المقلدين وذم طريقتهم ومدح إتباع الكتاب والسنة فرأيت أن أؤخرها وأجعلها خاتمة لهذا القسم يستمتع بها من حبب الله له الإتباع وكره إليه التقليد وهذه هي !!

وأول ما أبدأ به القصيدة المقصورة نظمتها في مصر سنة ١٣٤١:

تركت الطريق طريق الجفا ... وأقبلت أتبع المصطفى
وسنته وكتاب الإله ... وأصحابه، أنجم الاهتدا
وأتباعهم أينما وجدوا ... سواء نأى عصرهم أم دنا
سواء ذوو الشرق أم غربنا ... وأهل الخيام وأهل القرى
وليس يجوز بمذهبنا أتباع لغير فدع من هذى
ولسنا نؤول لفظ الحديث والذكر إلا بما قد أتى
فما هلك الناس إلا بما تؤوله زمرة الاعتدا
فنحن على مذهب السابقين من رضي الله عنهم علا
ومن حاد عن نهجهم قد هوى ... سواء درى ذاك أم ما درى
فخير الهدى هدى خير الورى ... وشر الأمور إتباع الهوى
فلا تتصوف ولا تتكلف ... ولا تلج إلا لرب العلا
ولا تدع من دونه أحدا ... فليس ولي سواه يرى
أغير الإله أرى لي وليا ... إذا قد ضللت طريق الهدى
أأتخذ الأولياء وربي ... بمحكم ذكره عنهم نهى
ولو مرسلين ولو صالحين ... ولو طائرين بأوج السما

ولا يعبـــد الله إلا بمـــا أتـــى في شـــريعته وارتضـــى
ومـــن زعـــم العلـــم غـــير الكتـــاب وغـــير الحـــديث الصـــحيح افـــترى
ولا فضـــل في ديننـــا لأرســـطو ولا لابـــن رشـــد ومـــن قـــد قفـــا
فتوحيـــد ربـــي بمنزلـــة غـــني عـــن المنطـــق المرتـــأى
فـــإن أرســـطو وأتباعـــه عـــدو لـــدين إلـــه الـــورى
وإن هـــم رأو حكمـــا أحكموهـــا أخـــذنا بهـــا في أمـــور الـــدنى
ومهمـــا وجـــدنا الحـــديث الصـــحيح عبـــدنا بـــه مـــن لـــه المنتهـــى
ولـــيس لـــه مـــن وســـيلة إلا علـــوم اصـــطلاح وعلـــم اللغـــى
فعلـــم الكـــلام وبعـــض الأصـــول ظـــلام يجـــران كـــل العنـــا
ولا نســـتغيث بغـــير الإلـــه ومـــن يســـتغث بالعبـــاد غـــوى
ونعتقـــد الله ســـبحانه علـــى عرشـــه ذي التعـــالى اســـتوى
ولســـنا نـــؤول ذلـــك بقهـــر ولا غـــيره مثـــل مـــن قـــد مضـــى
وإن البخـــاري في كتبـــه قـــد أحســـن للنـــاس دون امـــترا
عليهـــا اعتكـــف ثـــم منهـــا اقتطـــف تجـــد كـــل مـــا رمتـــه مـــن مـــني
ومســـلم لا تـــنس تأليفـــه فـــنعم الكتـــاب الوثيـــق العـــرى
وإن خضـــت في غـــير دينـــك فاســـلك بعلـــم غزيـــر وإلا فـــلا
ولا تعتـــبر كـــل كتـــب عليهـــا فقـــد مزجوهـــا بمـــا يرتمـــي
فجـــد وخـــذ زبـــد مـــا ســـطروا ودع مـــا تـــراه معيبـــا ســـدى
ومـــا قـــد يســـمونه باطنـــا فبـــاللام يقـــرأه مـــن درى
فـــإن الشـــريعة قـــد أكملـــت وقـــد بينـــت مثـــل شمـــس الضـــحى
فمـــا مـــات خـــير الـــورى أحمـــد إلى أن جلاهـــا بغـــير خفـــا
ومـــا أحـــد مـــن أهيـــل النفـــاق نجـــا فاصـــبر إن نلـــت مـــنهم أذى

ولا تـبن في تربـة قبـة ... ومهما تراها فهدم البنـا
فقـد عبـدوها ومـا فطنـوا ... ووافقهم علمـاء الشـقا
وقـد ألفـوا في عبادتهـا ... بـدون احتشـام بـدون حيـا
لتـدع الإلـه بمـا قـد روي الثقـات ... الهـداة عـن المجتبـى
وإن البخـاري روي في الصـحيح ... دعـاء وذكـرا بـه الإكتفـا
وحـاذر مـن الشـرك فهـو بـذا الـز ... مـان بكـل النـواحي فشـا
ولا قطـب نعلمـه غـير نجـم ... يـرى في السـماء وقطـب الرحـى
ونحوهمـا لا الـذي ذكـروا ... يكـون مقيمًـا بغـار حـرا
يمـد الأنـام ويجـري الشـؤو ... ن في الكـون تالـك أدهـى الفـرا
فهـل مـن كتـاب وهـل سـنة ... أتـت مـن صـحيح الحـديث بـذا
فخـذ بالنصـوص ولا تبتـدع ... وفي عـدم الـنص قـس مـا جـلا
ولـيس لنـا مـذهب لازم ... سـوى مـذهب المصـطفى المرتضـى
عليـه الصـلاة وأزكـى السـلام ... سـلامًا يـدوم بغـير انتهـا
ويشـمل آلا وصـحبا كرامـا ... ومـن قـد قفـاهم بـنهج الصـفا

ذكر ما جاء في كتاب الصوارم من الأشعار التي تدل على فساد التقليد:

قال اللخمي من أئمة المالكية:

أيـا نفـس بالمـأثور عـن خـير مرسـل ... وأصـحابه والتـابعين تمسـكي
عسـاك إذا بالغـت في نشـر دينـه ... بمـا طـاب مـن نشـر لـه أن تمسـكي
وخـافي غـدا يـوم الحسـاب جهنمـا ... إذا لفحـت نيرانهـا أن تمسـك

في هذه الأبيات جناس تام: فتمسك الأولى من التمسك، وهو الأخذ والثبات، وتمسك الثانية من المسك. أن تكون رائحتك طيبة كالمسك وقد صح في الحديث أن المؤمن إذا خرجت روحه فاحت منها رائحة كأطيب ريح مسك فلعله يشير إلى ذلك.

وأما تمسك الثالثة فإنه من المس: أي خافي أن تصيبك وتحرقك والإمام اللخمي أندلسي، وأهل الأندلس. يغلب عليهم الأدب في نظمهم ونثرهم في أي فن ألفوا وتكلموا.

وقال الشافعي رحمه الله:

كل العلوم سوى القرآن مشغلة … إلا الحديث وإلا الفقه في الدين
العلم ما كان فيه قال حدثنا … وما سوى ذاك وسواس الشياطين

وللحافظ أبي محمد عبد العزيز بن محمد الأنصاري رحمه الله تعالى:

لا تغفلن أحاديث الرسول ولا … تهمل تتبعها معنى وألفاظًا
وعد عمن تعداها وضيعها … واجعل صاحبك طلابًا وحفاظًا
ولا تفيضن في علم يخالفها … فهي النجاة لراويها إذا فاظا

وللحافظ الذهبي رحمه الله تعالى:

العلم قال الله قال رسوله … إن صح والإجماع فاجهد فيه
وحذار من نصب الخلاف جهالة … بين الرسول وبين قول فقيه اهـ

وللحافظ أبي عمر بن عبد البر رحمه الله تعالى:

مقالة ذي نصح وذات فوائد … إذا من ذوي الألباب كان استماعها
عليكم بآثار النبي فإنها … من أفضل أعمال الرجال إتباعها

ولشرف الدين ابن أبي الفضل رحمه الله تعالى:

من كان يرغب في النجاة فما له … غير إتباع المصطفى فيما أتى
ذاك السبيل المستقيم وغيره … سبل الضلالة والغواية والردى
فاتبع كتاب الله والسنن التي … صحت فذاك إذا تبعت هو الهدى
ودع السؤال بلم وكيف فإنه … باب يجر ذوي البصيرة للعمى
الدين ما قال النبي وصحبه … والتابعون ومن مناهجهم قفا اهـ

ومن قصيدة شمس الدين بن القيم رحمه الله تعالى: المشهورة:

يا من يريد نجاته يوم الحسا … ب من الجحيم وموقد النيران

اتبع رسول الله في الأقوال والأفعال لا تخرج عن القرآن
وخذ الصحيحين اللذين هما يعقد الدين والإيمان واسطتان
واقرهما بعد التجرد من هوى وتعصب وحمية الشيطان
واجعلهما حكما ولا تحكم على ما فيهما أصلاً بقول فلان
وانصر مقالته كنصرك للذي قلدته من غير ما برهان
قدر رسول الله عندك وحده والقول منه إليك ذو تبيان
ماذا ترى فرضًا عليك معينًا إن كنت ذا عقل وذا إيمان
عرض الذي قالوا على أقواله أو عكس ذاك فذانك الأمران
قدر مقالات العباد جميعهم عدما وراجع مطلع الإيمان
فالرب رب واحد وكتابه حق وفهم الحق منه دان
ورسوله قد أوضح الحق المبين بغاية الإيضاح والتبيان
ما ثم أوضح من عبارته فلا يحتاج سامعها إلى تبيان
والنصح منه فوق كل نصيحة والعلم مأخوذ من الرحمان
فلأي شيء يعدل الباغي الهدى عن قوله لولا عمي الخذلان اهـ

وقال تقي الدين السبكي رحمه الله تعالى من قصيدة له يخاطب بها ابنه الأكبر أبا بكر:

وإذا أتتك مقالة قد خالفت نص الكتاب أو الحديث المسند
فاقف الكتاب ولا تمل عنه وقف متأدبًا مع كل حبر أوحد اهـ

وكان بعض الأئمة إذا رأى أصحاب الحديث ينشد قول أبي بكر بن دريد:

أهلاً وسهلاً بالذين أحبهم وأودهم في الله ذي الآلاء
أهلاً بقوم صالحين ذوي تقى غر الوجوه وزين كل ملاء
يسعون في طلب الحديث بعفة وتوقر وسكينة وحياء
لهم المهابة والجلالة والنهى وفضائل جلت عن الإحصاء

ومـــداد مـــا تجـــري بـــه أقلامهـــم أزكـــى وأطيـــب مـــن دم الشـــهداء
يـــا طـــالبي علـــم الـــنبي محمـــد مـــا أنـــتم وســـواكم بســـواء

وللعلامة مجد الدين محمد بن أحمد بن الظهير رحمه الله تعالى:

أهـــل الحـــديث فعـــذبهم أعلـــى الـــورى قـــدرًا وأغلـــى
نقلـــوا لنـــا ســـنن الرســـو ل وأحســـنوا عـــدلاً فعـــدلا
جـــابوا بســـعيهم لـــذا لـــك حســـبة حزنـــا وســـهلا
وســـروا كمـــا تســـري النجـــو م فأرشـــدوا مـــن كـــان ضـــلا
آيـــات فضـــلهم المبيـــ ـــن بألســـن الحســـاد تتلـــى اهـــ

وللعلامة أبي محمد هبة الله بن الحسن الشيرازي رحمه الله تعالى:

عليـــك بأصـــحاب الحـــديث فـــإنهم علـــى مـــنهج مـــا زال للـــدين معلمـــا
ومـــا النـــور إلا في الحـــديث وأهلـــه إذا مـــا دجـــا الليـــل البهـــيم وأظلمـــا
فـــأعلى البرايـــا مـــن إلى الســـنن اعـــترى وأغـــوى البرايـــا مـــن إلى البـــدع انتمـــي
ومـــن يـــترك الآثـــار قـــد ضـــل ســـعيه وهـــل يـــترك الآثـــار مـــن كـــان مســـلما

ولبعضهم:

أهـــل الحـــديث هـــم أهـــل الـــنبي وإن لم يصـــحبوا نفســـه أنفاســـه صـــحبوا اهـــ

ولبعض علماء الآل رحمه الله تعالى:

العلـــم مـــيراث الـــنبي كـــذا أتـــى في الـــنص والعلمـــاء هـــم وراثـــه
مـــا خلـــف المختـــار غـــير حديثـــه فينـــا فـــذاك متاعـــه وأثاثـــه اهـــ

قوله كذا أتى في النص يشير إلى ما ذكره البخاري في سورة العلق وأخرجه أحمد وأبو داوود والترمذي والدارمي وابن حبان والحاكم مصححا والبيهقي عن أبي الدرداء ط قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « من سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا سهل الله له طريقًا إلى الجنة وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضًا بما يصنع وإن العالم ليستغفر له من في السموات ومن في الأرض حتى الحيتان في الماء وفضل العالم على العابد كفضل القمر

على سائر الكواكب وإن العلماء ورثة الأنبياء وإن الأنبياء لم يورثوا دينارًا ولا درهمًا إنما ورثوا العلم فمن أخذه فقد أخذ بحظ وافر » اهـ وفي الأذكار النووية ما نصه: وكان سهل بن عبد الله التستري أحد أفراد هذه الأمة وعبادها يأتي أبا داوود السجستاني صاحب السنن ويقول أخرج لي لسانك الذي تحدث به عن رسول الله ﷺ، لا قبله فيقبله اهـ. وأخرج الشيخ نصر المقدسي في كتاب الحجة على تارك الحجة بسنده عن الإمام أحمد بن حنبل أنه قيل له هل لله في الأرض أبدال قال نعم قيل ومن هم قال إن لم يكن أصحاب الحديث هم الأبدال فما أعرف إبدالاً اهـ. وللحافظ أبي عبد الله محمد بن على بن عبد الله الصوري رحمه الله تعالى:

عاب قوم علم الحديث وقالوا ... هو علم طلابه جهال
عدلوا عن محجة العلم لما ... دق عنهم فهم العلوم وقالوا
إنما العلم يا أخي كتاب الله ... لا هوة به ولا إشكال
ثم من بعده حديث رسول الله ... قاض يفضي إليه المآل
وطريق الآثار تعرف بالنقل ... وللنقل فأعلمنه رجال
همهم نقله ونفي الذي قد ... وضعته عصابة ضلال
لم يلوا فيه جاهدين ولم تقـ ... ـطعهم عن طلابه الأشغال
وقضوا لذة الحياة اغتباطًا ... بالذي حرروه منه وقالوا
ورضوه من كل شيء بديلاً ... فلعمري لنعم ذاك البدال
ولقد جاءنا عن السيد الما ... جد حلف العلياء فيهم مقال
أحمد المنتمي إلى حنبل أكـ ... ـرم به فيه مفخر وجمال
إن أبدال أمة المصطفى أحمـ ... ـد هم حين تذكر الأبدال اهـ

وفي النظم المتناثر من الحديث المتواتر للكتاني ما نصه: وفي الحديث المتواتر نضر الله امرأ سمع مقالتي فوعاها فأداها كما سمعها دعا له بالنضرة وهي البهجة والحسن قال ابن عيينة ليس أحد من أهل الحديث إلا وفي وجهه نضرة لهذا الحديث اهـ قال الحافظ المنذري

في الترغيب والترهيب ما نصه: قوله نضر هو بتشديد الضاد المعجمة وتخفيفها حكاه الخطابي ومعناه الدعاء له بالنضارة وهي النعمة والبهجة والحسن فيكون تقديره جمله الله وزينه وقيل غير ذلك اهـ وقال ابن حجر الهيثمي في شرح الأربعين النووية ما نصه: قوله نضر الله يحتمل الخبر والدعاء وعلى كل فيحتمل كما قال العراقي كونه في الدنيا وفي الآخرة:

وللحافظ السيوطي:

من كان من أهل الحديث فإنه ذو نضرة في وجهه نور سطع
أن النبي دعا بنضرة وجه من أدى الحديث كما تحمل واتبع

وقال مؤلف هذا الكتاب محمد تقي الدين الهلالي من قصيدة مدح بها الملك محمدًا الخامس رحمه الله:

ومن بدل الشرع الكريم برأيه وقد رد أحكامًا رواها الأكابر
ورد كتاب الله والسنن التي عن المصطفى جاءت وفيها البصائر
فإياكم أن تقبلوا ترهاته فما الجاهل الأعمى كمن هو ناظر
وصل وسلم يا إله على النبي وآله والأصحاب ما جن كافر

وقلت في تخميس قصيدة العلامة، أبي بكر أحمد بن عبد الله بن الحسين الأنصاري المدعو بحميد القرطبي شهرة وهو ما لقي رحمه الله تعالى التي أنشدها القسطلاني في أول شرح البخاري: وسبب إنشائه أن الشيخ السلفي محمد حسين الفقيه تلميذ جمال الدين القاسمي رحمهما الله سألني أن أخمسها في شعر صفر سنة ١٣٤٢حين كنت هناك مقيمًا عند المفضال الشيخ محمد حسين نصيف فجمدت القريحة حينئذ بسبب الاهتمام بالظعن إلى بمباي فلما بلغت بلدة دهلي من بلاد الهند وألقيت بها عصا التسيار وأسفر بعد السفر صبح الاستقرار درت القريحة بهذا التخميس عسى أن يكون سعيًا مشكورًا عند الله ثم عند المؤمنين، وقد نشر هذا التخميس أستاذي العلامة الورع الزاهد الرباني عبد الرحمن بن عبد الرحيم المبارك بوري في مقدمة شرح جامع الترمذي الموسوم بتحفة الأحوذي، معبرًا بقوله: وخمسها بعض الأعلام وهذه هي القصيدة، وهي من بحر البسيط:

إن كنت تطلب علما جد ملتمس وحرت إذ غم عنك الرطب باليبس
فاسمع لنصح لبيب أي محترس نور الحديث مبين فادن واقتبس
واحد الركاب له نحو الرضا الندس واقطع علائق من تحصيله منعت
تنظر شموس الهدى في الأفق قد طلعت وحجب غي ترى عن قلبك ارتفعت
فاطلبه بالصين فهو العلم إن رفعت أعلامه برباها يا ابن أندلس
ولازم الدرس واغنم من فوائده لا تقنع الدهر من حلوى موائده
واشرب فديتك علا من موارده ولا تضع في سوى تقييد شارده
عمرا يفوتك بين اللحظ والنفس دع الكلام فما فيه سوى الخطل
وانبذ مجالسه تحفظ من العلل فهو شر ابتداع جاء بالخلل
وخل سمعك عن بلوى أخي جدل شغل اللبيب بها ضرب من الهوس
الله يعلم كم قد سيق من ضرر للناس من أجله في البدو والحضر
أقبح بها بدعة تدني إلى الشرر ما إن سمت بأبي بكر ولا عمر
ولا أتت عن أبي هر ولا أنس وكم دماء غدت في الناس مهرقة
فهو الكلام بكسر ساء مخرقة فلا ترى فيه شمس الحق مشرقة
إلا هوى وخصومات ملفقة ليست برطب إذا عدت ولا يبس
داء كما جرب في الناس منتشر وكتبه بين أهل العلم تستطر
ذر بدعة عند أهل الحق تحتقر فلا يغرك من أربابها هذر
أجدي وجدك منها نغمة الجرس نأوا عن الحق بالأوهام وانطلقوا
في مهمة بلقع ما فيه مرتفق وجادلوا بأباطيل بها مرقوا
أعرهم أذنا صما إذا نطقوا وكن إذا سألوا تعزي إلى خرس
وأبعد عن الرأي بعدا يعدك الخطر فهو السحاب ولكن ما به مطر
الرأي أغصان سدر ما بها ثمر ما العلم إلا كتاب الله أو أثر

يجلـوا بنـور سـناه كـل ملتـبس إن الحـديث زلال خـير منـبجس
لم ينـأ عنـه سـوى ذي الغـي والهـوس فاعمـل بـه لا تكـن عنـه بمنحـبس
نـور لمقتـبس خـير لملـتمس حمـى لمحـترس نعمـى لمبتـئس
وإن للـدين أصـلين أعـتني بهمـا خـير القـرون وجـدوا في طلابهمـا
يا ويـل مـن قـد جـرى علـى اجتنابهما فـاعكف ببابهمـا علـى طلابهمـا
تمحـو العمـى بهمـا عـن كـل ملـتمس ودع فريقًـا جـروا علـى نقاضـهما
ولا تملـن يومـا مـن عراضـهما وسـرح الطـرف وارتـع في رياضـهما
ورد بقلبـك عـذبًا مـن حياضـهما تغسـل بمـاء الهـدى مـا فيـه منـم دنـس
لا تـركنن لتقليـد بـأي زمـن فـذاك جهـل عظـيم في الصـدور كمـن
إن المقلـد بيـت العنكبـوت سـكن واقـف الـنبي واتبـاع الـنبي تكـن
مـن هـديهم أبـدًا تـدنوا إلى قـبس شـد الرحـال إلـيهم كـي تجالسـهم
واحـذر فـديتك يومًـا إن تعاكسـهم لا تحسـدنهم ولكـن كـن منافسـهم
والـزم مجالسـهم واحفـظ مجالسـهم وانـدب مدارسـهم بـالأربع الـدرس
واطلـب مـودتهم وكـن صـديقهم وكـن مجالسـهم تشـرب رحـيقهم
وقـرهم كلـهم واعـرف حقـوقهم واسـلك طـريقهم واتبـع فـريقهم
تكـن رفـيقهم في حضـرة القـدس هـي الشـريعة فـانظر في سماحتهـا
كفيلـة للنفـوس باسـتراحتها في حظرهـا حكمـة وفي إباحتهـا
تلـك السـعادة أن تلمـم بسـاحتها فحـط رحلـك قـد عوفيـت مـن تعـس

ملحق:

قـال محمـد تقـي الـدين: ثـم ظهـر لـي أن أنقـل أشـعارًا أخـرى مـن جـنس ما تقدمها أنقلها من كتاب الصوارم الذي هو لأعداء السنة قاصم فمن ذلك قصيدة للعلامة الفقيه المحدث بن أبي بكر بن أحميد الديماني المالكي رحمه الله تعالى

لما كثر الاختلاف في هذه المسألة في هذه البلاد:

واعلم بأن القبض في إنكاره خطر فسلم والموطأ فانظرا
وعلى الصحيحين المدار وفيهما فانظرهما قد جاء واقر الكوثرا
والقرطبي أبو الوليد محمد ببيانه الأخبار عنه بأظهرا
ومقدمات أبي الوليد فضيلة عدته كالقاضي عياض فانصرا
وكذاك حبر زناتة إن لم يرد به الاعتماد لديهما فتدبرا

وقد تركت منها تسعة عشر بيتًا في معنى ما نقلته لم يعجبني نظمها لأنه عديم الانسجام بعيد عن الفصاحة والبلاغة.

وسأعوضكم أيها القراء عن ذلك بقصيدة لعالم آخر شنقيطي أيضًا وهو العلامة المحقق محمد بن عبد الرحمن بن أبي بكر بن فتي الحسنى المالكي رحمه الله تعالى وهي فصيحة نظمها منسجم وموضوع القصيدتين ومعناهما واحد.

دع الإكثار ويحك والتمادي بلا جدوى على الخبر المعاد
وخل سبيل أمر ليس يجدي إذا نادى إلى العرض المناد
فمهما رمت هذا السدل فاعلم فإن السدل عم بذي البلاد
ومهما رمت سنة خير هاد فإن القبض سنة خير هاد
ففعل القبض في الفرض اقتداء بخير الخلق أقرب للرشاد
به ورد الكتاب لدى علي وآثار تفوح بعرف جاد
ويفعله الإمام وأن تسلني فإن على أبي عمر اعتمادي
رواه الحبر أشهب وابن وهب وأعلام المدينة خير نادي
وأصحاب الإمام رووه كلا سوى ابن القاسم الحبر الجواد
وليس كلامه نصًا فأنى يكون السدل أقرب للسداد
وفيما في الموطأ وهو نص صريح ما يرد أخا العناد
وفي نص المدونة احتجاج لأهل القبض دون السدل باد

وفي نص النوادر وابن رشد   حذام القول أعلن بالمراد
وينمي لابن عبد وينمي   ليوسف ذي العلوم والاجتهاد
كذا اللخمي الأكمل أدنى   لدى فهم الذكي إلى مراد
كذا المواق وابن الحاج أيضًا   أجادا الطعن في حجج المضاد
كذاك الجهبذ العدوي أيضًا   بغير القبض ليس بذي اعتداد
كذاك الحبر الأجهوري أيضًا   كفيل بالمراد لكل حاد
كذاك أبو علي وهو أيضًا   بمجموع الأمير أخو اعتضاد
كذلكم الميسر والمحشي   أخو الفهم الصحيح والانتقاد
كذلك آخرون ذوو انتساب   لمذهب مالك نجم الرشاد
كذا باقي المذاهب فهي السب   على السدل الضعيف لدى الجلاد
كذاك الأنبياء عليه طرا   من أولهم إلى خير العباد
كذلكم الملائك وابن رشد   إذا ما عن معترض معاد
وللحبر بن عزوز عليه   من الانقال ما يروي الصوادي
وما للسدل من أثر ضعيف   يكافح أن ألم به الأعادي
فأهل القبض أبهى الخلق نورا   وأقربهم إلى مجرى الأيادي
فما للسدل فضل بعد هذا   عليه سوى الشذوذ والانفراد
به ألقى الإله ولا أبالي   وأن سلقوا بالسنة حداد
وألغى ما سواه ولست أصغي   لمانع الاقتداء بخير هاد
وما الرحمن جل له محب   إلى التصويب أقرب في اجتهاد
يحرك ساكني ويشد أزري   ويدفع ما تلجلج في فؤاد
وإن ينل المخالف منك يومًا   وشدد في النكير للاعتياد
فذا فعل النبي فلا تدعه   لإرضاء الصديق ولا المعادي

فقد قلدت أهل العلم حقا ... مع المروي عن خير العباد
صلاة الله يتبعها سلام ... على الهادي إلى طرق الرشاد

وفي رجز الشيخ محمد سفر المدني المالكي المسمى رسالة المهدي ما نصه:

والوضع للكف على الكف ورد ... عن النبي الهاشمي فلا يرد
رواه مالك وأصحاب السنن ... ومسلم مع البخاري فأعلمن
ومن يقل هو بدعة فقد كذب ... دعه ولا تذهب لما له ذهب
وحيثما وضعت تحت السرة ... أو فوق أو في الصدر ليس يكره
لأنه جاءت به الرواية ... وأخذت به ذوو الدراية
وصحح الحفاظ فوق الصدر ... كما رواه وائل بن حجر

وقال صاحب الصوارم أيضًا وفي رجز العلامة محمد فاضل بن أحمد دليل اليعقوبي المالكي رحمه الله تعالى المسمى مثبت الأقدام ما نصه:

واقبض على رسغ الشمال باليمين ... من تحت صدرك فذا فعل الأمين
وكل مرسل كما قد أخبرا ... رسولنا عنهم وعنه اشتهرا

وللشيخ مر به ربو ابن الشيخ ماء العينين رحمهما الله تعالى:

لا يستوي المبطل والمحق ... وفي نصوص القبض جاء الحق
وزهق الباطل إن الباطلا ... كان زهوقا فاترك الأباطلا

ولمحيي السنة الشيخ سيدي ابن الشيخ سيدي محمد بن الشيخ سيدي المتوفى يوم الخميس ثالث جمادي الآخرة عام اثنين وأربعين وثلاثمائة وألف عن أربع وستين سنة وثلاثة أشهر رحمه الله في إبطال هذه الدعوى:

القبض والرفع مما صح من سنن ... عن الرسول بلا نسخ ولا وهن
فلا تكن يا صحيح العقل متبعًا ... آثار أشياء لم تخلق ولم تكن

وقال صاحب رسالة الهدى:

وقولهم رفع اليدين مبطل ... في الانتقال ليس شيئًا يقبل

وقد روي الرفع من الصحابة خمسون قال صاحب الإصابة

ومن قصيدة العلامة المأمون بن محمد الصوفي اليعقوبي المالكي رحمه الله تعالى:

لئن أنكروا رفع اليدين فرفعه لو انتبه النوام أثبت وارد
عن العشرة الأعلام من خير أمة من أصحاب خير المرسلين الأماجد
رموا بالحصى من يترك الرفع وانتحى إلى العكس قومي في صدور المشاهد
وبثوه في الإثبات من كل متقن طبيب بادواء الأحاديث ناقد
وواطا في نص الموطا نافع به سالمًا عن كل مولى ووالد
به شهدوا لابن الحويرث إذ حكي عليهم صلاة المصطفى في المساجد
عليه صلاة الله ما قام بالهدى حليف له من هديه خير قائد
مع الآل والأصحاب خير كواكب بها يعرف الساري وجوه الموارد
ومن تبعوهم مهتدين بهديهم وسنتهم لا محدثات العوائد
وقال البخاري ليس يثبت كفهم عن الرفع عن فرد من الصحب واحد
وإثباته لم يأت قط محدث بأثبت منه في صحاح المساند
على الكلمة العليا برغم المعاند أحق بأن تعلى ففيها فجاهد
عذيري وصمي يا صمام لقولهم بنبذ الأحاديث الصحاح الأساند
فإن قيل أدري بالأحاديث مالك فما لهم في فضله من معاند
هو النجم نجم السنة المهتدى به إذا اشتبهت فيها وجوه الموارد
ولكنه نادى بنبذ كلامه إذا خالفته سنة قول قاصد
تواتر ذا بالنقل عنه ومثله لكل زعيم بالأزمة قائد
كأحمد والنعمان والشافعي الرضى وجلة من يرمي لهم بالمقاود
وقالوا إذا صح الحديث فإنه لنا المنهج المنحو والنقل شاهدي
ونقح عز الدين مضمون قولهم فسلم بالإجماع من كل ناقد

ومن قصيدة المختار بن حامد الديماني الرائقة:

والرفع والقبض عن خير الورى ثبتا	وصحبه قبضوا قطعًا كما رفعوا
ومالك جاء عنه القبض مثلهم	والرفع فهو لهم في دينكم تبع

قال أبو عمر بن عبد البر رحم الله القائل:

لقد بان للناس الهدى غير أنهم	غدوا بجلابيب الهوى قد تجلببوا

وقد نظم ذلك شيخنا محمد عال بن عبد الودود المباركي حفظه الله تعالى فقال:

من ادعى محبة الله ولم	يسر على سنة سيد الأمم
فذاك كذاب أخو ملاه	كذب دعواه كتاب الله

وقال أبو بكر بن أبي داوود في قصيدته في السنة:

ودع عنك آراء الرجال وقولهم	فقول رسول الله أزكى وأشرح

ونقل الفلاني في إيقاظ الهمم: عن سفيان بن عيينة قال: كان ابن شبرمة يقول:

ما في القضاء شفاعة لمخاصم	عند اللبيب ولا الفقيه العالم
أهون على إذا قضيت بسنة	أو بالكتاب برغم أنف الراغم
وقضيت فيما لم أجد أثرًا به	ببصائر معروفة ومعالم

وقال أبو عمر: وإلى هذا المعنى – والله أعلم – أشار مصعب بن الزبير في قصيدته حيث قال:

أأقعد بعد ما رجفت عظامي	وكان الموت أقرب ما يليني
أجادل كل معترض خصيم	واجعل دينه غرضًا لديني
فاترك ما علمت لرأي غيري	وليس الرأي كالعلم اليقين
وما أنا والخصومة وهي لبس	تصرف في الشمال وفي اليمين
وقد سنت لنا سنن قوام	يلحن بكل فج أو وجين
وكان الحق ليس به خفاء	أغر كغرة الفلق المبين
وما عوض لنا منهاج جهم	بمنهاج ابن آمنة الأمين

فأمـا مـا علمـت فقـد كفـاني ... وأمـا مـا جهلـت فجنبـوني
فلسـت بمكفـر أحـدا يصـلي ... ولم أحـرمكم أن تكفرونـي
وكنـا إخـوة نرمـي جميعًـا ... فنرمـي كـل مرتـاب ظـنين
ومـا بـرح التكلـف أن رمينـا ... بشـأن واحـد فـوق الشـؤوني
فأوشـك أن يخـر عمـاد بيـت ... وينقطـع القـرين مـن القـرين

وأنشد أبو عمر في المقلدين:

زوامـل للأسـفار لا علـم عنـدهم ... بجيـدها إلا كعلـم الأبـاعر
لعمـرك لا يـدري البعير إذا غـدا ... بأحمالـه أو راح مـا في الغرائـر

وأنشد فيهم أيضًا قول عمار الكلبي:

إن الـرواة علـى جهـل بمـا حملـوا ... مثـل الجمـال عليهـا يحمـل الـودع
لا الـودع ينفعـه حمـل الجمـال لـه ... ولا الجمـال بحمـل الـودع تنتفـع

وقال الإمام محمد بن عبد السلام الخشني رحمه الله:

قطعـت بـلاد الله للعلـم طالبًـا ... فحملـت أسـفارًا فصـرت حمارهـا
إذا مـا أراد الله حتفـا بنملـة ... أتـاح جنـاحين لهـا فأطارهـا

قال ابن القيم في النونية رحمه الله تعالى:

والجهـل داء قاتـل وشـفاؤه ... أمـران في التركيـب متفقـان
نـص مـن القـرآن أو مـن سـنة ... وطبيـب ذاك العـالم الربـاني
والعلـم أقسـام ثـلاث مالهـا ... مـن رابـع، والحـق ذو تبيـان
علـم بأوصـاف الإلـه وفعلـه ... وكـذلك الأسمـاء للـرحمن
والأمـر والنهـي الـذي هـو دينـه ... وجـزاؤه يـوم المعـاد الثـاني
والكـل في القـرآن والسـنن الـتي ... جـاءت عـن المبعـوث بـالقرآن
والله مـا قـال امـرؤ متحـذلق ... بسـواهما إلا مـن الهـذيان

وهنا أنقل ما يتعلق بالموضوع من قصيدة لي عدد أبياتها خمسة وتسعون وقد رأيت أن أذكر الغزل الذي صدرتها به لأني أعلم أن بعض القراء يحبون الاطلاع عليه وبعد ذلك أنقل ما فيه رد للتقليد أو تمسك بالسنة من حيث الفروع أما ما يدل على العقائد فأؤخره إلى القسم الثالث إن شاء الله وهذه القصيدة قلتها في مكناس سنة ١٣٨١هـ وهذا أولها:

لقد طال ليلي والجوى مالئ صدري ... وبرح بي شوق إلى ربة الخدر
أقضي نهاري دائم الفكر والأسى ... وليلي تسهاد إلى مطلع الفجر
واكتم أسراري حذارًا من العدى ... ومهما أبح فالحب أفقدني صبري
تذكرت أيام الوصال فكاد من ... تذكرها قلبي يطير من الصدر
فيا ويح قلبي ما يلاقي من الهوى ... ومن فرط آلام الصبابة والهجر
وعاذلة جاءت بلوم كأنه ... نعاب غراب للفؤاد غدا يبري
ولست بسال لو أطلت ملامتي ... فكفي عن الإسفاف والمنطق الهجر
وكيف سلوى بعد ما شاب مفرقي ... وأنفقت في حبي لها زهرة العمر
ألم تعلمي أن الملام وإن غدا ... عديمًا من الجدوى فبالحب قد يغري
وطفت بلاد الله شرقًا ومغربًا ... على قدمي طورًا وطورا عل مهر
وأضيت بعرانا وحلقت في السما ... على جائبات الجو كالنجم إذ يسري
وطورا على فلك عظيم كأنه ... ثبير يروع الحوت في لجة البحر
حليف اغتراب في ثواء ورحلة ... وإن كنت في أهل كثير ذوي وفر
« وما غربة الإنسان من شقة النوي ... ولكنها » في الدين والخلق والبر
إلى الله أشكو غربة الدين والهدى ... وطغيان أهل الكفر والفسق والغدر

ومنها:

ومن يقل سنات الرسول فإنه ... يعذب في الدنيا وفي فتنة القبر
ويسأله فيه نكير ومنكر ... وما من جواب عنده غير لا أدري
وذي سنة الجبار في كل من غدا ... يحارب دين الله في السر والجهر

ألم تــــدر أن الله ناصـــــر دينـــــه ومـوقـــع أهـــل البغـــي في دارة الخســـر
وكـم قـد سـعى سـاع لإطفـاء نـوره بكيـــد فـــرد الله كيـــده في النحـــر
وتنصـــر إشـــراكًا وفســـقًا وبدعـــة وناصــر هــذي خاســر أبــد الــدهر
دعـــا المصـــطفى قـــدما عليـــه بلعنـــة ومـــن يلعـــن المختـــار فهـــو إلى شـــر
وتلعنـــه الأمـــلاك مـــن فـــوق ســـبعة كذلك أهـل الأرض في السـهل والـوعر

ومنها:

ومـــا نحــــن إلا خـــادمون لســـنة أتـت عـن نـبي الله ذي الفـتح والنصـر
وخـــادم ســـنات الرســـول حياتـــه كخادمهـا مـن بعـد مـا صـار في القـبر
ومـــا غـــاب إلا شخصـــه عـــن عيوننـــا وأنـــواره تبقـــى إلى الحشـــر والنشـــر
فيـــا مبغضـــي هـــدي الـــنبي إلا أبشـــروا بخـزي علـى خـزي وقهـر علـى قهـر
ســـلكتم ســـبيلاً قـــد قفاهـــا أمـــامكم أبــو جهــل المقصــوم في ملتقــى بــدر
وعاقبـــة المتبـــوع حـــتم لتـــابع كمـا لـزم الإحـراق للقـابض الجمـر
فـــإن أنـــتم كـــذبتم بوعيـــده فكـم كـذبت مـن قـبلكم أمـم الكفـر
فصـــب علـــيهم ربهـــم ســـوط نقمـــة فصـــاروا أحاديـــث المقـــيمين والســـفر
« فيـــارب هـــل إلا بـــك النصـــر يرتجـــى عليهم » إليـك الأمـر في العسـر واليسـر
قلـــوا ســـنة المختـــار يبغـــون محوهـــا وكـادوا لهـا فاجعـل لهـم كيـدهم يفـري
هـــم استضـــعفونا اليـــوم مـــن أجـــل أننـــا قليـل وقـد يعلـوا القليـل علـى الكثـر
ولاســـيما إن كـــان لله قائمًـــا وأعـــداؤه للبغـــي مـــن جهلـــها تجـــري
وإدراك إحـــدى الحســـنيين محقـــق لمن يقتـدي بالمصـطفى مـن ذوي الحجـر
ومـــن ظـــن أن الله مخلـــف وعـــده وخـــاذل أنصـــار الـــنبي بـــذا العصـــر
فـــذاك غلـــيظ الطبـــع أرعـــن جاهـــل عريض القفـا بـين الـورى مظلـم الفكـر
تكفـــل بالنصـــر العلـــي لحزبـــه حيـــاتهم هـــذي وفي موقـــف الحشـــر

ففي غافر قد جاء ذلك واضحًا ... ولكنه يخفي على الفدم والغمر
سلام على أنصار سنة أحمد ... فهم أولياء الله في كل ما دهر
إليهم أجوب البر والبحر قاصدًا ... فرؤيتهم تشفي السقيم من الضر
هم حفظوا الدين الحنيف وناضلوا ... عن الحق بالبرهان والبيض والسمر
هم خلفوا المختار في نشر سنة ... بفعل وأقوال تلألأ كالدر
هم جردوا التوحيد من كل نزغة ... من الشرك والإلحاد والزيغ والنكر
فلا قبة تبنى على قبر ميت ... ولم يعبدوا قبرا بذبح ولا نذر
ولا بطواف أو بتقبيل تربة ... فذلك فعل المشركين ذوي الكفر
ولا رحلوا يومًا لغير ثلاثة ... مساجد خصت بالفضائل والأجر
ولم يستغيثوا في الشدائد كلها ... بغير إله الناس ذي الخلق والأمر

ومنها قولي:

ومن ظن تقليد الأئمة منجيا ... فأفتى بتقليد فيا له من غر
كمنتحل عذرا ليغفر ذنبه ... أضاف له جرمًا تجدد بالعذر
ألا إنما التقليد جهل وظلمة ... وطالبه خلو من العلم والخبر
كطالب ورد بعد ما شفه الظما ... جرى خلف آلا لاح في مهمه قفر
فإن قمت بالإفتاء أو كنت قاضيًا ... فإياك والتقليد فهو الذي يزري
وجرد سيوفًا من براهين قد سمت ... عن الحدس والتخمين والسحف والهتر
وطرفك سرح في الكتاب فإنه ... رياض حوت ما تشتهيه من الزهر
ومن بعده فاعلق بسنة أحمد ... فأنوارها تسمو على الشمس والبدر
ولا تحكمن بالرأي إلا ضرورة ... كما حلت الميتات أكلاً لمضطر
ومهما بدا أن القضاء على خطا ... أقيم فبادر للرجوع على الفور
ومن يقض بالتقليد فهو على شفا ... كعشوا غدت في كافر حالك تسري

ومن يفت بالتقليد فهو قد افترى ... وفي النحل نص جاء في غاية الزجر
لعمرك ما التقليد للجهل شافيا ... وأما نصوص الوحي فهي التي تبري
وصل وسلم يا إلهي على النبي ... صلاة تدوم الدهر طيبة النشر
فدونكها بكرا عروبًا خريدة ... مهفهفة غيدي عروسا من الشعر
يضيء ظلام الليل نور جمالها ... وليس لها إلا القراءة من مهري
قصدت بها نصرًا لسنة أحمد ... وناصرها لاشك يظفر بالنصر
وعدتها تسعون من بعد خمسة ... وأختمها بالحمد لله والشكر

قال محمد تقي الدين: وهذا آخر ما يسره الله تعالى في هذا القسم الثاني من كتاب سبيل الرشاد نسأل الله تعالى أن ينفعنا به متوسلين إليه بأسمائه الحسنى وبمحبتنا وإتباعنا لمحمد خليله صلوات الله وسلامه عليه والحمد لله رب العالمين.

وكان الفراغ منه بعد ظهر يوم السبت الخامس عشر من رمضان سنة ١٣٩٥هـ.

الفهرس

فهرس الكتاب